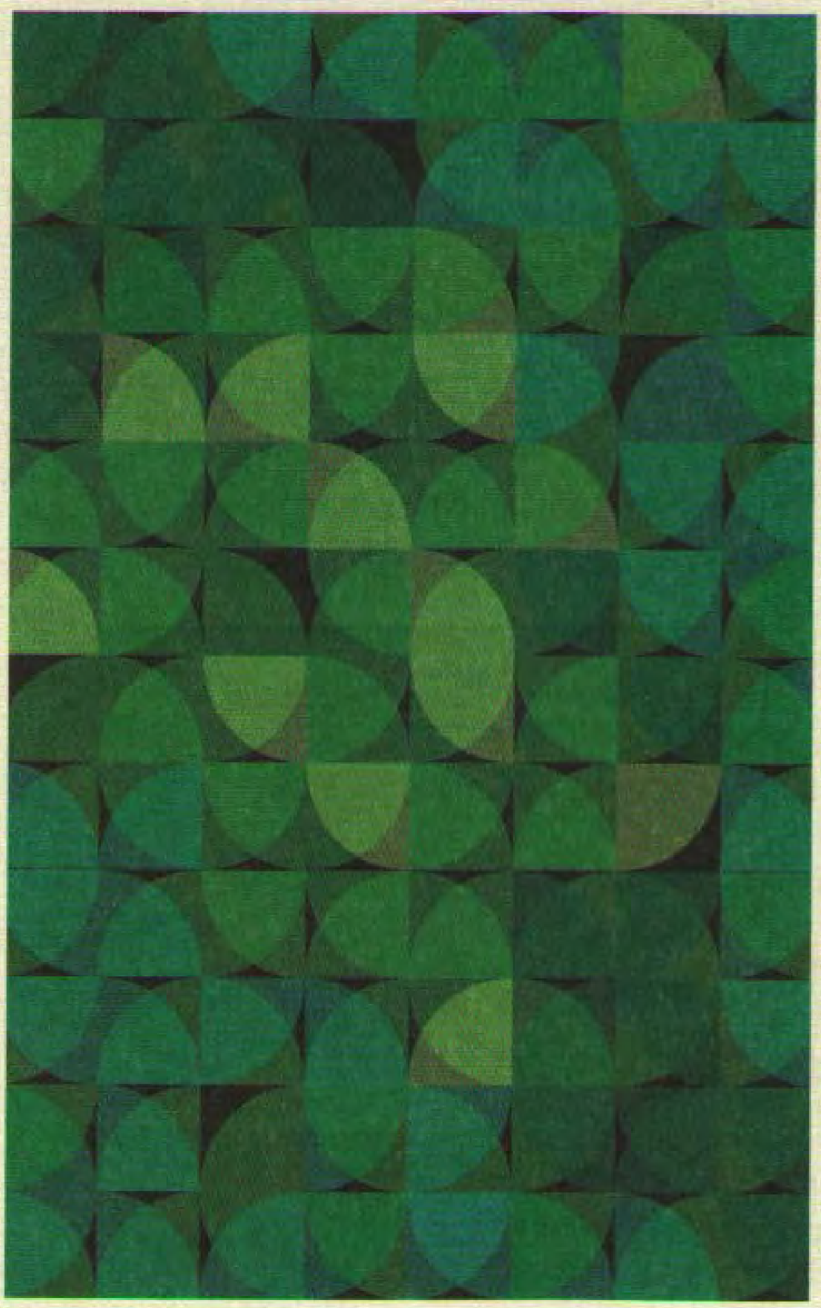
عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



الخيال السياسي

تأليف: عمار علي حسن

المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

الخيال السياسي

تأليف: عمار علي حسن

أكتوبر 2017
453

عالم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 566 - 2

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

المحرم 1439 هـ - أكتوبر 2017

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

«الخيال أهم من المعرفة. فالمعرفة محدودة
حول ما نعيه ونفهمه، بينما الخيال يشمل العالم
وكل ما سيكون هناك لنعيه ونفهمه مستقبلا»
ألبرت آينشتاين

«المستقبل لا يُتوقع بل يُصْنع»
موريس بلوندال

«من يعرف فن التأثير في خيال الجماهير هو
من يعرف كيف يحكمها»
غوستاف لوبون

ومن لا يحب صعود الجبال ...
يعش أبد الدهر بين الحفر
أبو القاسم الشابي

على سبيل التقديم

يستحيل التقدم في العيش بلا خيال، فهو الطاقة السحرية التي تقود الإنسان إلى التمرد على واقعه، والتحرك خطوات مستمرة نحو الأمام، وسط حال من التوتر الدائم، الذي تمور به نفس الإنسان وهو يسعى بلا كلل ولا ملل إلى بلوغ آفاق جديدة، وخوض مغامرات لا تنقطع، في سبيل تحسين شروط الحياة.

والخيال وراء كل شيء في حياتنا. الاختراعات العظيمة الباهرة التي تذلل أمام الإنسان الصعاب، وتختصر له الزمان والمكان، وتوفر الجهد والعرق؛ الأفكار العميقة التي ترسَخ في الرؤوس، وتؤثر في السلوك، وتجذب الأفراد، وتصنع الجماعات، وتمد الدول برافد مهم من «القوة الناعمة»؛ والأعمال الفنية الرائعة التي تهز الوجدان، وتعيد صياغة رؤيتنا للعالم على

«لا يعني هذا البحث في عمومه رفض أو إنكار التفكير بواقعية في السياسة والتقليل من شأنه وأهميته، فلا يمكن تجاهل أن الشحن المعنوي الذي أراد حشد الجماهير خارج الواقع كثيرا ما انتهى إلى كوارث، في الحالة العربية وغيرها»

صورة مغايرة ووعي مختلف؛ وأيضا الإجراءات الفعالة التي نضع أقدامنا عليها لنحل المشكلات، ونعبر المآزق، ونتجاوز الأزمات.

وقد ثبت خطأ التصورات التي ردت العالم إلى نظام آلي ومادي لا يكون للخيال فيه إلا دور ضئيل، مثلما ذهب ديكارت ولوك وغيرهما، فتاريخ العلوم يبين أن الخيال كان وراء كل القفزات العلمية، وأن كل كسب جديد في المعرفة العلمية لا يحصل إلا بخرق قوانين الأنساق العلمية القائمة، فالخيال في صراع دائم مع هذه القوانين ومع النظام بشكل عام، وحين يكسب الخيال المعركة يكون هذا في مصلحة التقدم، والعكس صحيح، فالثورات العلمية الكبرى في حياة البشرية مرتبطة بإطلاق الخيال، وتجاوز المألوف، والمغامرة، والرغبة العارمة في التغيير والارتقاء[1].

فالخيال هو الذي يجعل الإنسان يسمو فوق واقعه التعيس، وعيشه الدائم في كبد، فيسعى بجد واجتهاد إلى تحسين ظروفه. و«الخيال في جوهره سجل لقدرة الإنسان الإبداعية التي تطورت عبر التاريخ، وهو حجر الزاوية في النشاط البشري، وهو الذي مكّن الإنسان من غزو العالم واستكشافه وفهمه ومحاولة السيطرة عليه»[2].

إن الإنسان بطبعه يسعى إلى مواجهة المجهول، وقد يلجأ إلى طرق وأساليب بدائية في سبيل هذا[3]، يحاول بها أن يكشف شيئا من هذا الغامض الرهيب الذي يخشاه، ليستعجل ما فيه من خير مؤجل، ويستمهل ما فيه من شر مستطير، ويضع لنفسه البدائل العملية التي تمكنه من أن يفلت من الشر أو يخفف من وطأته، ويستفيد من الخير، ويعزز وجوده. وفي الحالتين يطلق الإنسان العنان لخياله كي يخلق أمامه احتمالات عديدة تساعده على البقاء قويا على قيد الحياة.

والخيال الذي نقصده في هذا المقام ليس الشرود في أوهام وضلالات لا أصل لها ولا فصل، وليس الاستسلام للخرافات والأساطير التي قد تُسرِّي عن النفس، وتردم بخداعها الهوة الواسعة بين التعاسة والسعادة، وبين العيش في نكد والحلم بالطيران إلى الفردوس الأرضي، وليس هو بناء التصرفات وفقا لما يقوله العرافون والمنجمون وقارئو الكف، بل هو التنبؤ العلمي بما سيأتي بعد فهم ما جرى، وتحليل ما يجري وفق منهج منضبط دقيق، مع إعطاء فرصة قوية للتأمل والبصيرة، أو الحدس والاستبطان العميق.

إن جل الناس في بلداننا العربية يلهثون وراء الحوادث اليومية، ويغرقون في التفاصيل الصغيرة والتافهة، ولا يجدون وقتا لتخيل ما سيأتي، أو حتى التفكير فيما هو أحسن بالنسبة إليهم في الوقت الحالي. وهذه الآفة لا تقتصر على عموم الناس، بل تمتد في الأغلب الأعم إلى النخب الفكرية، والأدهى أنها امتدت إلى كثير من أهل الحكم، فوجدنا بعض الدول تدار يوما بيوم، حيث لا تخطيط شامل ولا استراتيجية واضحة المعالم، الأمر الذي أضاع عليها فرصا حقيقية للتقدم والازدهار.

كما أن «الوعي السائد في الفكر العربي هو الوعي الإذعاني، الذي لا يرى من التغيير سوى البدع المفضية إلى الضلالة بالمعنى الديني، أو بالمعنى المدني، ولا يعي التغيير الجذري إلا كالجائحة التي تبدو مجهولة الأسباب»[4]. وهذا النوع من الوعي لم يقف عند حدود قطاعات جماهيرية دون أخرى، أو نخب دون سواها، بل كثيرون استسلموا لأقدار توهموها أو صنعوها، وخافوا من التغيير فرضوا بالمتاح، على قلته وضآلته، وتهافت فحواه، وتدني جدواه.

لقد عاشت أنظمة سياسية عديدة بلا أدنى قدرة على توقع ما يأتي، بعد أن اكتفى من اعتلوا رأسها بالتقارير التي تمجد أعمالهم، وتهدئ أعصابهم، على حساب الحقيقة. وتصرف بعضهم على أن الشعوب قد ماتت، وأن مستقبل استمرارهم في سدة السلطة مرهون برضاء قوة خارجية وولاء الأجهزة الأمنية. ولو كان لدى هؤلاء بعض خيال سياسي لشرعوا في إصلاحات متدرجة في وقت كانت فيه المعارضة وكثير من المفكرين يطالبونهم بـ«حرق المراحل» للحاق بالدول التي دخلت «الموجة الثالثة للديموقراطية» مع مطلع تسعينيات القرن العشرين. ولو قبلوا هذه المطالب أو النصائح، لربما تجنبوا ثورات وانتفاضات أطاحت بهم.

ومن دون شك، فإن «الربيع العربي» قد طرح سؤالا عن غياب الخيال السياسي Political Imagination، فسياسيا يمكن القول إن «الربيع هو نتاج قصور كبير في المخيلة السياسية العربية، وهو القصور الذي ندفع أخطاءَه، في ظل عجْز العقلية العربية عن تنمية الخيال السياسي لديها، وهو ما جعلها ضعيفة أمام تحديات واقعها، وعن فهم واقعها نفسه، فلم تتمكن من توليد رؤى استشرافية للمستقبل تواجه بها هذه التحديات الداخلية والخارجية على حد سواء. هذا الجمود في الخيال السياسي العربي جعل السياسات قاصرة لا ترى سوى موطئ قدميها، وفي أغلب

الأحيان متأخرة في المنافسة مع الأمم الأخرى»[5]، وتلك هي الآفة السياسية الكبرى.

وهناك من يرى أن مفهوم الخيال قد ارتبط في العقل العربي باللاواقعية واللاممكن، بينما ارتبط في المفهوم الغربي بالقدرة على الإبداع والتجديد، والقدرة على النظرة المستقبلية. وها هو أحد الكتاب العرب يقول: «إنك عندما تمعن في تصور المستقبل فإن ذلك يعني عند العرب أنك تمارس الحلم، بينما يعني عند العالم المتطور أنك تمارس التفكير والتعمق. ولم يفشل العقل العربي أكثر من فشله في استخدام الخيال السياسي، وكان ذلك واضحا وجليا عبر التاريخ العربي الحديث، حيث نجد أنه قام وسار في طرق في غير مصالحه وفي غير مراده، والذي يرجع إلى أن النظرة المبسطة والسطحية كانت دائما تلف المحتوى العام للتفكير السياسي العربي. وهذا يمكن أن يطلق عليه انعدام الخيال السياسي أو الافتقار إلى الاستراتيجية، وهي في الواقع عبارة عن إعادة رسم خريطة الخيال السياسي»[6].

لكن هذا الرأي ينطوي على تعميم خاطئ، فليس كل الغربيين، دولا ومؤسسات وأفرادا، يفكرون دوما في المستقبل بطرق علمية، وليس كل العرب عاجزين عن الخيال السياسي، ويعانون قصورا في توقع ما سيحدث. وتوجد حالات عربية باهرة لدول تمكنت في فترات معينة من إعداد خطط تنموية طموحة، وتبني مشروعات كبرى، ولمؤسسات لا ينقطع عطاؤها في مجالات عدة، ولأفراد لديهم قدرة فائقة على استشراف ما سيأتي، غير أن هذه الحالات تبدو هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة.

لهذا باتت حاجتنا ماسة إلى أن نتخيل، بقدر ما نستطيع، فنحن «من دون هذا الخيال السياسي المستمد من التاريخ والوقائع لا نستطيع بناء رؤى المستقبل، فالمستقبل يصاغ أولا في خيال الشعب ثم يتحول إلى قوة مادية عند انتقاله من الخيال إلى الواقع»[7]، وهذا يتعلق بالحلم الجماعي الذي يداعب الناس، وهم في محاولة مستمرة للتغلب على متاعبهم الذاتية أو في سعي دائب إلى حل المشكلات العامة التي تعترض طريق أمتهم.

وقد يصاغ هذا الحلم في رؤوس النخب، فتطرحه على عموم الناس فيروق لهم، ويطلبون ترجمته في الواقع المعيش. ويمكن للنخب أن تشرع في التنفيذ مباشرة بغض النظر عن رأي العامة أو من دون الرجوع إليها، كما يحدث أحيانا في النظم المستبدة والشمولية. وأحيانا تموت كثير من الأحلام في رؤوس العلماء والمفكرين

أو على أوراقهم من دون أن تجد إلى التنفيذ سبيلا، إما لأنهم لا يجدون طريقا إلى السلطة، وإما أن الأخيرة تتجاهلها لأسباب عديدة، منطقية كانت أو غير ذلك.

لكن تفاعل الناس مع حلم النخبة أو تقدير العلماء والخبراء هو الذي يعطيه قيمة وشرعية أيضا، لأن نتائج هذه الأحلام في النهاية تؤثر في الناس إيجابيا أو سلبيا، فـ «حيازة المعلومات الجيدة والصائبة عن المستقبل ليست أمرا كافيا، بل الأهم هو أن يرى الناس ما يراه المتنبئون، ويعرفوا كيف يستجيبون لهم»[8]، وذلك لأن الناس هم المعنيون بهذه الأحلام، وهم من يحولونها إلى واقع معيش.

بيد أن إيجابية هذه الأحلام رهن بإمكانية تحققها في الواقع، فالأهواء والميول الجائحة والجامحة التي تشطح نحو ما لا يمكن الوصول إليه، تخلق نوعا من التوتر سواء للفرد أو للمؤسسة[9]، وهو ما يجب استبعاده لمصلحة التفكير فيما يمكن الارتقاء إليه، والوصول له، والحصول عليه، وفق دراسة المستقبل، واستغلال أقصى إمكانات الفرد، على أساس أن كل ما تحقق من قبل يمكن بلوغه، بل يمكن تجاوزه إلى وضع أفضل.

إن الدراسات المستقبلية تفتح لنا طريقا للإيمان بأن المستقبل ليس قدرا محتوما، فهناك دوما بدائل بعضها أفضل من الأخرى، ويمكننا أن نختار منها وفق ما نرغب وما نقدر، بشرط أن نكون مستعدين دوما لدفع الثمن الذي يستحقه خيارنا المفضل[10].

وهذا الثمن لا بد أن يدفع في سبيل الخروج من أذى «قلق المستقبل» Future anxiety الذي ينجم عن الخوف الشديد من أن يكون ما يأتي يحمل شرا مستطيرا، وتوقع حدوث أذى ومصائب، والشعور الدائم بتوقع الهزائم والانكسارات، وإدراك خطر يهدد قيمة يعتبرها الفرد أساسية لوجوده، والإيمان بضرورة الخروج من نفق عقد الذنب المرتبطة بالماضي للانطلاق نحو آفاق المستقبل[11].

الاقتراب العلمي

هذه دراسة في علم الاجتماع السياسي، تتصدى لموضوع جديد نسبيا، فـ «الحديث عن الخيال نادر في التحليل السياسي»[12]، إذ لا يوجد كتاب باللغة العربية يتحدث عن هذا الموضوع بطريقة مباشرة وشاملة، وكثير من الدراسات الأجنبية

وضعت عنوانا عريضا حول الخيال السياسي، لكنها لم تكتب تحته كل ما يليق به أو يعبر عنه تعبيرا مباشرا وواضحا، بل ذهبت في اتجاهات متناثرة، معتبرة أن تدابير وتصرفات وسلوكيات سياسية عديدة هي من قبيل الخيال السياسي أو حتى الوهم السياسي، أو واصفة تجربة أمة من الأمم أو دولة من الدول أو إدراكاتها وتصوراتها عن آخرين بأنها نوع من التخيل السياسي.

من هذه الدراسات كتاب كل من جون ل. وجين كوماروف بعنوان «المجتمع المدني والخيال السياسي في أفريقيا: وجهة نظر نقدية»[13]، وهو يشمل عددا من المقالات البحثية حول مجتمعات أفريقية متنوعة الخلفيات الثقافية والدينية والتجارب التاريخية. وترمي هذه المقالات في مجملها إلى استكشاف طرق متنوعة، وغير متوقعة، لدخول المجتمع المدني في عدد من الدول الأفريقية في غمار التجربة السياسية الجماهيرية أو الشعبوية، وتأثير الأيديولوجيات الاستعمارية، ومشروعات التنمية، وثقافة حقبة ما بعد الحرب الباردة، في عمل السياسة اليومية، والمساعي التي تبذلها النخب السياسية في سبيل بناء «مجتمع أخلاقي»، والجذور الثقافية البعيدة للممارسات الثقافية والسياسية، والجهد الذي يبذل في سبيل تعزيز قيم المواطنة والمدنية والتحديث.

وهناك أيضا كتاب عنوانه: «الصين في الخيال السياسي الأمريكي»[14]، أعده مختصون أمريكيون وصينيون من بينهم خبراء استراتيجيون ومؤرخون وصحافيون وعسكريون وممثلون لدوائر المال والأعمال وناشطون في مجال حقوق الإنسان ومسؤولون حكوميون. ويتناول هذا الكتاب التصورات والإدراكات المتبادلة في العلاقات الصينية - الأمريكية، وكيف يجب على ساسة البلدين أن يعيدوا النظر في الصور التي من خلالها حكم كل منهما على الآخر، وأدت إلى سوء فهم متبادل، بغية تطوير علاقات جديدة مستقرة تنبني على الفهم السليم، والتقييم الدقيق للمصالح المشتركة، وتبتعد عن الأوهام التي أدت إلى توتر العلاقات بين بكين وواشنطن في الماضي.

ولذا سيحاول كاتب هذه السطور أن يضع لبنة أولية، ليفتح بابا لنقاش مستقبلي، قد تعقبه دراسات ميدانية، أو تحليل أكثر تشعبا وتعمقا لجوانب سياسية عديدة من أجل توظيف الخيال في تحسين حياتنا السياسية سواء في تمثلاتها المحلية

أو الوطنية، أو في تفاعلاتها الدولية في السلم والحرب. ولهذا يطرح هذا البحث الأسئلة الأساسية، محاولا تجاوز الصعوبات التي تعترضه، كي يجيب عنها بالقدر الكافي، وذلك وفق تحليل أو دراسة عبر نوعية، تبدو هي المدخل الأكثر فاعلية في دراسة هذه القضية.

وتعتبر دراسة «الخيال السياسي» مسألة ليست باليسيرة، نظرا إلى ندرة الدراسات، لاسيما باللغة العربية، التي تتصدى لهذا الموضوع. فالعلوم الإنسانية والبحتة انصب اهتمامها على تطورها الداخلي أو إمكانية تغيير حركة الواقع والعلم إلى الأفضل، ثم جاء حقل معرفي له مسار مستقل يحمل اسم «الدراسات المستقبلية» ليأخذ ذيوعا في العقود الأخيرة، وبدا مدخلا جيدا للتطوير والتغيير، بعد أن تحدد قوامه ورسخت أقدامه. لكن كل هذا يتفاعل بدرجات متفاوتة مع الخيال العلمي أو المعرفي من دون أن يجسده بشكل تام، أو يجيب عن أسئلته الرئيسة، أو يحفر له مسارا علميا مستقلا ومقنعا وقادرا على تقديم «نموذج إرشادي» يدلنا على ما سيأتي، أو على الأقل، يجلي بعض غموضه.

وكثيرة هي الدراسات التي أُلِّفت باللغات الغربية عن الخيال العلمي وفيه وحوله، ولعبت الآداب والفنون دورا محوريا في هذا الصدد، وهناك دراسات بشأن «الخيال الاجتماعي» بشكل عام، حتى يصل الأمر إلى «الخيال السياسي» فيزداد ندرة، ولا يعدو أن يكون بعض المقالات الصحافية القصيرة أو التأملات الأولية أو الخواطر العابرة.

وحتى الدراسات الأجنبية عن الخيال فإنها منشغلة أكثر بالحديث عن «الخيال» من زوايا علم النفس، وعلم النفس الاجتماعي، والنقد الأدبي والفني، والعمليات الإبداعية بشكل عام. كما أنها تفرد الجانب الأكبر للخيال العلمي، بنظرياته وتطبيقاته وآدابه، وإن أتت إلى الخيال الاجتماعي فإن إتيانها يكون ضنينا، ويزداد شحه إن تطرق الأمر إلى «الخيال السياسي»، حيث، في الأغلب الأعم، يجيء ذكره عرضا في تحليل بعض المواقف والقدرات الشخصية للقادة السياسيين ومتخذي القرار، وكذلك من يحركون الجماعات والتنظيمات التي تعمل في المجال العام، أو تجارب بعض الشعوب في الاحتجاج، والسعي المحموم إلى تحقيق حلمها في الحرية والعدل والكفاية والكرامة.

وقد أطلق بعض علماء الاجتماع خيالهم العلمي لبناء «النماذج المُثلى»، التي يعدها ماكس فيبر أداة فهم للمعنى الذي يصبغ به الأفراد تجاربهم المعيشية، بما يضعها في قلب تنظيم المجتمع في لحظة تاريخية ما من تطوره. وهو عبارة عن بناء فكرة، أو وجهة نظر، تضفي طابعا عقلانيا وواعيا على الواقع، بغية فهمه على أفضل وجه ممكن. وبذا يصبح «النموذج المثال» عبارة عن لوحة تفكير، لا تقف عند الواقع التاريخي ولا الواقع الحقيقي، وليس مجرد خطة ينتظم فيها الواقع على نحو مثالي، بل هو بناء نقيس الحقيقة على أساسه، ولذا فإن تصميمه يحتاج منا إلى خيال[15].

وعلى سبيل المثال، وضع عالم السياسة الأمريكي ديفيد إيستون، بعد استقصاء شاركه فيه علماء نفس، نموذجا نظريا لـ «المجتمعية السياسية للأولاد»، ورأى أنها تمر بأربع مراحل، الأولى هي «التسييس»، حيث يكون الطفل مرهف الحس حيال المجال السياسي، والثانية هي «التشخيص»، وفيها يبدأ الطفل في الاحتكاك بالنظام السياسي عبر بعض أشكال السلطة، ثم تصبح هذه الأشكال غرضا للأحكام القيمية، وقت أن يتم إدراك السلطة التي جرى تشخيصها بطريقة مثالية، سواء جيدة أو رديئة، ما يحدد حب الطفل أو كرهه لها، وهنا نكون أمام مرحلة صناعة المثال، التي تعقبها مرحلة «المأسسة»، وفيها يدرك الفرد مجمل السلطات التي يتشكل منها النظام السياسي، بدلا من إدراك بعض الأشكال المنعزلة للسلطة السياسية[16]. وفي المراحل الأربع لا يمكن أن يكون الخيال السياسي ميتا أو حتى نائما، بل إن إمعان النظر في تفاصيل كل مرحلة، على حدة، يبين أنه لا بد من حضور الخيال في سياق عمليات التعلم والتفاعل والتأمل والتبصر.

ومع كل الجهود التي بذلت على هذا الدرب يبقى إعداد دراسة عن «الخيال السياسي» أمرا تكتنفه صعوبات سواء على مستوى المنهج، أو على مستوى المضمون. فأي منهج يلائم دراسة من هذا النوع؟ إذ إن أغلب المناهج قائم على وصف وتشخيص الظواهر الجارية حاليا في الواقع المعيش، أو تحليل وتفسير ما جرى بالفعل وتوافر عنه قدر من المعلومات والتصورات يسمح بتناوله علميا. أما على مستوى المضمون فإن الباحث يجب أن يكون «عابرا للأنواع»، فيطوف على علوم شتى، سائلا إياها أن تمنحه منها ما يقتطفه أو يقتبسه أو يستفيد منه ويحاوره ويحاججه ويستعين به في مسار آخر وفق قاعدة «العلم بمدخله وليس بموضوعه»،

فالتخيل في النهاية يجب أن تحتشد له كل الطاقات الذهنية أو الملكات العقلية، وكل ما وقر في الرأس بعد الاطلاع على معارف شتى، ثم إطلاق الحدس.

ولهذا قد يكفي الباحث في هذا الشأن أن يستطلع هذا الموضوع المهم أو يفحص حقله ويكتب فيه دراسة أولية، تفتح آفاقا أمام باحثين آخرين أو أمام الباحث نفسه لتعميق هذا الموضوع في المستقبل، وتوسيع دائرة تطبيقاته وفق وسائل أو أدوات علمية متعارف عليها.

إذن تسعى هذه الدراسة إلى تأسيس رؤية أولية في «الخيال السياسي»، بوصفه قضية جوهرية في واقعنا المعاصر، سواء على مستوى التأمل والتقعيد النظري أو على مستوى وضع مؤشرات ورسم مسارات للتطبيق العملي.

وتحاول الدراسة أن تجيب عن أسئلة تتراوح بين النظري والتطبيقي مرورا بالإجرائي من قبيل: ماذا نقصد بالخيال السياسي؟ وما علاقته بالخيال عموما؟ وما أهمية الخيال عامة بالنسبة إلى الفرد والجماعة؟ وأهمية ومهام الخيال السياسي بصفة خاصة؟ وما المنابع التي يخرج منها؟ وهل من الضروري أن نعزز وجوده وننميه؟ لكن ما الأساليب التي تمكننا من بلوغ هذا الهدف؟ وما العقبات أو الكوابح التي تقف حجر عثرة أمام انطلاق خيالنا السياسي؟ وما نوع المجالات أو المسارات التي يمكن توظيف الخيال السياسي فيها؟ وهل هناك نماذج محددة للتخيل السياسي؟ وما حاجة العرب إلى الخيال في الوقت الراهن، حيث ثورة التوقعات والتطلعات التي تصاحبها اضطرابات سياسية جارحة تؤثر في المستقبل تأثيرا بالغا؟

كيف سأدرس الخيال السياسي؟

ابتداء، فإن الأداة البحثية أو المنهج العملي ليسا غاية في حد ذاتهما، لكنهما وسيلتان للإحاطة بالظواهر الإنسانية والطبيعية، ولذا فإن المطلوب فقط من أي منهما أن يوفر شرط «الكفاية» في التعامل مع هذه الظواهر. وتختلف هذه الكفاية من مجتمع إلى آخر ومن ظاهرة إلى أخرى، كما أنها ترتبط بالهدف الذي يصبو إليه الباحث من محاولته الإجابة عن تساؤلات عملية ما.

وقد لا تصلح المناهج التقليدية المتعارف عليها في الدراسات الاجتماعية والسياسية في ترسيم الحدود المثلى لسبر أغوار موضوع «الخيال السياسي»، سواء

في تجليه النظري أو في تطبيقاته العملية، ولهذا لا بد من البحث عن مصدر أكثر فعالية، أو مصدر غير تقليدي.

سأتعامل مع الخيال السياسي هنا ليس بوصفه شرودا ضالا بل بوصفه إسهاما في تداعي الأفكار. وقد تسعفني رؤية ديفيد هيوم الذي أقر بأن ثمة ترابطا بين مختلف خواطر الذهن أو أفكاره، فهي بمجرد ظهورها للذاكرة أو المخيلة إنما تتوارد على قدر ما من المنهج والانتظام. وحين نكون مستغرقين في تفكير عميق وجاد ترد علينا أفكار تقطع حبل التفكير، أو تمنع تسلسله العادي، فننبذها ونطردها، لكننا إن استعدناها فسنجد أنها لم تكن بعيدة تماما عما نفكر فيه أصلا، وأن الخيال لم يكن يهيم تهيام المغامر الشارد بعيدا بلا رجعة، وأن هناك ترابطا قائما بين مختلف الأفكار المتتالية. ونحن إن دونّا من المحادثات أفضاها وأبعدها عن الغرض الواحد لوجدنا فيها على الفور ما يربط بينها، ولوجدنا أن الأفكار البسيطة التي تقتحمنا ونحن منشغلون بالأفكار المركبة، موصولة بعضها ببعض، وفق ثلاثة مبادئ: التشابه، والتماس في الزمان والمكان، والسبب والمفعول[17].

سأنظر إلى «الخيال السياسي» بوصفه «منتجا ثقافيا»، لعدة أسباب، أولها أنه يخضع في النهاية لقدرة الفرد على الإبداع، وإمكانية المؤسسة على الخلق والابتكار، وفي كلتا الحالتين فإن ثقافة الفرد أو المؤسسة تمارس دورا في تحديد مستوى الخيال وعمقه واتجاهه وغاياته. وثانيها أن الخيال، بوصفه معنى مجردا، يتشكل من عناصر مختلطة، ينشغل بها الذهن، وتتفاعل داخله، ثم تأتي «الإشراقة» التي تعني اكتشاف الجديد وتوقع الآتي. وثالثها أن دراسة الخيال السياسي تحتاج إلى فهم جوانب عديدة تشكله وتبلوره، وهي موزعة على حقول معرفية شتى، وحالات وظواهر إنسانية متعددة. ورابعها أن التحليل الثقافي «يتجاوز النصوص إلى غاية مبدئية وهي الوقوف على الأنظمة الذاتية في فعلها الاجتماعي، مهما كانت النقطة أو الحالة التي تتموضع عندها»[18]، وهذه مسألة تنطبق على تجليات إبداعية ومنتجات معرفية عديدة، ومنها ما يتعلق بالخيال.

لكن ليس في وسعي أن أزعم أن ما سأنتهي إليه سيكون حاسما في استشراف المستقبل البعيد، إذ إن «التنبؤ عند دراسة الظواهر الاجتماعية عملية محفوفة بالمخاطر، وتزداد صعوبة وتعقيدا إذا كان الأمر يتصل بالظاهرة السياسية لأن من

العسير أن نستشرف المستقبل بوضوح أو أن نحدد مسار الأحداث بدقة، لأن كل الظواهر التي تتصل بالإنسان لا تبدو يسيرة الفهم، مضمونة النتائج عند تحليلها، فالنفس البشرية معقدة، وأصحاب القرار هم بشر في النهاية يؤثرون ويتأثرون ويستجيبون ويرفضون، لذلك فإن محاولة ارتياد المستقبل لا تبدو أمرا سهلا مثلما هي الحال في العلوم التطبيقية»[19].

وسأعتمد في هذا البحث ليس فقط على «جمع المتفرق» و«إتمام الناقص» و«إجلاء الغامض» وهي وظائف للبحث العلمي، لكن أيضا سأذهب إلى «نقد السائد» محاولا أن «أكتشف الجديد»، وذلك عبر الإحالات والأسانيد إلى مراجع قد لا تكون على علاقة مباشرة بالبحث، فكما سبقت الإشارة، فإنه لا يوجد ما له علاقة مباشرة بهذا الموضوع من الناحية النظرية إلا ما ندر. وسأعمد أيضا إلى عرض وطرح «دراسات حالة» فردية وجماعية، أهلية ورسمية، استهدفت تخيل ما سيأتي في مجالات عدة. وسيغلب على تحليلي هنا الطابع الكيفي، والذي لم يعد تقليدا جديدا في الدراسات الإنسانية، بل هو يمتلك تاريخا طويلا، يسبق بكثير فترة توهجه في ستينيات القرن العشرين، بحيث أصبح له نفوذ قوي داخل العلوم الاجتماعية، خاصة مع تبدد غيوم الوهم التي كانت تلبد أفكار البعض حيال الاقترابات البحثية الكمية[20]، بشكل خاص، والنماذج العلمية، بشكل عام.

لقد طرح مارتن هاميرسلي سؤالا مهما في كتابه «سياسات البحث الاجتماعي» عما إذا كان هذا النوع من البحث له أبعاد أو أهداف سياسية، أم أنه من المفترض أن يتوخى الحياد العلمي؟.. ورأى أنه في السنوات الأخيرة تعرضت مسألة الحياد العلمي لتحديات كبيرة، حين أثبتت الاتجاهات النقدية والنسوية والدراسات التي أعدت لمكافحة التمييز العنصري وتحليلات ما بعد الحداثة أن البحث الاجتماعي «مسيس» بدرجة أو بأخرى[21]، في حين شكك توماس كون في كتابه المهم «بنية الثورات العلمية» في قيمة النماذج، أو الإرشادات، التي حفرها علم المنهج ليتحكم في دراسة الظواهر المختلفة بشكل علمي[22].

وسأزاوج في عرض هذه الحالات بينها وبين مراجعة الأدبيات السابقة، للبرهنة على انشغال كثيرين بما سيجري في المستقبل، وسأوظف هذه الحالات، وتلك الأدبيات، في خدمة المجرى العام للبحث، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية،

متلمسا في كل الأحوال خطى أولئك الذين لم يقفوا تحت شجرة ليطالعوها من أسفل، بل صعدوا إلى قمة أعلى شجرة ليروا الغابة كلها.

ولا يعني هذا البحث في عمومه رفض أو إنكار التفكير بواقعية في السياسة، والتقليل من شأنه وأهميته، فلا يمكن تجاهل أن الشحن المعنوي الذي أراد حشد الجماهير خارج الواقع كثيرا ما انتهى إلى كوارث، في الحالة العربية وغيرها.

لكن هناك فارقا كبيرا بين الواقعية بوصفها منهجا سياسيا عمليا، قائما على حسابات دقيقة، وإدراك وفهم عميقين للمعطيات الحياتية، يرمي إلى تحويل الخسائر إلى مكاسب، والضعف إلى قوة، وإلى استغلال الركائز والمقدرات المتاحة مهما كانت قليلة في حل المشكلات الموجودة، وبين «الوقوعية» التي تعني الارتكان إلى رد الفعل، والالتصاق بالأرض، وافتقاد الفاعلية، والاكتفاء بدفع بعض الضرر، وإنجاز ما يفضي إلى مجرد الاستمرار في ظل ضعف بنيوي وهوان مشين، والتذرع إما بأن هناك مؤامرة تحاك ضدنا، وإما بأنه ليس في الإمكان أفضل مما يبذل من جهد وما يتحقق من نتائج، وإما بأن أي حركة إيجابية، حتى لو بدرجة خفيضة، ستنظر إليها القوى الكبرى في العالم على أنها تحدٍّ وعناد، ومن ثم ستسعى إلى تأديب صاحبها.

والواقعية السياسية مدرسة ذات شأن في العلاقات الدولية، عليها قامت أمم وتكونت إمبراطوريات، وأراد لها منظرها ومفكرها الأول هانز مورغنثاو[23]، أن تكون إطارا لتفكير عقلاني في حساب قوة الدولة اقتصاديا وعسكريا، وفي الجغرافيا والسكان، وسبل تعزيزها، وهو لم يكن يقصد منها، كما يفعل الخائفون والمتخاذلون، أن يسوق العجز، بدعوى أن الهامش المتاح لا يوفر أي قدرة على التحدي، أو على الأقل المناورة.

نداء داخلي

ولهذا الكتاب معي قصة، أرى من المفيد أن أرويها، لأنها لا تبين فقط الباعث الذي دفعني إلى تأليفه، بل أيضا تحدد جانبا من المسار الذي سأسلكه، والذي لا يقف عند حد كون «الخيال السياسي» فرعا من الأدب كما يذهب البعض، بل يذهب إلى اللغة التي كتبته بها، والتداعي الحر الذي أطرح به موضوعاته، من دون إخلال بما يقتضيه العلم في التصنيف والتحليل والتعليل والتشكيل.

فقبل سنوات وجّه لي أحد الصحافيين سؤالا: كيف تحافظ على التأليف في الأدب والسياسة على حد سواء؟ وهل ترى المجالين منسجمين أم متنافرين؟

ويبدو أن الإجابات التي تضمنها كتابي «النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية»، والذي هو في الأصل أطروحتي للدكتوراه، لم يشف غليل السائل ولا من يفكر مثله ويحذو حذوه، وينتظر إجابات أوضح، على رغم أن الكتاب، المشار إليه، طرح في معناه ومبناه سؤالا عن إمكانية تأسيس «علم سياسة الأدب» على غرار «علم اجتماع الأدب» و«علم اجتماع الرواية».

وطرحت في الكتاب سؤالا أساسيا هو: هل هناك علاقة بين السياسة والأدب؟ وانطلقت من اعتبار نظرية الأدب الحديثة جزءا من التاريخ السياسي والأيديولوجي لعصرنا، لارتباطها بشكل لا ينفصم بالمعتقدات السياسية والقيم الأيديولوجية، خاصة ما أنتجه «النقد النسوي» الذي يدور في مجمله حول فكرة سياسية تتعلق بالمساواة بين الرجل والمرأة، وكذلك أدب الطبقة الكادحة الذي يحاول أن ينتصر لها في مواجهة الجوانب المتوحشة من الرأسمالية، إلى جانب أدب الحرب، وأدب المقاومة ... إلخ.

ودرست همزات الوصل بين الأدب والسياسة عارضا إياها في نقاط محددة هي: تسييس الظواهر الاجتماعية، والدور السياسي للأدب سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وتعدد وظائف النص الأدبي، ومركزية «الصراع» في السياسة والأدب، واتباع طرق للسرد والحوار في الكتابة السياسية، وبلاغة الخطاب السياسي[24].

وانتبهت، فيما بعد، إلى تصور يرى أن بعض الأدب هو نوع من «الخيال السياسي»، من دون أن يهمل هذا التصور ضرورة ألا يتحول الأدب إلى أيديولوجيا أو «عقيدة سياسية» ووعظ وبيان أو منشور سياسي، فمثل هذا يفقد النصوص الأدبية، شعرا ونثرا، كثيرا من جماليتها وعفويتها وبعدها الوجداني العميق.

لهذا ينتابني أحيانا شعور بأنني وجدت في تأليف كتاب عن «الخيال السياسي» ما يلبي نداء داخليا، لكن الحقيقة تتعدى هذا إلى اقتناع يترسخ لدي، ولدى آخرين، بمرور الوقت، بأن فقر الخيال السياسي في الحياة العربية العامة من العناصر الخفية التي أسهمت في تردي الأحوال على هذا النحو، وبأن الفجوة التي تتسع بيننا وبين الغرب لا تقتصر على التقنية والحداثة فقط، بل الخيال السياسي أيضا.

وإذا كنا قد التفتنا إلى الأولى والثانية فإن الأمر الثالث غائب لدينا، مع أنه يمارس أحيانا دور القاطرة التي تجر الاثنتين. فخيال العالم الذي يفكر في التقنية، والفيلسوف والمفكر والمثقف الذين يفكرون في الحداثة، يحتاج في أغلب الحالات إلى سلطة سياسة ذات خيال حتى تحمل ما تصوره كل هؤلاء أو تحميه أو تمده بأسباب القوة التي تمكنه من أن ينتقل من الرؤوس والأفئدة إلى أرض الواقع.

وعلى رغم أنني من الذين يؤمنون بقدرة المجتمعات في حد ذاتها على أن تمد الخيال التقني والفكري بزخم يساعدهما على العيش والتمدد والانتقال من عالم الأحلام إلى عالم الحقائق، فإن النظرة الواقعية في تجارب الأمم الأخرى، تبرهن على أن السلطات التي أنتجها العقد الاجتماعي في الغرب، والتي تسعى دوما إلى حيازة رضا الشعوب، مارست دورا مهما، بامتلاكها خيالا سياسيا، في تطوير المجتمعات عبر الاهتمام بالعلم والمعرفة والنظر الدائم إلى المستقبل.

لا يعني هذا أن الكتاب محاولة للإسهام في تشييد جسر آخر بين الأدب والسياسة، فهذه ليست المسألة الأساسية في هذا المقام، لأن الأدب يقدم هنا كينبوع واحد من ينابيع الخيال السياسي، علاوة على أن الكتاب يتوخى - في تبويبه وتساؤلاته وإشكاليته الرئيسة والنتائج والخلاصات والتوصيات التي ينتهي إليها - المنهج العلمي، الذي يعلو فيه البرهان على البيان والعرفان.

وعلى رغم أن المتعجل قد يعتقد، ومن خلال الحكم على العنوان فقط، أن الكتاب ينظر إلى الخيال السياسي بوصفه فرعا من فروع الأدب، فعند مطالعة تبويب البحث وصفحاته سيترسخ لديه اقتناع بأن ما يقدم في هذا المضمار هو دراسة سياسية عن مفهوم لايزال يتبلور ويتجدد محاولا أن يتعدى الوقوف عند حد الدراسات المستقبلية في علم السياسة.

بالطبع هناك كثير من الكتابات نظرت إلى الخيال السياسي باعتباره الروايات السياسية، وكذلك القصص والمسرحيات والأشعار، التي تنطوي على نبوءة بالمستقبل، أو تسعى إلى بناء عالم مواز للواقع المعيش، سواء بشكل رمزي، أو بطريقة تحاكي الصور الحياتية الحقيقية، أو حتى إضافة شخصيات إلى العمل الروائي والقصصي والمسرحي النابع من الواقع، لضرورات فنية. لكن هذا لم يمنع آخرين من أن يمعنوا النظر في علاقة الأدب بالفلسفة عموما، والفلسفة السياسية والنظرية السياسية

والفكر السياسي على وجه الخصوص، وهو أساس ينطلق منه هذا الكتاب، ويبني عليه، ويضيف إليه، لينقل الموضوع من حيز الأفكار المجردة، والانطباعات السريعة، إلى مسار الإجراءات.

لقد راحت الفلسفة والنظرية السياسية والأدب تنفصل بعضها عن بعض في معظم أوقات القرن العشرين، حين تم استُبْدلت فكرة «الثقافة الإنسانية» الشائعة بالمساقات الصارمة لكل علم أو معرفة على حدة، وعمل هذا التوجه على إزالة التوتر القائم بين هذه الحقول المعرفية الثلاثة، والذي يمتد إلى قرون بعيدة، حين كانت الفلسفة تختلط، في بعض الأحيان، بالأدب الخيالي.

وقديما عارض أفلاطون الأدب الخيالي، فرأى أن مبدعي الدراما والشعراء خياليون، لا يقدمون العالم الحقيقي، كما أنهم يضرون بالأخلاق حين يبعدون الناس عن رؤية واقعهم كما يجري، ولذا فلا بد أن يسيطر ذكاء الفلاسفة على الأدب الخيالي. لكن الفلاسفة المعاصرين تجاهلوا ادعاءات أفلاطون، وربطوا بين الأدب والفلسفة، ومن زاوية الفلسفة أطلت النظرية السياسية برأسها، واقتربت من هذين الحقلين المعرفيين، وراح فلاسفة ومفكرون سياسيون يستعملون تقنيات الأدب في السرد والحوار والحكاء في البرهنة على ما يريدون أن يثبتوه[25].

هذا الكتاب ينطلق من هذه التصورات، التي تعد أدبيات سابقة في هذا المساق العلمي، ويتجاوزها إلى وضع «الخيال السياسي» في قلب علم الاجتماع السياسي، لا في قلب الدراسات الأدبية التي تنقد وتحلل وتتأمل في ألوان من قبيل الرواية والقصة والمسرحية والشعر، والتي طالما رفدت المجال والسجال السياسي بكثير من المضامين والقيم والرؤى، ومنحته في كثير من الأحيان بعض جمالها وروحانيتها.

معنى الخيال السياسي وأهميته

من الضروري أن نكون حذرين ومتواضعين ونسبيين إن كنا بصدد الحديث في أي فرع من العلوم الإنسانية، ويزداد الحذر والتواضع إن كان الأمر يتعلق بمفهوم جديد لايزال سائلا، وقد يظل هكذا فترة طويلة، مثل «الخيال السياسي»، لاسيما مع ذلك الاعتقاد الذي لا يخلو من برهان، من أننا أحيانا لا نملك أفكارنا بل تملكنا هذه الأفكار إلى حد بعيد.

وأي مفهوم أو مصطلح يشهد عبر تطوره التاريخي إضافات وحذفا وترميما في إطار تفاعله مع وجهات نظر متعددة، وكذلك مع حقول علمية ومعرفية أخرى، والأهم، مع سياقات تتغير في الزمان والمكان، وهذا أمر طبيعي، لأن المفاهيم في العلوم الاجتماعية تنبت من الواقع، وتتأثر بالممارسة، وتتفاعل مع كل ما يطرأ على السياق من تغيرات.

«حتى لو لم تكن النتائج التي يصل إليها خيالنا حاسمة، وحتى لو لم تتصف بالدقة المتناهية، فإنها في كل الأحوال تقربنا من الفهم، وتجعلنا أكثر عملية في تحديد بدائل لحل المشكلات التي تعترض طريقنا»

ومفهوم «الخيال السياسي» ليس استثناء من هذا، لاسيما أن كثيرا من الكتب التي تطرقت إلى هذا التركيب قد أوردته في ثنايا تحليل أو وصف حالة سياسية أو تعبير عن ينبغيات، وبالتالي ولد المفهوم متشاكلا ومتفاعلا مع تصورات مختلفة.

الخيال السياسي وما شابهه والتبس به

لا يمكن أن نذهب مباشرة إلى تعريف «الخيال السياسي» كاصطلاح محدد يمكن ترجمته إلى إجراءات قابلة للتطبيق في الواقع المعيش من دون أن نُجلّي المفهوم العام للخيال كما انشغل به علماء مختصون في حقول معرفية شتى، بوصفه «العقل العابر للحدود»[1] و«الجذر المشترك الذي ينبثق منه العلم والفن»[2]، أو أنه العقل في أقصى درجات المرونة اللازمة لاختراق المجهول، وكشف الغامض، وإتمام الناقص، ونقد السائد، وإبداع الجديد.

وبذا يكون الخيال هو عبارة عن «مجموعة من العمليات الحسية والإدراكية والمعرفية وما وراء المعرفية والانفعالية النشطة التي تكوّن الصور الداخلية وتحولها وتحللها وتركبها وتنظمها في أشكال جديدة يجري تجسيدها بعد ذلك في أعمال وتشكيلات خارجية»[3]. ويكون كذلك هو «طريقة للاستكشاف والتجوال العقلي على نحو إرادي مرن واحتمالي ولاعب بالبدائل»[4].

ويأخذ الفعل «خالَ» في المعاجم العربية القديمة عدة معان، أولها يرتبط بالظن، وثانيها بالاشتباه والتشبيه، وثالثها بعلم الشيء، ورابعها بالاتهام، وخامسها بتصور الشيء وتمثله على غير ما هو عليه، وسادسها بالتوقع والتوسم، وسابعها بالتوهم.

ويبقى الخيال عند العرب الأقدمين هو «قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة، بحيث يشاهدها الحس المشترك كلما التفت إليه فهو خزانة للحس المشترك، ومحله البطن الأول من الدماغ»[5].

وهناك من ينظر إلى الخيال من زاوية علم النفس الاجتماعي ليعرفه بأنه «تتابع مجموعة من الحوادث المتخيلة التي تعبر عادة عن تجارب سارة، وهي آلية دفاعية ضد الإحباط؛ ذلك أنه عندما تحبط رغبات الفرد في عالم الواقع، يلجأ إلى إشباعها في عالم من خلق مخيلته. واستخدام الخيال في تخفيف الإحباط قد يكون عن قصد، وعن شعور صريح وواضح، وقد يرتبط الخيال في حالات متطرفة بمرض الفصام. وهو

يعتبر بشكل أو بآخر قاسما مشتركا بين جميع الأفراد الأسوياء، وهو يؤدي أحيانا إلى التجديد والخلق والابتكار»[6].

وفي تقديمه لكتاب غاستون باشلار «الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادة» يقول أدونيس معلقا على تصور العرب للخيال وقوى التخيل لديهم: «لعلنا جميعا نعرف أن قوى التخيل عند العرب شغلت على نحو أخص، لأسباب كثيرة، دينية في المقام الأول، بفتنة العين والنظر، البصر قبل البصيرة، مظهر الكائن قبل جوهره»[7].

أما إذا أمعنا النظر في تاريخ المصطلح عبر الفكر الأوروبي قرونا طويلة، فسنجد أنه قد اعتبر الخيال أحيانا، وفي أحسن حالاته، وسيطا بين الإحساس والتفكير، وفي أسوأ حالاته، قوة خداعية مراوغة، لكنه أصبح - منذ الحركة الرومانتيكية - الملَكة أو القدرة الأولى في العقل الإنساني»[8]، ولايزال حتى هذه اللحظة يقدر عند أغلب أهل العلم والفن على هذه الحالة.

ويذهب توماس هوبز في كتابه الأشهر «التنين» إلى معنى قريب من هذا، حين ينظر إلى الخيال باعتباره «الحس المتدهور» الذي يوجد لدى البشر، والكثير من المخلوقات الحية الأخرى، في حالة النوم كما في حالة اليقظة، وبذا فهو يعني ما نتذكره من الأشياء بعد أن تذوي.

وهنا يقول هوبز «عندما نريد أن نعبر عن التدهور باعتبار أن الحس يتلاشى ويهرم ويصبح من الماضي، فإنه يسمى الذاكرة، وعليه فإن الخيال والذاكرة ليسا سوى شيء واحد، له أسماء مختلفة لاعتبارات مختلفة.. إن كثرة الذكريات، أو ذكريات أشياء كثيرة، تسمى خبرة، وهنا أيضا، يبقى الخيال أن نتخيل الأشياء التي سبق أن أدركناها بحسنا، إما بأكملها دفعة واحدة، وإما كأجزاء في أوقات مختلفة»[9].

والخيال الذي نقصده هنا هو الذي يدور في حدود «عالم العلم» وليس «عالم الغيب»[10]، وبذلك يمتاز خيال عن خيال بمدى قربه أو بعده عما يمكن تحقيقه لو زالت العوائق من الطريق، فإذا «شطحت بخيالك نحو المستحيل، كان ذلك هو تخليط المجانين، وأما إذا قيدت خيالك بقيود المستطاع، كان هو الخيال الذي يحلم به العقلاء. فإعفاء الخيال من قيود الواقع، يخلق للمجنون عالما كعالم الوحوش المجنحة التي رسمها غويا، كذلك يخلق تلك الوحوش أن نضرب في الأرض صما بكما لا نهتدي بفكرة تخيلناها ورسمناها في الأذهان لنسير على هداها»[11].

وبالقطع هناك فرق بين «التنبؤ العلمي» و«التنبؤ الغيبي»[12]، فالأول لا ينبع من فراغ، بل من نواميس الكون وأحكامه، وسنن الحياة ومراقبة السلوكيات الإنسانية وتكرارها، ولا يتناقض مع قواعدها، بل يتماشى معها، في حين يأخذ الثاني أساليب غير علمية مثل العرافة والتنجيم أو بعض القدرات والطاقات الروحية الخارقة التي يهبها الله لبعض خلقه، وهي غير قابلة للقياس، وكثيرون يدعون امتلاكها، وفي كل الأحوال يبقى الغيب في علم الله سبحانه وتعالى.

ويبلغ هذا الصنف من النبوءة ذروته مع القدر الذي يلعبه الأبطال في السير الشعبية، حيث تضفي عليهم مخيلة الناس مهابة، وتعلق عليهم آمالا، وتنفّس فيهم عن مكبوتها ومكنونها، وتتشجع بنسج حكايات تتوالد عنهم باستمرار في مواجهة تصاريف الحياة.

وهنا يقول أحمد شمس الدين الحجاجي، أحد أبرز المختصين في السير الشعبية: «هذا النوع من النبوءة عنصر مهم من عناصر السيرة، تربط البطل في جميع مراحل حياته بالأسطورة برباط وثيق.. وتلعب دورا كبيرا في إخراجه من حيز الإنسان العادي إلى حيز الإنسان الأسطوري، أي من الواقعي إلى الأسطوري، وهنا يدخل دائرة الكون الكبير، ليصبح مرتبطا به ارتباطا وثيقا. والنبوءة هنا هي الإخبار بالمستقبل قبل وقوعه، أي أنها قراءة الغيب، ومعرفة ما هو مكتوب في قدر الإنسان»[13].

ويمكن للأسطورة المرتبطة بالنبوءة أن تؤدي دورا سياسيا إيجابيا، حال إسهامها في الحفاظ على تماسك الجماعة بتثبيت جذورها، ومنحها أملا، لكن ليس هذا مجال بحثنا هنا، إنما مجالنا هو ما يتناقض في هذه النبوءات مع الخيال السياسي العلمي، ويكرس الخرافة، ويعيد إنتاجها في محاولة يائسة لجعلها تؤدي دورا بديلا للتفكير العلمي.

ومع الأسف، تسلل التفكير الخرافي، والتقدير الجزافي، إلى مجال السياسة ودوائر السياسيين أو في انشغال العوام بالشأن السياسي. ويطلق نبيل عبدالفتاح على استخدام الغيبيات في إدارة الشأن العام «المتخيلات السياسية»، والمتخيل لديه هو «حالة نفسية وفكرية تقع الذات الفردية أو الجماعية فيها أسيرة نسق من معتقداتها الحقيقية أو الأسطورية أو المتخيلة، ويقوم هذا النسق بتغذية العقل والنفسية الجماعية ويضعهما في حالة استهلاك، وإعادة إنتاج، لمجموعة من

المتخيلات التي تعيد الذات الجماعية استهلاكها، ورفدها بعناصر جديدة تساعدها في الاستمرارية وإضفاء الحد الأدنى من الطمأنينة والتوازن»[14].

كما لا يعني الخيال السياسي «التخمين»، فهذا مجرد تهيؤات لا تستند إلى أسس أو مؤشرات علمية أو تقديرات إحصائية وموضوعية يمكن البرهنة أو التدليل على عمومها وتفاصيلها.

والخيال السياسي العلمي الذي نسعى خلفه هنا ليس «المخيال» الذي هو حصيلة اجتماعية يقبلها الإنسان في المجتمع بكل حرية كما يرضى بفن المعمار أو فن الشعر[15]، وهو إن كان عامل توحيد يزيد اللُحمة بين فاعلين اجتماعيين يرونه مبررا للحياة الجماعية، فإنه يقوم بالأساس على المجاز والخوارق[16].

وعن المخيال كتب ابن رشد في شرحه لأرسطو: «محال أن يكون الخيال ظنّا أو حسّا أو علما أو عقلا، وعموما، أيّا كانت من ملكات العقلانية. فهو ليس متركبا من الظنّ والحسّ، كما يقول بعض القدماء.. فجلي أن الخيال ليس ظنّا مقترنا بحسٌ ولا بملكة مركّبة من الظنّ والحس. إذن الخيال ليس إحدى تلك القوى ولا مركبا منها»[17]، أما الخيال السياسي العلمي فيعتمد على العقلانية وتقدير الموجودات المادية والانطلاق من فوق الأرض، ثم تحرير الإرادة والإبداع.

وليس الخيال السياسي العلمي هو «المخيلة» التي تمثل قدرة فطرية في العقل البشري لخلق أفكار أو صور عن عوالم من أشخاص غير واقعية كليا أو جزئيا، وذلك بدءا من عناصر يستمدها العقل من إدراكاته الحسية للعالم الخارجي المشترك بين الناس.

ويعين ديفيد هيوم (1711 - 1776) ما للمخيلة من مقدرة على صناعة مدركات للذات والمجتمع والعالم بغض النظر عن أنها لا تراعي الحقائق التي يمكن أن نصل إليها باستخدام الحواس، فيقول: «لا شيء أشد انعتاقا من مخيلة الإنسان، وعلى رغم كونها لا تستطيع الخروج عن ذلك المخزون الأصلي من الأفكار التي يعطيها الحس الداخلي والخارجي، فإن لها مقدرة لا حد لها على مزج تلك الأفكار وتركيبها وفصلها وتقسيمها، في كل ضروب الخيال والرؤى، ويمكنها أن تحاكي سلسلة من الأحداث لها كل مظاهر الواقع، فتعين لها وقتا مخصوصا ومكانا معلوما، وتتوهمها كأنها موجودة، ثم تخرجها لنفسها بكل الحيثيات التي لحدث تاريخي توقن به أقصى اليقين»[18].

وطالما نزعت المخيلة إلى ممارسة وظيفة سياسية لدى الشعوب قديما وحديثا. فقد كان ملوك الفراعنة في عصر الأسر الوسيطة يطلبون نقش أسماء أعدائهم، من ممالك وقبائل وحكام ومتمردين ومنشقين، فوق أوانٍ فخارية، ثم يحطمونها[19] في احتفال ديني مهيب، قاصدين بهذا الدعوة بالموت على من يناصبهم العداء، ولا يكون بوسعهم أن ينالوا منه. ولم يكن هذا الطقس مجرد إشفاء للغليل، بل كان يرتبط بالاعتقاد في إمكانية إلحاق الأذى بأعدائهم لمجرد أنهم يحطمون أسماءهم المنقوشة على الفخار.

وفي زماننا هذا لايزال أهل مدينة بورسعيد المصرية يحرقون دمية اللورد إدموند اللنبي، المفوض الإنجليزي على مصر، الذي أمر بإطلاق النار عليهم حين خرجوا لوداع الزعيم سعد زغلول وقت أن هبط في ميناء المدينة استعدادا لنفيه إلى جزيرة مالطة في 9 مارس 1919، فقُتل منهم سبعة وأصيب المئات. وحين صدرت أوامر بريطانية برحيل اللنبي عن مصر في العام 1925 رحل من الميناء نفسه، فخرج الأهالي وتجمعوا وأحرقوا «دمية» صنعوها له. وصارت هذه عادة سنوية، وأحد طقوس احتفال أهل المدينة بشم النسيم، والتأريخ لفصل من بطولتهم ضد الاحتلال.

لكن هذين الطقسين لا يقطعان أبدا بأن المخيلة تنبني على أسس علمية، إنما يتخالط فيها التنفيس عن أحلام اليقظة، والأمنيات المكبوتة، مع شعائر دينية، واحتفالات وطنية، وبوسعنا نحن أن ندرس هذا باستعمال مناهج واقترابات العلم، لكن مضمون هذه الطقوس لم يتشكل وفق تصور علمي محكم ومسبق ومدبر، إنما جاء بطريقة عفوية وارتجالية، وتطور مع الزمن لأداء وظيفة سياسية.

ويختلف الخيال السياسي العلمي عن الوهم السياسي، فالوهم عموما هو «التصورات والأفكار والخرافات التي يعتقد المرء بصحتها من دون أي أساس واقعي ومنطقي وعقلي وعلمي، وبأنها قابلة للتحقق في الواقع. كما إنه رغبات تأخذ صورة الحقيقة من دون التفكير المنطقي الواقعي بإمكانية تطابقها مع مطلب الحياة وحاجاتها ومع منطق الأشياء والوقائع. فكل ما ليس بممكن الحدوث الآن ولا في المستقبل هو وهم»[20]. وبالتالي تبدو ضربا من «الوساوس القهرية» و«الهلاوس السمعية والبصرية» أكثر من كونها نوعا من التأمل والشرود الخلاق.

لقد بات «إنتاج وبيع وشراء الأوهام عملية رائجة في زماننا، في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة، في ترويج نمط الحياة والأفكار والصور والأخبار، عملية تقوم بها أنظمة ودول ومؤسسات وأفراد. وصناعة الأوهام ليست عملية بسيطة، إنها أعقد من التجارب المخبرية، وهي محصلة لعناصر عديدة تمثل شبكة، والعمليات العقلية التي تقف وراءها وداخلها يمكن أن نطلق عليها: منظومة فكرية»[21].

والوهم السياسي هو صنف من التفكير خارج حدود الممكن، ولذا فإنه يجعل صاحبه يرى الخطأ صوابا، كما يريه العدوَ صديقا والصديقَ عدوا، ومن هنا فإن أكثر ما تكون أخطاء الوهم شنيعة وقت أن تكون سياسية، فحينها تصبح نتائجها كارثية ومدمرة[22].

لكن هناك من يذهب إلى ما هو أبعد من هذا بكثير معتبرا أن العملية السياسية، حتى في البلدان الديموقراطية، تنطوي في مضمونها على أوهام، حيث يتحول النشاط السياسي بشكل عام إلى مشهد من الأوهام المتشابكة، وفي مطلعه مسألة المشاركة الشعبية في الحكومة، والرقابة الشعبية التي يقوم بها المسؤولون المنتخبون وغيرهم، نظرا إلى وجود آليات واقعية تفرغ هذه العمليات من مضمونها، وتترك المنادين بها أو من يتمسكون بتنفيذها سادرين في أوهامهم[23].

غير أن الحديث عن الخيال السياسي لا يتساوق مع هذه التصورات المرتبطة بـ «الوهم السياسي»، التي تنتقده سواء في بيئة سياسية مغلقة ومتكلسة ومستبدة ورجعية، تسكن الأوهام المقنعة رؤوس نخبتها الحاكمة، أو حتى لدى الشعوب المنفتحة والديموقراطية التي تؤدي آلة الدعاية الرهيبة دورا كبيرا في التعمية عليه، عبر تسويق الشكل، والضن بالمضمون، لتجعل من عملية سياسية يتمكن الناس فيها من القرار بشكل حقيقي ضربا من الوهم.

والخيال السياسي ليس نوعا من التنجيم، حتى لو «نجح المنجمون في اكتساب العقول والقلوب نظرا إلى حاجة الإنسان إلى نوع من التفكير في تاريخ المستقبل، وتحول التنجيم إلى نوع من التسلية وتطورت مدارسه وتقدمت مع تقدم العلوم والمعرفة فتحول إلى نوع من العلم، من باب السياسة، ونجح في استخدام التقنيات المعاصرة لتجديد مهنة قديمة اعتُقد سابقا أنها ستسقط مع تطور الإنسان»[24].

وقد وصل التنجيم السياسي إلى حد بالغ في السنوات الأخيرة، فخاض المنجمون في شؤون السلطات والدول، صغيرة كانت أم كبيرة، ولم يكفهم أن يستعين بهم بعض

الرؤساء حتى في كبرى دول العالم، ولم يُشبع نهمَهم أن يتحدثوا عن الحاضرين من الزعماء والساسة، بل أراد بعضهم أن يقرأ تاريخ سابقين منجما، وهنا يقول أحدهم: «تعددت الكتب التي تناولت حياة السادات، وتعددت طرق الكتابة عنه، لكننا تناولنا حياة السادات من جانب لم يتناوله أحد من قبل، من جانب مثير للاهتمام وربما الجدل أيضا. لقد تناولنا شخصية السادات وتركيبها ودراستها من منظور دقيق بل غاية في الدقة.. إنه من منظور تنجيمي»[25].

ومع هذا يظل التنجيم السياسي لعبة موظفة بدهاء في خدمة توجهات غير نزيهة ترمي إلى التأثير الواسع في الرأي العام، ودفعه إلى الطريق الذي يريده أولئك الذين استخدموا المنجمين، وربما التشويش عليه، في مجاراة للكثير من التحليلات السياسية المؤدلجة والتي تقف وراءها منافع ومصالح فئات وطبقات وسلطات أكثر من كونها عملية مهنية تتوسل بالعلم والأخلاق ولو في الحدود الدنيا[26].

وإذا كان الخيال واحدا من حيث طبيعة العمليات التي يقوم بها مخ الإنسان بغية التخيل والإبداع، فإنه يتوزع في حقول الدراسات الإنسانية ليصير حزمة من الخيالات، تنقسم إلى خيال اجتماعي وسياسي وثقافي وجغرافي وتاريخي واقتصادي وعلمي وبدني رياضي وأدبي وتشكيلي وموسيقي وانفعالي وفلسفي وتطبيقي وتجريبي وتجريدي وغيره[27].

ويرى حسن حنفي أن الخيال السياسي هو «القدرة على تجاوز أزمات الموقف وصعابه وتجاوزها جميعا مرة واحدة، بعد رؤية الواقع كصورة شعرية، وليس كحدود جغرافية أو إمكانيات سياسية، وإثر القفز فوق المراحل والوسائل إلى الغايات والمقاصد، على أن تكون النهاية هي التي تفرض البداية، والنتيجة هي التي تضع مقدماتها وهي المغامرة محسوبة العواقب التي تلهب مشاعر الجماهير، وتأتي بأفضل النتائج فيما وراء العرف الدبلوماسي والشكل القانوني»[28].

ويعرف علي الرحال الخيال السياسي بأنه «إعمال العقل والمخيلة معا لصياغة رؤى متكاملة لحل مشكلات الحاضر»، ويرى أن عمليات التخيل تمر بمراحل مختلفة ومركبة من فهم الواقع، إلى إمكانية تفكيكه وإعادة تركيبه، إلى القدرة على تخيل واقع مفارق بالكلية، إما يُعاد ترسيخ الواقع السابق مع إدخال تحسينات نسبية عليه، وإما تنفتح سبل وإمكانيات أوسع للانعتاق والقطيعة مع ما سبق. والانسداد

في الخيال السياسي يؤدي إلى استدعاء لحظة تاريخية ما ومحاولة فرضها على واقع وسياق مغايرين لها»[29].

وربط إدغار ليت بين الخيال السياسي والأساطير السياسية المتداولة لدى الليبراليين حول قيمهم وتاريخهم وتنظيماتهم ومدى إسهام هذا في ميلاد النظرية السياسية الأمريكية، منطلقا من ضرورة تخليص هذه النظرية في مفاهيمها ومقولاتها ومساراتها المسكونة بالأساطير، لاسيما ما يتعلق بالديموقراطية والأيديولوجيا والهوية والحداثة والمؤسسية والتنشئة والتنوع الثقافي والقيم[30].

لكن يجب الانتباه هنا إلى أنه حين تحضر الأساطير – أو متشابهاتها مثل الموروث الشفاهي والحكايات الشعبية[31] - لا نكون قطعا أمام «خيال سياسي علمي» بل أمام «تخييل» لا ينطوي على أي قاعدة منطقية ولا أي نوع من التواصل أو التفرد[32]، يضفي مهابة وسحرا على سلوكٍ أو شيء معين، أو يبرر وجود جماعة بشرية، دينية أو عرقية أو سياسية، أو يبرر تصرفات بإحالتها إلى حقوق تاريخية أو جذور سماوية.

وعلى رغم التقدم العلمي، لايزال للأسطورة سحرها وقدرتها على أن تمارس وظيفة سياسية ملموسة، و«إذا كان ملايين البشر قد ذهبوا في الماضي القديم ضحية الأساطير، واغتصبت أرض من أصحابها الأصليين، فلاتزال الأسطورة سيدة الموقف حتى زماننا هذا، الذي هبط فيه الإنسان على سطح القمر، وتحقق من حجارته»[33].

وهناك أمثلة عديدة يمكن ذكرها في هذا المقام، في مطلعها ما كتبه الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»، حيث اعتبر الهولوكوست قد تأسطر بغية تبرير احتلال فلسطين، عارضا بحثا تاريخيا وشهادات متناقضة لأشخاص كانوا يعملون في المعتقلات الألمانية في أثناء محاكمة النازيين، ثم قسّم هذه الأساطير إلى دينية، ومنها أسطورة الأرض الموعودة، وشعب الله المختار، وأسطورة يهودا أو التصفية العرقية، ثم الأساطير السياسية مثل معاداة السامية وعدالة محاكمة نورنبيرغ، وأسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» وجماعات الضغط اليهودية في الغرب، ومعجزة إسرائيل[34].

وقد كرس رينيه جيرار كتابه «كبش الفداء» لدراسة جانب مهم من هذه الظاهرة، وكتب عبارة لافتة تحمل الكثير من الدلالات التي تسهم في فهمها، حين قال: «في سياق الروايات غير القريبة من الحقيقة، تتحول الروايات الأخرى القريبة

من الحقيقة إلى أمر محتمل، والعكس بالعكس، ففي سياق الروايات القريبة من الحقيقة، لا يمكن أن يكون عدم قرب غيرها مرجعه نزوع إلى التخيل يُمارَس لمجرد إشباع تلك الرغبة والتلذذ بها. ونحن نعترف طبعا بالأمور الخيالية، ولكنها هنا ليست أي خيال، بل هي خيال خاص لبشر يريدون إشباع رغبة في العنف»[35].

ودرس صلاح سالم الأساطير المؤسسة لـ «الإسلام السياسي»[36]، منطلقا من أنه يؤسس حضوره التاريخي في المجتمعات العربية، ويزعم أن له حقا في التحكم في مصائرها، على عدة «أقانيم» يعتقد في صحتها، على رغم أنها زائفة وهامشية. وتتأسس أسطورة هذا التيار الذي يصارع على السلطة في عالمنا العربي على أربعة أركان هي: الدولة الشرعية، والهوية المغلقة، والمؤامرة الغربية، وضرورة الجهاد العسكري.

وقام ناجي الركابي بتشريح ما سماها «الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي»[37]، حيث اجتهد في تفسير ظواهر اجتماعية وثقافية معاصرة، تسهم جوهريا في صياغة الأنساق والجذور والحواضن التي تشكّل العقل العراقي المعاصر، ومنها الأساطير والملاحم الدينية والشعبية التي نشأت في بيئات جغرافية متجاورة، حيث الصحراء والنهر والحقل. وقد عدّل العراقيون أديانا وثقافات وفدت إليهم، مثل الإسلام والمسيحية واليهودية والزرادشتية، لتتماشى مع خصوصياتهم.

وهناك محاولات لتفكيك بعض التصورات والمقولات المشبعة بالأساطير التي تحرص عليها جماعات عرقية في العالم العربي. وفي هذا الصدد تناول الباحث السوري غسان شاهين «الأساطير المؤسسة لمشروع كردستان الغربية»[38]، عارضا إياه من وجهة نظره في ست أساطير هي: الاستناد إلى معركة جالديران التي قسمت كردستان بين الصوفيين والعثمانيين، ثم اتفاقية سايكس بيكو التي قسمت كردستان إلى أربع دول، وبعدها الوجود التاريخي للأكراد على أرض الجزيرة السورية، وكون الأكراد ضحية لقانون الإصلاح الزراعي في الجزيرة السورية، الذي صدر في العام 1959، حيث صودرت أراضيهم، وعرّبت الحكومة السورية الجزيرة، وأخيرا، كون الحركة القومية الكردية تمثل معارضة وطنية.

وعلى المنوال ذاته درس رمضان مصباح الإدريسي ما قال إنها «الأساطير المؤسسة للمظلومية الأمازيغية»[39]، والتي انطلق فيها من عبارة دالة تقول: «إذا كانت

الجغرافيا أمازيغية فالتاريخ مغربي»، وبذا يرفض قيام أي صراع بين «فريقين لغويين» استنادا إلى أساطير تركها الأسلاف، وينتقد الشعار الذي يقول «عرب ظالمون وأمازيغ مظلومون»، ويؤمن بأن للمغرب تاريخا واحدا، وينادي بأن تكون الثقافة الأمازيغية رحبة ولا تضيقها المظلومية.

وهذه الدراسات تبين أن «مخيال» شعب أو جماعة دينية أو تيار سياسي قد صنع من الأساطير ما يؤدي إلى تماسكه، وتبرير وجوده، وشرعنة مسلكه، والترويج لمساره، وتعزيز مصالحه الجماعية أو الفردية، لكن هذا لا يشكل «الخيال السياسي العلمي» الذي نركز عليه في هذا المقام.

وفي خضم هذا التعدد أو التنوع يصبح «الخيال السياسي» بشكل عام هو القدرة على استيعاب الواقع والقفز إلى ما وراءه لتحقيق هدف سياسي متقدم. وهو ما يعني القدرة على خلق واقع جديد طبيعي وقابل للازدهار.

وهنا يمكن القول: «إذا كان المكان الطبيعي للفانتازيا هو الإبداع الفني، فإنها إن أخطأت طريقها وسكنت عقل رجل السياسة فلا بد أن تولّد فيه طاقة هائلة من الأوهام والتهاويم التي تشعره بقوة لا يمكن تخيلها. هو يتحول إلى سفينة لا تحركها الريح بل هي التي تتحكم فيها. وإذا كانت الرياح أحيانا لا تأتي بما تشتهيه السفن، فهو على يقين بأن الرياح ستخضع لما تشتهيه سفينته. ويستمر مستمتعا بهذا اليقين الممتع إلى أن تأتيه الضربة من الواقع المحيط به ليذكره بوجوده. أليس من المدهش أن اللغة العربية اشتقت كلمة توقع من الواقع.. القدرة على التوقع هي نفسها القدرة على فهم الواقع ثم استخدام عناصره لتحقيق الهدف السياسي»[40].

أما المعنى الأكثر تحديدا وخصوصية ووظيفية للخيال السياسي فيرى أنه مدى قدرة القيادات السياسية من السلطة والمعارضة، وكذلك القيادات الاجتماعية النازعة نحو أفعال مرتبطة بالحكم بشكل مباشر أو غير مباشر، وجماعات الضغط وقادة الرأي عموما، والمؤسسات الوسيطة بين السلطة والمجتمع، على طرح بدائل أو خيارات بغية حل المشكلات التي تعترض طريق النظام السياسي، وكذلك التخطيط لمستقبل الدولة، والقدرة على طرح نظم وأطر سياسية واجتماعية أكثر تطورا، وأعلى قدرة على تلبية احتياجات الشعب الآنية والآتية، وكذلك طموحاته وآماله[41].

وبذا يبقى الخيال السياسي العلمي ليس مجرد تغيير في الأدوات والأساليب السياسية فقط، بل هو أيضا رؤية ذات بعد عميق تستشرف المستقبل أو تعيد قراءة الواقع من منطلقات ومقاربات مختلفة جوهريا عن السائد والنمطي والمتكرر. والخيال السياسي ليس مجرد تطوير عامل الابتكار وإدخاله لهذه الأدوات، وإنما هو استعمال منهج مختلف، يعاد بمقتضاه تشكيل الخطة السياسية برمتها، على نحو يلائم المستقبل[42]. وهذه الخطة يجب أن تلبي الاحتياجات الآتية أو المقبلة للنظام السياسي أو الدولة بمختلف أركانها البنيوية والوظيفية.

والخيال السياسي، سواء في تعريفه أو في حقيقته، لم يعد تهاويم عابرة أو شطحات مارقة، بل بات مسارا علميا له أدوات ضبطه، كما سيجري تناوله فيما بعد، لاسيما بعد أن انتقل علم السياسة من مجال «الينبغيات» التي صبغته سنين عددا في كنف القانون إلى دراسة ما هو قائم وكائن بالفعل في رحاب العلوم السلوكية، التي ساعدت الباحثين، من دون شك، في التنبؤ بالسلوك السياسي[43].

والخيال يتشابه في جوانب منه مع النبوءة، بمختلف أنماطها. أو بمعنى أدق، لا تأتي القدرة على التنبؤ إلا لصاحب خيال علمي خصب، كما يوجد الخيال في كل أنواع النبوءات التي يمكن سردها على النحو التالي[44]:

(أ) **النبوءات المحققة لذاتها:** وهي التوقعات التي تحدث بالفعل في الواقع المعيش، سواء بحذافيرها، كما تنبأ بها أصحابها، أو بتغييرات طفيفة، ومن الأمثلة على هذا ما فعله بيل غيتس Bill Gates حين فكر في احتكارات بمجال الحاسوب، على رغم أن الظروف التي كانت سائدة وقت انطلاق فكرته لم تكن لمصلحتها.

(ب) **النبوءات الهازمة لذاتها:** مثل التوقعات التي تحول دون وقوع أحداث معينة في المستقبل، كأن يتنبأ أحد الخبراء بتفشي مرض معين، فتقوم الجهات الصحية باتخاذ ما يلزم في سبيل تجنب هذا، أو يتوقع أحد الباحثين أو السياسيين اندلاع حرب أهلية في بلد ما إن استمرت الأوضاع على حالها أو تفاقمت فتنتفض أجهزة الدولة ومؤسسات المجتمع للعمل على تفادي الوقوع في هذا المنزلق.

(ج) **النبوءات في حد ذاتها:** وهي توقعات لا يعمل أحد على الحيلولة دون وقوعها إن كانت سيئة، أو على تعزيز فرصة حدوثها إن كانت حسنة، إنما هي تلفت

انتباه الناس إلى موضوعات معينة، وتقدح الذهن في التفكير بشأنها، حتى لو كانت هذه الموضوعات بعيدة عن القضية الرئيسية التي تدور حولها النبوءة.

والنبوءة التي نقصدها بالقطع ليست تلك التي تقوم على «الخوارق» أو «الإلهام الإلهي» الذي خص به الله سبحانه وتعالى أنبياءه الكرام وأولياءه الصالحين، وليست القائمة على أعمال السحر والتنجيم وقراءة الطالع، إنما هي التي تنبت في حضن التفكير العلمي ذي المنهج المحدد الصارم، والمتفاعل مع الحدس والبصيرة. وقد حفل العالم طوال تاريخه بحديث عن هذا اللون من النبوءات التي لديها قدرة على جذب الناس بغموضها ولعبها على المخيلات.

فمثلا، كان الإغريق الأقدمون ينظرون إلى العرافة «أوراكل» الجالسة في حالة من النعاس وسط سحب البخور طيب الرائحة في معبد «دلفي» باعتبارها تمثل برهانا لدى المقبلين على اتخاذ القرارات المهمة في حيواتهم[45]، فقد كانوا يأتونها ويجلسون إلى وسيطة بينهم وبينها تدعى «بيقيا» ويسألونها فتحمل أسئلتهم إليها، فتجيب بأقوال مبهمة وملغزة تأتي في ثوب شعري خالص، وكل منهم يفسرها كيفما شاء.

وحين قالت للتاجر «زينون»: عليك أن تتمدد بجانب الموتى، فسر ما سمع على أنه طلب منه لقراءة الكتب القديمة، ففعل وصار فيلسوفا. وحين سألها «خايرفون» زميل سقراط عن أكثر الناس معرفة وحكمة، فأجابته هذه المرة بطريقة واضحة وقاطعة: إنه سقراط، ووصل الخبر إلى سقراط فتشجع على مواصلة البحث ليصبح من حكماء البشرية عبر تاريخها المديد.

وفي مرة، طلبت إليها بعثة من أثينا أن تعلمها بأفضل الطرق لصد هجوم ملك الفرس أحشوروش الأول (520 – 465 ق. م) فردت عليهم قائلة: «من أعلى قمم المعابد يتدفق دم أحمر غامق ككرز لسوء الحظ المحدق. فلتتركوا الغرفة المقدسة، ولتبقوا شجعانا إبان الويلات والخطر! فقط السور الخشبي، الذي لن يدمر، يهديه كبير الآلهة زيوس لابنته أثينا، لأجلك أثينا ولأجل الأطفال فلتستخدموه».

وعادت البعثة إلى أثينا لتتداول الرأي حول ما سمعت، ودب بين أفرادها اختلاف، فهناك من فسر السور الخشبي على أنه أشجار الأشواك الكثيفة حول «الأكروبول»، لكن سرعان ما غاب هذا التفسير لحساب آخر يقول إن المقصود هو

بناء أسطول حربي، وانتصر هذا الاتجاه، وجهزوا الأسطول بالفعل، وانتصر الأثينيون في هذه المعركة وهم أقل عددا وعدة.

وفي القرن السادس عشر ظهر رجل في فرنسا يعمل صيدلانيا ومنجما، لاتزال شهرته تجوب الآفاق، اسمه نوستراداموس، أو ميشيل دي نوسترادام (1503 – 1566)، لم ينتظر أن يذهب الناس إليه ليسألوه فيجيبهم على غرار «أوراكل» ، لكنه شرع في نشر نبوءاته في صيغة شعرية على هيئة رباعيات، حواها كتابه «النبوءات»، الذي ظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1555.

فعلى سبيل المثال قالت أول نبوءة في المئة الأولى:

«اجلس وحيدا في الليل في دراسة متكتمة،

إنها موضوعة على الحامل النحاسي ذي القوائم الثلاث.

تخرج شعلة واهية من قلب الفراغ

وتدفع إلى النجاح ما لا ينبغي الإيمان به لأنه باطل».

أما النبوءة الأخيرة في هذه المئة فقالت:

«سيكون هناك اضطراب مريع في الجزر

على رغم أن المرء لا يسمع إلا الطرف المحب للحرب.

سوف يكون خطر النهابين كبيرا جدا إلى حد

أنهم سيأتون للانضمام إلى الحلف الكبير».

وامتلأ الكتاب بظلال لرموز وردت في الكتب المقدسة وأعمال أخرى تنبئية أعيدت صياغتها في ثوب شعري غامض، مفتوح على تأويلات عدة. ومنذ ذلك الحين، كلما وقعت حادثة كبرى، اتجهت العيون والأذهان إلى هذا الكتاب، تبحث فيه عما يتطابق مع ما جرى، ليقول كثيرون: هذا ما تنبأ به نوستراداموس، وكانت هذه الأقوال تحتدم إن كانت النبوءة تتعلق بموت ملك، أو وراثة عرش، أو هزيمة جيش.

ويقال إن زوجة غوبلز، وزير دعاية هتلر، أيقظته ذات ليلة، عندما فرغت من قراءة نبوءات نوستراداموس، لتخبره بأنها تتوقع هزيمة ألمانيا، فسارع بتوظيف منجم اسمه كرافت كي يرد عليها بنبوءات مضادة.

وبعيدا عن مثل هذا الفيض الأسطوري للنبوءة، هناك حالات لصورة أخرى من النبوءات بعضها صدق، وبعضها كذب. وكثيرا ما صدقت نبوءات في مجال

الطقس والمناخ، والمال والأعمال، والعلوم والتقنيات، وتوالت الاستكشافات العلمية المذهلة.

وهناك نبوءات فشلت فشلا ذريعا، مثل ما تنبأت به صحيفة «نيويورك تايمز» في التاسع من أكتوبر 1903 من أن الآلة الطائرة التي ستحلق في الفضاء ستتطور بفضل جهود علماء الفيزياء والرياضيات خلال فترة من مليون إلى عشرة ملايين سنة. ففي ذلك اليوم نفسه بدأ الأخوان رايت في تجميع أول طائرة في دكان صغير كانا يمتلكانه، ولم تمض سوى أسابيع قليلة حتى كانت تحلق بالفعل.

وكثيرا ما تظهر التنبؤات الفاشلة في المجال العسكري، والمثل الصارخ على هذا ما قال به قائد سلاح الجو الإيطالي في الحرب العالمية الأولى، الجنرال جوليو دويه، في كتاب ألفه سنة 1921 اعتبر فيه أن اختراع الطائرات المقاتلة جعل جميع أجهزة الجيش الأخرى بالية، وغير ضرورية[46]، وهو ما ثبت خطؤه طوال العقود الفائتة.

وحتى تكون عملية التنبؤ علمية، على من يقوم بها أن يقطع عدة خطوات، يمكن ذكرها على النحو التالي:

1 - تجميع وتصنيف كل ما أُنجِز مسبقا في الموضوع المراد التنبؤ به، ثم تحديد كيفة الاستفادة منه على أفضل وجه ممكن.

2 - تعيين وفهم الظرف أو السياق الذي يعمل به حاليا، والعناصر التي تحدده وتتحكم فيه، سواء الآن، أم في المستقبل.

3 - توقع ما يحتمل أن يظهر على الساحة في قابل الأيام من هذه العناصر، سواء كانت جديدة غير مألوفة، أو قديمة تتجدد.

4 - جمع بيانات ومعلومات حول الموضوع المراد التنبؤ به، ثم تحليلها على نحو دقيق علميا، وفق اقتراب أو منهج وباستعمال أدوات منضبطة.

5 - سؤال من لديهم خبرة بالموضوع وسبق أن عركوه، ممن يمتلكون تصورا بخصوصه، عن توقعاتهم لما سيأتي، وتسجيل هذا كما أورده أصحابه، ثم تحليله.

6 - يتم هذا وفق عدة مبادئ، منها تحقيق وتعظيم المكاسب وتجنب وتقليل الخسائر، والاستفادة القصوى من كل الفرص المتاحة، وتفادي أي قيود أو مشكلات يمكن أن تحدث مستقبلا، والتعامل بواقعية مع الأهداف المبتغاة.

وهذا التنبؤ العلمي الذي يشكل جانبا أساسيا من الخيال مهم بالنسبة إلى الدراسات المستقبلية، إذ إن أحد الاقترابات الفلسفية للدراسات المستقبلية متصل باليوتوبيا التي تطالب ببناء المستقبل على قاعدة ما نتمناه لمجتمعنا، وضرورة وصوله إلى الحالة المثلى التي نحلم بها[47]. كما أن الدراسات المستقبلية بدورها تفتح آفاقا لـ «إعمال الفكر والخيال في دراسة مستقبلات ممكنة Possible futures، أي بغض النظر عما إذا كان احتمال وقوعها كبيرا أو صغيرا، وهو ما يؤدي إلى توسيع نطاق الخيارات البشرية»[48]، وهذا يعني أن العلاقة بين الأمرين تبادلية أو أن كلا منهما يغذي الآخر؛ فدراسة المستقبل تحتاج إلى إعمال الخيال، بمعناه العلمي والمنهجي والمنطقي، والدراسات المستقبلية تفتح أبوابا جديدة لتعزيز القدرة على الإبداع والتخيل.

إن استشراف المستقبل لم يعد ترفا تقوم به المؤسسات الكبرى والدول المتقدمة، بل بات ضرورة لكل المؤسسات وكل الدول. وقد أطلق العالم الألماني أوسيب فلختهايم على عملية التنبؤ المستقبلي «علم المستقبل» أو «المستقبلية» Futurology، لكن الولايات المتحدة الأمريكية كانت الدولة الأسبق في الاهتمام بهذا المجال، ووظفته في صناعة القرار الرشيد، ولذا أنشأت في العام 1945 مؤسسة للدراسات المستقبلية، أطلقت عليها اسم «RAND»، وهي التي لاتزال تصدر العديد من الدراسات حول مستقبل السياسات المحلية والدولية، خاصة في مجال الاستخدام المستقبلي للأسلحة الاستراتيجية الأمريكية[49].

ويمكن استقراء المستقبل بالاستناد إلى نموذجين: الأول ثابت Static يعتمد إلى حد كبير على مجموعة من البيانات التي تغطي فترة تاريخية ماضية، ثم يستقرأ خطيا Projection، والثاني متحرك Dynamic يواكب التغير الجاري في البيانات والمعلومات والمواقف. وكلاهما يعتمد على وضع سيناريو أو حالة متوقعة[50]؛ قد لا نصل إلى ما ستكون عليه كاملا، لكننا على الأقل نقترب من معرفة بعض جوانبها أو أغلبها.

وهناك عدة خصائص منهجية يجب توافرها في الدراسات المستقبلية، يمكن ذكرها على النحو التالي[51]:

- النظرة الكلية أو الشاملة ومدى تشابكها وتداخلها وتفاعلها بعضها مع بعض.
- يجب مراعاة التعقد الشديد الذي تتسم به بعض الأمور، أو دراسة الظواهر من مختلف جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية وغيرها، وإدراك

كل ما يكتنف أي ظاهرة، وعدم الوقوع في فخ التبسيط المخل، أو التجريد الذي لا يعين أو يحدد الأمور بشكل جيد.

- من الضروري فهم ما يزخر به الواقع من انعدام يقين، وحركة دائبة لا تخمد، وما تهديه شبكة التفاعلات والعلاقات بين الأشياء والأمور.
- من المهم القراءة الفاحصة والحصيفة للماضي، وما ساد فيه من اتجاهات ومواقف، وكذلك دراسة الحاضر في تناقضاته، حتى يمكن الإمساك بالمفاتيح الصالحة لفهم الاتجاهات المحتملة في المستقبل.
- علينا أن نقرأ تجارب الآخرين وخبراتهم كي نستفيد منها في فهم آليات التطور، وتعاقب المراحل، والوقوف على القيود التي تعيق الحركة، ومعرفة سبل تجاوزها.

ويأتي الخيال ليعطي هذه الخصائص المنهجية دفعة كبرى من زاوية «الفكر المستقبلي»، الذي حقق نجاحا يفوق بكثير ما أنجزته الدراسات المستقبلية، التي أخفقت في توقع تسارع الأحداث التي شهدتها السنوات الأخيرة. فبينما كانت الدراسات المستقبلية تتحسس خطاها نحو تجويد وتدقيق مناهجها، كان الفكر الفلسفي، بامتلاكه عمقا فلسفيا، يقدم رؤية أكثر اتساعا[52].

حاجتنا إلى الخيال السياسي

في معرض تعليقه على الانتقادات التي وجهت إلى جهاز الاستخبارات الأمريكية (سي. آي. إيه) عقب حدث 11 سبتمبر الرهيب، رأى الكاتب المعروف توماس فريدمان إن الجهاز لم يفشل في جمع معلومات جيدة وكافية عن هذا المخطط، لكنه أخفق في حيازة الخيال الذي يعطيه قدرة على التفكير بطريقة خلاقة في المعلومات المتوافرة لديه[53]. وكأنه أراد أن يقول لنا إنه لا يكفي أن يكون لدى أي فرد أو مؤسسة معلومات كافية ودقيقة، بل يجب أن يحوزا ملكة الخيال، وتكون لدى من يقومون عليها قدرة على التبصر.

وما قاله فريدمان هو الحقيقة بعينها، فالخيال يساعد في الفهم، كما تفعل الذاكرة، وذلك عن طريق وضع المعلومات التي يساء التعبير عنها أو التي لم تُسمع كلها في وضعها الصحيح. وهو بطبيعة الحال قد يوقعنا في أخطاء، ولكنه مفيد

عموما، بل يمكننا أن نصحح الكثير من الأمور بالتخيل[54]. فحتى لو لم تكن النتائج التي يصل إليها خيالنا حاسمة، وحتى لو لم تتصف بالدقة المتناهية، فإنها في كل الأحوال تقربنا من الفهم، وتجعلنا أكثر علمية في تحديد بدائل لحل المشكلات التي تعترض طريقنا.

كما يساعدنا الخيال الاجتماعي أو السياسي على فهم التغيرات التي تقع في الأوساط الشخصية المباشرة (المتاعب) من خلال النظر في البناء الاجتماعي الأشمل (القضايا) ومدى تأثيره في حياتنا الخاصة[55]. ولهذا اقترح رايت ميلز Wright Mills[56] الخيال السوسيولوجي كاقتراب يرمي إلى فهم العلاقة بين البناء الاجتماعي والفرد الذي يعيش في قلب هذا البناء أو هامشه، ويتأثر به. فيجب ألا نعزو عجز العامل الذي لم يتمكن من إيجاد وظيفة أو منصب مرموق إلى عيوب ذاتية، فنتهمه مثلا بأنه غير قادر على التكيف مع مناخ العمل وإيجاد البديل المناسب، بل من الضروري أن ننظر إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تحيط بالعامل. وهذا، باختصار شديد، هو لب الخيال العلمي الاجتماعي لدى رايت ميلز، أي أنه يقيم هذا الخيال على فهم العلاقة بين البناء والفرد[57].

وإذا كانت العلوم الاجتماعية قد باتت «تشكل المطمح المشترك في عصرنا الثقافي، وبات الخيال العلمي الاجتماعي هو أشد احتياجاتنا المطلوبة للارتقاء بالفكر»[58]، وهو «المشترك الأعظم لحياتنا الثقافية وسمتها المميزة»[59]، سواء في حيز الانشغال بالواقع أو في معرض الاهتمامات الأخلاقية أو في مجال العمل الأدبي والتحليل السياسي، فإن الخصائص النوعية بهذا الخيال العلمي الاجتماعي تصبح أمرا مطلوبا بصفة منتظمة.

وإمعان النظر في تجارب الأمم التي قطعت شوطا على طريق التقدم والرقي يجعل من نافلة القول أن «أي خيال سياسي حافز سوف يخلق أدوات تحليلية وإبداعية جديدة لرؤية واقع الأمة رؤية خلاقة متجاوزة، وسوف يحرك وينشط البؤر الشعبية المحاصرة بالعجز وفقدان الخيال والمسكونة بتقليدية مزمنة في العمل والحراك السياسي، والمحبطة من شكلانية العمل السياسي السائد وميوعته وارتباطه إلى حد معين بالحكومات مما جعله يكون على شاكلتها، أي بلا ماهية أو بجوهر فاسد لا معنى له ولا يسمن أو يغني من جوع»[60].

فقد بات من المسلّم به أن «المجتمعات لا تتمايز بما تنتجه من أعمال فنية وصناعية فحسب، وإنما تتمايز بالأحلام المشتركة أيضا، وبما تحققه هذه المجتمعات وما لم تحققه من تصوراتها حول الحاضر والمستقبل»[61]، فإن كانت منشغلة بالمستقبل، وهي تعي دروس الماضي وتقف بقوة على أرضية الحاضر، فإنها ستتقدم خطوات واسعة عن مجتمعات منشغلة بإعادة إنتاج الماضي أو التعامل مع الحاضر وفق قاعدة «يوم بيوم»، وهي طريقة كانت تصلح في المجتمعات البدائية التي عاشت على التقاط الثمار، لكنها لا تنفع أبدا مجتمعاتنا الحديثة المعقدة.

ولهذا نحتاج إلى الخيال السياسي كي نجعل التاريخ يتقدم في خط مستقيم إلى الأمام، فنحن حين نقعد عن إعمال خيالنا في شؤوننا العامة، وقضايانا الأساسية، نسهم في أن يتعرج بنا سير التاريخ، يمنة ويسرة، وصعودا وهبوطا، وقد ندور في مكاننا، أو ننتهي بعد لأي إلى ما بدأنا منه. وحين نفعل العكس فنحن نساعد أنفسنا على المضي إلى الأمام، وحتى لو كان هذا بخطوات بطيئة فإنه أفضل من التقهقر إلى الخلف، أو الثبات في المكان.

وبالتالي فإنه «كلما دقت الساعة مؤذنة ببداية زمن جديد، نجد أنفسنا أمام واجب معرفي سياسي قومي بأن نفكر بممكنات بناء المستقبل من خلال خيال سياسي وإرادة لا تكلّ، نابعين من فهم تاريخي وإيمان عميق بأن الأمم قد تتعرض للانكسارات وظواهر الانحطاط والتراجع، ولكنها بفعل خيالها السياسي وإرادة شعوبها لا تموت ولا تستسلم ولا تهرب من التاريخ وتذهب إلى الإعدام والعدمية»[62].

وتبرز أهمية الخيال السياسي، الذي من دونه لا تُخلق فكرة قوية ولا يصدر قرار مؤثر، حين تسنح فرص تاريخية - مع وجود تحول أو تغيير أو خطر داهم - تتوقع فيها الشعوب بروز قيادة تاريخية أو تتطلع إلى صياغة مشروع وطني كبير وجامع، يحافظ على الروح القومية ضد سياسة الأمر الواقع[63]. و«يحتاج السياسي إلى الخيال، ليؤمّن انتقال الأفكار والأهداف بطريقة صادمة ومبتكرة إلى وقائع على الأرض»[64].

ويحتاج السياسي إلى الخيال، لأنه الأكثر مسؤولية عن الواقع، والواقع لا يقبض عليه، بل يُقترب منه بخطط تصنعها الأحلام، ويوسّعها الخيال، والحلم خيال يسعى إلى هدف، أمنية يتلبسها طموح، رغبة ما لتجاوز ما هو قائم إلى شيء آخر. والسياسي

الذي لا يمتلك هذه القدرة، يفلت منه الواقع وينعدم عنده الحس بالمسؤولية العاقلة بالخيال[65].

وقد يسقط السياسي حين يتخلى عن الخيال، أو يتخلى خياله عنه، حتى إن كان قد أسعفه في مرات سابقة، فمارغريت تاتشر التي تولت حكم بريطانيا العظمى سنوات طويلة سميت بـ«الحقبة التاتشرية» أسعفها الخيال في موقفها الصلب من الجيش الجمهوري الأيرلندي، وموقفها من حرب الفوكلاند، لكنه خذلها في التعامل مع قضية الوحدة الأوروبية، فاعتقدت وقتها أن بريطانيا بوسعها أن تشق طريقها بمنأى عن القارة العجوزة، ما دفع حزبها إلى التخلص منها والدفع بجون ميجور إلى كرسي رئاسة الوزراء[66].

لكل هذا كان ألبرت آينشتاين محقا حين قال: «الخيال أهم من المعرفة. فالمعرفة محدودة حول ما نعيه ونفهمه، بينما الخيال يشمل العالم وكل ما سيكون هناك لنعيه ونفهمه مستقبلا»، وهذا القول لا ينطبق على الأمور الخاصة بالعلوم البحتة، إنما على العلوم الإنسانية، وقبلها الواقع الذي نحياه، والذي تؤدي السياسة دورا كبيرا في تحديد شكله وحيزه ومضمونه.

2

السياسة مجالا للخيال.. بين الإيهام والإبهام

تنشغل السياسة أكثر بقضايا القوة والحق والعدالة والشرعية والسيادة والحرية، أما الخيال فلم يحظ باهتمامها على قدر استحقاقه وحيويته وجاذبيته وكونه ملكة عقلية ووجدانية لعدد هائل من البشر، إن كان الأدباء والفنانون والعلماء يأتون في مقدمتهم، فإن لبعض الساسة نصيبا بين هؤلاء.

وهناك من ينظر إلى الخيال في مجال السياسة على أنه مسألة ثانوية وتزيينية ومصطنعة، لكن إمعان النظر فيما بين السياسة والخيال من اتصال يبدد هذه الأوهام، ويقيم الأمر على وجهه الطبيعي، ليجعل للتخيل حظا ملموسا من إدارة العمليات السياسية على تشابكها وتصوراتها المادية وواقعيتها وتفاعلاتها المباشرة في كثير من الأحيان.

«لا يقتصر حضور الخيال في السياسة على المسائل الإيجابية، سواء في اتجاه تطوير علم السياسة نفسه أو من أجل تبصير السياسي بالقرار الرشيد، إنما يمتد إلى مسائل سلبية متعددة مثل التحايل والتلاعب والمخاتلة والخداع الذي يمارسه الحاكم إزاء شعبه، أو تفعله النخبة حيال الجمهور العريض»

وفي معرض رده على هؤلاء، يقول إيف شارل زاركا أستاذ الفلسفة السياسية وتاريخ الأفكار بجامعة باريس: «ما أتمنى توضيحه هنا هو أمر مختلف تماما. إن وضع اليد على الخيال هو المس بمكان عصبي للسياسة على اعتبار، وهذا مؤكد، أن السياسة لربما هي مجال الخيال بامتياز، بل وأكثر من ذلك، فإن الأسئلة المطروحة حول علاقة السياسة بالقوة والحق والعدالة والشرعية وغيرها، إذا نظرنا إليها جيدا، فسنجد أن لها علاقة بالخيال»[1].

ويبني رافضو موضوع «الخيال السياسي» كمساق في العلوم السياسية موقفهم على عدة حجج، من بينها:

(1) إن السياسة تحتاج إلى إمعان ورسوخ في دراسة المعلومات المتاحة وتحليلها قبل اتخاذ القرار، بينما الخيال قد يعني الجموح، والتحليق بعيدا عن الإمكانات المتاحة، وعما يطيقه أهل الحكم، وما تتحمله الشعوب.

(2) إن بعض التجارب السياسية أظهرت أن المجازفات والمغامرات طالما قادت المجتمعات والدول إلى كوارث، وكانت أحيانا نوعا من المقامرة، أو القفز في الفراغ.

(3) قد تعيد دراسة الخيال السياسي علم السياسة إلى مدار «الينبغيات» الذي عاش فيه زمنا في ركاب علم القانون، ثم فارقه ودخل، عبر الدراسات السلوكية، إلى «ما هو قائم»، وراح يتفرع مستفيدا من مختلف العلوم الاجتماعية، وانتهى إلى محاولات جادة لقياس الظواهر عبر أدوات كمية، يستخدم فيها الإحصاء على نطاق واسع.

(4) إذا لم يكن هناك بد من النظر إلى الأمام في رسم السياسات وتقدير المواقف والتخطيط للحروب، فتكفي الدراسات المستقبلية في العلوم السياسية إطارا عاما، أو مرجعية نظرية ومسارات إجرائية، أما الذهاب إلى الخيال في مجال صنع القرار واتخاذه فقد تترتب عليه عواقب غير محمودة.

لكن أصحاب هذه الآراء يعتقدون أن دراسة «الخيال السياسي» ستكون مجرد تصورات نظرية هائمة، أو شطحات بلا ضابط ولا رابط، ويهملون في الوقت نفسه أن استعمال القياسات الكمية والأساليب الإحصائية في علم السياسة لم تحل كل مشكلاته، وفي المجال التطبيقي، لم تساعد الحكام على إصدار قرارات رشيدة في كل الأحوال.

لقد سبق أن ألف داريل هوف كتابا سنة 1954 بعنوان «كيف تكذب بالإحصاء» How to Lie with Statistics[2]، يلفت الانتباه إلى الأخطاء البسيطة والجسيمة التي نقع فيها حين نستسلم تماما للأساليب الإحصائية من أرقام ومعادلات ورسوم بيانية، لأنها قد تعطينا انطباعا أو تصورا أو رؤية أو فكرة غير واقعية عن الظواهر التي نتابعها وندرسها، بينما نحن قد تركنا رؤوسنا تماما لمقولة مفادها أن «الأرقام لا تكذب». فمن الناحية الشكلية يكون الأمر صحيحا، أما من الناحية الواقعية فأحيانا يكون خاطئا تماما.

نحن لن نستغني بالقطع عن وسائل القياس، لكن علينا أن نعلم أنها أحيانا تكون سيئة وغير مفيدة إن جمعنا البيانات بشكل خطأ أو متعجل أو متحيز، أو قرأناها بالعيوب نفسها، أو فسرناها على نحو غير علمي وغير عادل، أو كنا نريد أن نوظف الأرقام في التلاعب بالعقول، والتحايل على الحقيقة.

هنا يقول الكاتب نفسه: «في عالم تغلب عليه ثقافة التفكير بالحقائق، تبدو اللغة السرية للإحصاءات جذابة جدا على الرغم من توظيفها لخلق الإثارة والتشويش والتضخيم والالتباس. لا أحد يستطيع أن ينكر دور الوسائل والمصطلحات الإحصائية في تطويع الأحجام الهائلة من البيانات الاقتصادية والاجتماعية، لكن إن لم يترافق هذا مع وجود كُتّاب نبهاء وأمناء وقراء واعين فإن النتيجة لن تكون أكثر من مجرد هراء».

ويعبِّر عالم الإحصاء المصري د. حازم حسني عن الانحراف في استعمال الإحصاء بعبارة بليغة يقول فيها إن «البعض يستخدم الإحصاء كما يستخدم السكارى أعمدة النور المغروسة في الشوارع لتساعدهم على الوقوف وهم يترنحون، فتحميهم من السقوط، وليس كمصدر لضوء كاشف يعينهم على رؤية الطريق»(*).

وهذه المزالق التي تقع فيها الإحصاءات تجعل للحدس والسليقة والإلهام دورا في معرفة بعض ما هو قائم، وبعض ما سيأتي، عبر الاتصال بوعينا الداخلي، الذي يتشكل من الفطرة السليمة، وخبراتنا وإدراكنا، ومعلوماتنا المتراكمة

(*) وردت هذه العبارة على لسان د. حازم حسني خلال مناقشة أطروحة دكتوراه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية (جامعة القاهرة) عن استخدام الإحصاء في تحليل ظاهرة الحشد خلال ثورة 25 يناير المصرية، وكان مؤلف هذا الكتاب من أعضاء لجنة المناقشة، وذلك في ديسمبر 2015.

المختزنة في الذاكرة، عن الماضي والمستقبل معا[3]، أو في العقل الباطن، كي نصل في النهاية إلى معرفة غريزية أو فطرية تتهادى إلينا تلقائيا أو عفويا، ونسميها أحيانا «البصيرة».

إن الإيمان بدور الحدس في صناعة البرهان جعل كثيرين يطلبون منا جميعا أن نتمرن على امتلاك حدس سليم، عبر التمكن من قراءة مشاعرنا بشكل دقيق، وهي مسألة لا تغفل الطاقة العقلية، فأصحاب الحدس القوي يمتلك كل منهم ذهنا حادا، وبالتالي يمكنه أن ينظر بسرعة إلى كل الخبرات والمعلومات المختزنة لديه، ليخرج في النهاية بقرار صائب، أو هو الأقرب إلى الصواب.

من أجل هذا لا يجوز استبعاد القدرة على التخيل من العناصر الأساسية في فهم السياسة، وتقييم السياسيين. وقد كان أحد المفكرين حصيفا حين سئل عن رأيه في حاكم ظل قريبا منه سنوات طويلة:

«عنيد كأنه صخرة، وجاهل لدرجة أنك تتأكد تماما من أنه لم يقرأ كتابا في حياته، والذي خلقه لم يضع في رأسه ذرة من خيال».

فهذا الرأي جعل من امتلاك الحاكم قدرة على الخيال فضيلة مهمة، والأمر بالفعل على هذا النحو، فخيال القائد أو الرئيس إن كان خصبا ثريا لا ينعكس فقط على اتخاذه القرار، بل يلهمه قدرة جيدة على اختيار وتوظيف العناصر اللازمة في مرحلة صناعة القرار، بل واختيار الشخصيات القيادية في كل موقع.

ولا يعني الخيال هنا مجازفة أو مقامرة، حذر منها البعض كما تقدم، بل يعني بوضوح استبصارا وتأملا لا يدور في فراغ، إذ يعتمد بالأساس على الوعي والخبرة وذكاء المشاعر، وذكاء الروح، الذي يعني «قدرة الروح، التي هي جوهر الإنسان وأصل وجوده، على اختيار الأفضل دائما»[4]، وعند هذا الحد لا تكاد تخلو أي علاقة إنسانية من دور ما للخيال[5].

وحتى الإجراءات التي وضعت لتقوية العقل، لم تخل من خيال، فهي تتغيا برمجة المخ كي يصبح مستعدا لتحقيق هدف ما، بعد استخدام خط الزمن والتنميط والانفصال والاتصال، ولذا تنتقل من تسجيل ما نريد تحقيقه إلى السير من الحاضر إلى المستقبل، مرورا بكتابة فوائد ما نريده، والثقة في قدرة الذات، ووضع حد زمني لتحقيق الهدف، وتعبئة الموارد المتاحة، والاسترخاء لنيل الأمان الداخلي[6].

كما أن الخيال بوسعه أن يسهم في تطور علم السياسة ذاته، فلا يكون واقفا عند «ينبغيات» القانونيين، المنحازين إلى النصوص، يدورون حولها سلبا أو إيجابا، ولا عند تصورات السلوكيين الذين يعتقدون أن كل شيء إنساني قابل للقياس الدقيق، وأن الظاهرة السياسية - شأنها شأن الظواهر الطبيعية - من الممكن إخضاعها للتجريب المعملي، بل ينطلق علم السياسة لإعمال الخيال في تحليل وتفكيك وتركيب العناصر التي تشكل هذه الظاهرة، عبر استخدام عطاءات العلوم الإنسانية الأخرى، وهو اتجاه طالما أسهم في تطور علم السياسة ورزقه فروعا جديدة ما كان لها أن تظهر لولا التأمل وتراكم الخبرة.

ولا يقتصر حضور الخيال في السياسة على هذه المسائل الإيجابية، سواء في اتجاه تطوير علم السياسة نفسه أو من أجل تبصير السياسي بالقرار الرشيد، بل يمتد إلى مسائل سلبية متعددة مثل التحايل والتلاعب والمخاتلة والخداع الذي يمارسه الحاكم إزاء شعبه، أو تفعله النخبة حيال الجمهور العريض. وهنا يقول إيف شارل زاركا: «قد يكون الخيال عبارة عن تصنع أو خدعة أو قد يكون حكاية أو سردا أو رواية لشعب أو أمة، وربما للإنسانية جمعاء»[7].

ويطرح زاركا سؤالا مهما مفاده: هل من السهل استئصال الخيال من السياسة؟ ثم يجيب عبر تحليل دلالي مفرقا بين الخيال بوصفه وهما أو خدعة، والخيال بوصفه شفافية، ويشرح بعدها موقع الخيال في نظام الحكم الديموقراطي.

في مجال الوهم ينطلق في أربعة اتجاهات على النحو التالي[8]:

(1) **الخيال والحكومة**: وهو يتأسس على اعتبار البعض أن فن الحكم هو فن الإخفاء، أو إظهار شيء على غير الحقيقة، ويؤيد القول بأن من يجهل كيف يخفي لا يعرف كيف يحكم، معرجا على ما جاء في كتاب «الأمير» لنيكولو مكيافيلّي الذي بدا فيه جليا أن السياسة، في واقعها، تدور حول نمط من الخيال - التظاهر، بعد أن كان الناس يظنون قبله أنها تدور حول الحقيقة والأخلاق. فالحاكم، وفق مكيافيلّي، عليه أن يستعمل خياله في التصنع، وتصدير أوهام للمحكومين، تجعلهم خاضعين له طوال الوقت، ولذا فإن السياسة لديه يجب أن تعتمد على عنصرين هما القوة والخيال.

(2) **الخيال والمؤسسة**: وذلك النوع من الخيال ترسخ حول السلطة السياسية نفسها، فبعد أن كان الناس يظنون أيام الملكية المطلقة أن الملك لا يموت أبدا، وإن

كان الرجال الذين يتعاقبون على العرش هم في حكم الأموات كبقية البشر، أصبحوا يضفون نوعا من الأبدية على مؤسسات الحكم الحديثة التي تنفصل عن صورة الأمير أو الملك في المجتمعات القديمة، ليكون الخيال هنا في خدمة البناء المؤسسي، ويسعى إلى العمل على استمراريته وحضوره وربما مشروعيته.

(3) **الخيال والحقيقة:** وهنا تبرز الفلسفة السياسية كمجال مشبع بالخيالات، وهي إن كانت تنطوي على أهداف وغايات تحاول أن تدنو من حقيقة الدولة والمجتمع فإنها ليست معصومة من الأوهام. وهنا تبرز أمثلة ناصعة على ذلك الوهم، مثل الأساطير التي تسكن كتاب «الجمهورية» لأفلاطون، أو التي تعشش في رحلة البحث عن المدينة الفاضلة لدى توماس مور، وكذلك في التصورات التي ساقها فلاسفة العقد الاجتماعي.

(4) **الخيال والسرد:** وتتعلق بالحكايات والسرديات التي تؤرخ لأقوال وأفعال رجال السياسة الكبار، أو تلك التي تصنع تاريخ أمة وتؤسس أو تعزز هويتها الوطنية، حيث تُساق في ركاب الحقائق بعض الأوهام، بل إن الأوهام قد تتقادم وينظر إليها اللاحقون على أنها حقائق تاريخية دامغة، ويتناسون أو يتغافلون عن الجوانب الملحمية فيها، والتي مارس الخيال دورا مهما في صياغتها وحبكها.

ويعرض زاركا عدة خطابات لفلاسفة ومفكرين تبين أثر الخيـــال في الســـياسة [9]، لندرك معها كيف يحول الناس أحيانا القوة إلى عدالة، والاستعمال إلى حق، والعادة إلى قانون، وكيف تسعى السلطة دوما إلى إيهام الشعب بأشياء تحفظ لأهل الحكم مكانتهم وهيبتهم ومنافعهم، مثل الحديث المفرط عن ضرورة «احترام القانون» بينما تخرقه السلطة نفسها حين يعارض مصالحها، بل إنه من الأساس قد سن بما يتلاءم مع هذه المصالح، ومع هذا يطيعه الناس لأنهم يعتقدون أنه عادل في كل الأحوال.

وهنا تُنسب إلى باسكال مقولات من قبيل: «للملك فكر مزدوج، واحد يتحرك به كملك، وآخر يتعرف به على حالته الحقيقية، حيث كانت المصادفة إلى جانبه ليكون في المكان الذي هو فيه. إن الملك يخفي هذا الفكر، ويعلن عن الآخر، يفاوض الشعب بالفكر الأول، ويفاوض نفسه بالفكر الثاني». وهناك شذرة أخرى لباسكال تقول: «ينبغي ألا يشعر

الشعب بحقيقة اغتصاب السلطة، فقد حصل هذا الأمر فيما مضى بلا سبب، وما فتئ أن صار الاغتصاب معقولا. ينبغي أن ينظر إليه كشيء أصيل وأبدي مع إخفاء البدايات إذا ما أردنا ألا ينتهي في الغد القريب».

من هنا تبدو القوانين والعادات، وإدراك الحاكم لعلاقته بالمحكومين، والطريقة التي تعمل بها المؤسسات، في جانب كبير منها انعكاسا لأثر خيال يعمل على وضع قناع على المصادفة أو القوة بتحويلها إلى حق وعدل، بل إن الخيال - الوهم له موقعه في بنية السلطة، ويترجم على مستوى فن الحكم، عبر ما يمكن أن نطلق عليه «سياسة الاستعمال».

وعلى النقيض يأتي توماس هوبز المنحاز إلى الواقعية، والذي تعد فلسفته السياسية محاولة لاستئصال التأثير المفرط للخيال، كأثر للتصنع والوهم، في السياسة، ويجعل كل السياسات نابعة من إرادة «صاحب السيادة»؛ والشعب يدرك هذا ويقبله، لأنه الوسيلة الوحيدة لضمان وجود الدولة التي لا غنى عنها. وبالتالي لا يكون التخيل عند هوبز هو الذي يحدد وظائف النظام السياسي، بل القوة والعقل، اللذان يخلقان عقلانية مشتركة بين الحاكمين والمحكومين.

لكن هوبز لم يستطع أن ينحي دور الخيال في السياسة جانبا، فهو إن كان قد جعل العقل هو الذي يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فإنه عاد ليضع مبدأ العقلانية محل تساؤل عن طريق الآراء الوهمية التي ينتجها أصحاب القرار فيما يخص حقوق البرلمان في مادة الضرائب، والتناقض بين القوانين الإلهية والقوانين المدنية، ووجود فجوة دائمة بين الوضع المثالي للدولة كما يريده الناس وحقيقة واقعها.

لكن، هل الواقع يعني نفي الخيال؟ الإجابة: لا، كما يرى الفيلسوف العربي حسن حنفي، وذلك لأن النظرة المتأنية تجعلنا نكتشف أن «الواقع هو مادة الخيال السياسي وليس أمرا واقعا، فالأمر الواقع مجموع الحوادث والإرادات، وفي الوقت الذي تنتزع فيه الإرادات من التاريخ تتحول الحوادث إلى أمر واقع، ومن دون خيال يجري الاستسلام له»[10].

وإذا كان جُل ما مضى يخص الخيال بوصفه وهما، كمسألة سلبية، فماذا عن الجانب الإيجابي الذي يجري التعامل فيه مع الخيال كشفافية؟ هنا يطل جيرمي بنثام بفلسفة النفعية التي تقوم في جانب منها على نقد الأوهام التي تنتجها

المؤسسات السياسية، والخطاب الفلسفي حول السياسة، ليحدد منبعين يتغذى منهما الخيال، وهما: المجتمع الطبيعي والمجتمع السياسي. ومع الأول يأتي الخيال بمعنى الوهم، ومع الثاني يأتي الخيال متأسسا على المنفعة أو المصلحة التي تجعل الناس يخضعون راضين، وهنا يقول: «يخضع الناس كذلك طويلا بالقدر الذي يجعل الآثام المحتملة للخضوع أقل من الشرور المحتملة للمقاومة».

ويربط بنثام بين الخيال الشفاف وأفكار مثل الحق والإلزام والاستثناء والسلطة والامتياز، ويعتقد أن الإلزام هو المبدأ الذي نبعت منه جميع الكيانات الخيالية كاللذة والألم، ويرى أن مجال القانون محدد كليا بالخيال الشفاف، وأن الدولة نفسها تعتبر في القانون الدستوري كيانا خياليا أعلى[11].

وفي كتابه «الدولة نظريا وعمليا» يركز هارولد لاسكي على هذه الطبيعة الإلزامية للدولة، حتى لو كانت قائمة على تسويق السلطة لنفسها باعتبارها ترعى مصالح الأفراد، وتضع تطلعهم إلى حياة كريمة نصب عينيها، مع أنها في حقيقة الأمر تحافظ بقوة على مصالح الطبقة المهيمنة، التي تتصرف وكأن مصالحها هي المصلحة العامة، وتصوراتها هي ما يجب أن يتبناه الجميع في سبيل الحفاظ على وجود الدولة.

> وينهي لاسكي الكتاب بعبارة دالة يعلق فيها على جوهر الدولة المرتبط بالإلزام والدفاع عن مصالح الطبقات العليا، فيقول: «إن إماطة اللثام عن هذه الحقيقة وجعلها أمرا حاسما يتطلب جهدا طويلا شاقا، وجميع التنظيمات التي تمتعت بماضٍ مجيد تستطيع حتى في تدهورها أن تؤخر موعد ظهور التنظيمات الجديدة. لقد اعتدنا هذه التنظيمات القديمة حتى صارت سجنا مألوفا، بل وعزيزا بفضل ارتباطه بتاريخ العمر. ويخيل لمعظمنا ونحن نمكث في داخل هذا السجن أن النظر خارج نوافذه غامض يدعو إلى الشك، ويتطلب الجهود المضنية، ونحن نزن في قلق ثمن الهرب من أسوار السجن، دون أن تكون لدينا الشجاعة الكافية للهرب، غير أن بذل المجهود هو الذي يجعلنا نتقدم آملين، وبغير هذه الطريقة لا نستطيع أن نضيف للمغامرة الإنسانية وقارها الخلاب»[12].

إن لاسكي يريد أن يقول بوضوح هنا إن الخيال حيال الدولة، من حيث سبب وجودها وشرعيتها ودورها وسيادتها ورمزيتها وأدواتها في التحكم، هو الذي يجعل

الشعب يصبر عليها، بل يستعذب قهرها أحيانا، ويتعوده، ويبرره، لأنه يتخيل أن عكس ذلك لا يطاق أبدا.

لهذا كان من الطبيعي أن يصدر كتابه بعبارة للويس ديكنسون يقول فيها: «العدالة قوة، وإذا لم تستطع أن تخلق شيئا، فإنها تستطيع على الأقل أن تدمر، ومن ثم فإن السؤال الذي يواجه المستقبل ليس هو السؤال: هل ستنشب ثورة؟ بل هل ستكون هذه الثورة نعمة أم نقمة؟». فخيال الناس حيال طبيعة الدولة وتاريخها وسماتها يجعلهم ميالين أكثر إلى الإبقاء على الأوضاع القائمة، وقلة منهم فقط هي التي لديها استعداد للمغامرة، وتمتلك خيالا جامحا يُمكنها أحيانا من التفكير في الثورة ثم إطلاقها، ويظل هذا الخيال ملازما للثوار مادامت الثورة قائمة وماضية في طريقها. وحتى حين تتعثر أو تنتكس أو تُهزم على يد القوى المضادة لها، فإن خيال الثوار يعمل في اتجاه آخر ممتزجا بالحنين والصبر والقنوط، انتقالا إلى الأمل والتخطيط لموجة ثورية أخرى، بعد أن تُعبأ الجماهير من جديد.

وقد التفت علماء الاجتماع، بعد استبصار الشعراء والفنانين الرومانسيين، إلى الجوانب الخيالية أو اللامعقولة للمجتمع، وهذه مسألة جديرة بالنظر والتقدير، حسبما يرى المؤرخ الأمريكي كافين رايلي، حيث قال: «الناس لم يخلقوا المجتمع بعقد اجتماعي كما يتخيل المفكرون الوضعيون، ولم يحدث أن وافق أحد على الانضمام إلى المجتمع كما ينضم المرء إلى جمعية من الجمعيات، بل إن المجتمع - كما يبين إميل دوركايم - كالدين، يتقبل المرء تعاليمه وسلطانه لأنه عضو فيه. والمرء لا يختار العضوية في المجتمع الإنساني. إن المجتمع والثقافة هما اللذان منحا الفرد إنسانيته وفرديته، كما أدرك سقراط ولوك، وشبيه بهذا ما ذكره ماكس فيبر أن الناس لا يطيعون القوانين لأنهم يوافقون عليها، فكثير من الناس يطيعون القادة بسبب سحرهم وشخصيتهم الكاريزمية أو قد يطيعون القوانين من باب الانقياد للعرف أو عدم الاكتراث البيروقراطي. وقد أدت معرفة أهمية العوامل اللاعقلية في المجتمع ببعض علماء الاجتماع من فلفريدو باريتو واختصاصيي العلاقات العامة والدعاية الحديثة إلى المناداة بالتحكم في عقول الناس والتمويه

عليهم. وهناك آخرون مثل جورج سوريل استخدموا الأساطير الشعبية أداة للثورة الاجتماعية»[13].

ودور الجماهير في الحياة السياسية هو أيضا، في جانب واضح منه، يبدو من نتاج الخيال. وهذا الوضع قسمة مشتركة بين السلطة والثوار. فالسلطة تتعامل مع المبدأ الذي يقول: «في الحقيقة لا توجد جماهير، بل هناك أساليب تمكن بها رؤية الناس على أنهم كذلك»[14]. أما أعضاء الطليعة الثورية فيتملكهم خيال يكون أحيانا محض وهم مقنع بأن الجماهير في قبضتهم، ويتصرفون على هذا الأساس، ويقولون لأنفسهم دوما: الناس معنا لكنهم خائفون وعلينا أن نشجعهم، وحين ينفجر الناس بالفعل غاضبين يهلل الثوار: ألم نقل إن الناس معنا. فإذا انحسرت عنهم القاعدة الشعبية، وراحت تخذل الثورة وتناقض نفسها، تعود الطليعة الثورية إلى إلهاب خيالها بتصورات، بعضها من قبيل الأمل أو الصبر، تذهب إلى أن الجماهير تصطف معها، وستطيعها.

وعلى النقيض التام يتوهم الحاكم المستبد أن الناس يتفقون مع رؤاه طوال الوقت، بل قد يشحذ خياله أحيانا ليتصور أن الجمهور قد اندمج في القائد، أو وضع فيه ثقته، وسلمه مفاتيح أحلامه، وينتظر إشارة من إصبعه كي يفعل ما يريد، وهو «يتحكم في الأمر ظنا منه أن هذا في مصلحة شعبه، أو أن الظروف تتطلب هذا، وأنه في حاجة ماسة إلى هذا التحكم ولو لبعض الوقت حتى يصل إلى الخير الذي يسعى إليه ولا يصبر الناس عليه حتى يبلغه» [15].

هنا لا بد من الانتباه إلى أمر مهم، فالاستبداد «لا يعني في كل الأحوال انتهاك الحاكم للقانون، أو تحويل أفعاله وتصرفاته هو إلى القانون، إذ إن أغلب المستبدين يصنعون أو يرعون القوانين التي يقهرون بها شعوبهم، بل قد يعملون على إيجاد نظام قانوني شامل، وفق شرعية أو مشروعية شكلية، يتيح لهم الانفراد بإدارة كل ما يتعلق بالمجتمع»[16]. وهنا لا بد للمستبد من أن يوهم شعبه بأنه يحترم الدستور والقانون، وأن ما يصدر عنه من قرارات هدفها تحقيق المصلحة العامة. وعملية الإيهام تلك تتطلب منه إطلاق قدر من الخيال كفيل بأن يجعل شعبه مقتنعا، أو على الأقل متماشيا أو متواطئا مع هذا التصور.

وقد اعتبر رجال الدولة الكبار في كل العصور والعهود والبلدان كافة، بمن فيهم الأكثر استبدادا، أن في الخيال الشعبي أكبر دعم لسلطتهم، ولهذا جارَوه،

وكان أكثرهم براعة في هذا نابليون بونابرت الذي قال ذات يوم في مجلس الدولة الفرنسي:

«لم أستطع إنهاء حرب الفاندي إلا بعد أن تظاهرت بأني كاثوليكي حقيقي. ولم أستطع الاستقرار في مصر إلا بعد أن تظاهرت بأني مسلم تقي. وعندما تظاهرت بأني بابوي متطرف استطعت أن أكسب ثقة الكهنة في إيطاليا. ولو أنه أتيح لي أن أحكم شعبا من اليهود لأعدت من جديد معبد سليمان»[17].

وهنا يقع الاثنان في حالة من الخيال المتبادل، فالحاكم يظن الشعب راضيا، أو يوهم نفسه بهذا، والشعب نفسه يوهم نفسه أحيانا بالرضا لأنه غير قادر على تحمل ثمن التذمر. فكل فرد يتخيل أن الذي يمشي إلى جواره في الشارع، أو يجلس إلى جانبه في المقهى، أو يقطن بجواره في البيت، أو يجلس مقابله في مكتب العمل لن يشاركه الغضب إن تمرد. ويؤدي هذا التخيل دوما إلى إعاقة الحراك السياسي، الذي قد يأتي في شكل مظاهرة أو احتجاج أو انتفاضة أو هبة أو فورة أو ثورة.

ووقتها سيجد الجمهور ما ينفس به عن مكبوته، ويفرغ فيه همه وشجنه، حين يغرق في خيالات مصطنعة قد تكون رجاءً دينيا أو ديموقراطية شكلية، ليعوض بها بؤسه السياسي، أو يواجه القهر الذي يمارس ضده من سلطة ترفض مشاركته[18].

في المقابل، قد يتخيل الحاكم المستبد أن الشعب قد صمت إلى الأبد، والرأي العام قد مات، وأن الأمور قد دانت له تماما، إلى أن يفاجأ بانفجار الناس في وجهه، ووقتها سيعجز خياله عن تصور خروج ناجع من أزمته، لأن ما يجب عليه أن يتخيله وقتها يتناقض مع خيالاته السابقة، التي لا يريد أن يدرك أنها كانت مجرد أوهام.

ولو انفجر الناس غاضبين وفاضوا في الشوارع والميادين فإن الخيال لا يموت، بل يستيقظ في طور جديد، عبر عنه عالم الاجتماع تارد حين اعتبر في كتابه «قوانين المحاكاة» أن السلوكيات الاجتماعية تنشأ من الإيحاء المتبادل أو المحاكاة التي تشبه المشي في أثناء النوم، ويكون الجمهور فيها في حالة تنويم مغناطيسي، أو يعيش في شكل من أشكال الحلم، حيث يكون كل فرد عائشا تحت سيطرة الحشود التي تتصرف بلا وعي[19].

ولهذا الرأي أساس ورد في كتاب «سيكولوجية الجماهير» للطبيب وعالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون، حيث قال: «الخيال الخاص

بالجماهير كخيال كل الكائنات التي لا تفكر عقلانيا، مهيأ لأن يتعرض للتأثير العميق. فالصور التي تثيرها في نفوسهم شخصية ما أو حدث ما أو حادث ما لها نفس حيوية وقوة الأشياء الواقعية ذاتها. فالجماهير تشبه حالة النائم الذي يتعطل عقله مؤقتا، ويترك نفسه عرضة لانبثاق صورة قوية ومكثفة جدا، ولكنها سرعان ما تتبخر على محك التفكير. ولما كانت الجماهير غير قادرة لا على التفكير ولا على المحاكمة العقلية، فإنها لا تعرف معنى المستحيل أو المستبعد الحدوث. ونحن نعلم أن الأشياء الأكثر استحالة هي عادة الأكثر إدهاشا وتأثيرا»[20].

وبناء على هذا يقر لوبون بالتالي في إطار تصوره لخيال الجمهور[21]:

(1) ما دامت الجماهير عاجزة عن التفكير إلا بواسطة الصور، فإنه لا يمكن جذبها والتأثير فيها إلا عبر الصور التي يجب أن تكون مؤثرة وصريحة وخالية من أي تأويل جانبي، وغير مصحوبة إلا بوقائع ساحرة عجيبة كالنصر الكبير، أو المعجزة الكبرى، أو الجريمة المدوية، أو الأمل المفرط.

(2) ليست الوقائع في حد ذاتها هي التي تؤثر في المخيلة الشعبية، بل الطريقة التي تعرض بها هذه الوقائع، فتقديمها مكثفة سيؤدي إلى إيجاد صور أخاذة تملأ النفوس.

(3) أحيانا تكون العواطف المستوحاة من الصور قوية إلى درجة أنها تميل إلى التحول إلى ممارسة وفعل تماما كالمقترحات العادية.

(4) أدى اندهاش الجماهير حيال الساحر والأسطوري من الأحداث إلى أن يكونا هما الدعامتين الحقيقيتين للحضارة، وبذا أدى الخيالي دورا أكثر أهمية من الواقعي في حركة التاريخ.

(5) من الخيال الشعبي نبعت قدرة القادة الفاتحين والغزاة، وتشكلت قوة الدول، حيث جُيشت الجماهير الغفيرة حول الأديان والأيديولوجيات والغزوات أو التوسع الإمبراطوري.

في هذا الاتجاه يصبح المتخيل، الذي هو نشاط جمعي يقوم على تصورات وجدانية غير حقيقية وغير واقعية، ساكنا، في جانب مهم منه، في قلب التاريخ، لأنه يجد فيه تصورات أثيرة، ويستمد منه وقائع لم تحدث، وشخصيات لم

توجد، وأحداثا مختلقة وسيرا مركبة أو منتحلة، وبطولات وهمية، تعينه في مجاراة الحاضر.

وقد عبر نيكوس كازانتزاكي عن هذا الوضع ببراعة في روايته الشهيرة «زوربا»، من خلال هذا الحوار:

«دع الناس مطمئنين، أيها الرئيس لا أعينهم، إذا فتحت أعينهم، فما الذي سيرون؟ بؤسهم. دعهم إذن مستمرين في أحلامهم.

وصمت لحظة ، وحك رأسه، كان يفكر، وأخيرا قال: إلا، إلا إذا...

ماذا؟ دعنا نرَ قليلا.

إلا إذا كان لديك، عندما يفتحون أعينهم، عالم أفضل من عالم الظلمات الذي يعيشون فيه الآن. ألديك هذا العالم؟

لم أكن أعرف. كنت أعلم جيدا ما سيتهدم، لكنني لا أعرف ما الذي سيُبنى فوق الأنقاض»[22].

وعلى سبيل المثال، يبدو الخطاب السياسي العربي في مجمله موجها، في الأغلب الأعم، إلى جماهير تعيش في التاريخ المتخيل، لذلك ينشط هذا الخطاب بالمتخيل الجمعي لا بالخيال الفردي، وهناك أمثلة ناصعة على هذا، من بينها الخطاب الطائفي بين الخصوم السياسيين، الذي يقوم في الأساس على استدعاء المتخيل التاريخي لصراع الطوائف السياسي والديني وقذفه إلى قلب الحاضر، عبر استعماله في البرهنة على المواقف الآنية، والكيد للخصوم، وإيجاد الملاذ اليسير للأتباع.

والسياسي، عموما، في صراعه المرير على الموارد والسلطة، يستعمل «المتخيل» إن فقد الخيال، فيستعيد التاريخ، ويعود بالواقع إلى الوراء، وقد يلجأ إلى تحريض الجماهير على القيام برد فعل قاس ضد كل من يصنفهم مخيالها الجمعي بأنهم أعداء[23].

إن المخيلة، إضافة إلى التفكير والمشاعر، تعد هدفا مهما للتلاعب بالوعي، لأنها ترتبط أكثر بالهواجس التي تحدد نصيبا كبيرا من سلوك أفراد المجتمعات البدائية، وهي عرضة للتأثر بأشياء من خارجها، وتخلق مخاطر نفسية تكون أحيانا أشد إثارة للرعب من الأوبئة والزلازل، و«من هنا نفهم أنه للتحكم بسلوك الناس من المهم جدا التأثير في العمليتين المرتبطتين بالمخيلة، وهما إنتاج الصور انطلاقا من الواقع، وإنتاج استراتيجية السلوك وتكتيكه انطلاقا من الصور الناشئة في الوعي»[24].

وترتبط لعبة التخيل بدرجة تلبية حاجات الإنسان، فالحاجات الملباة لا تثير المخيلة، أما إن انتقص من الإنسان شيء، فتبدأ صورة هذا الشيء تتراءى لمخيلته، ويشرد ذهنه في كيفية الحصول عليه، وبذا تصبح حاجات الناس أداة قوية للتحكم في مخيلاتهم، وأحيانا يلعب المتلاعبون بوعي الناس إلى درجة جعلهم يشعرون بالاستياء الشديد والإحباط والقمع وانسداد الأفق، بما يغذي «المخيلة السلبية» بالتهيؤات والأحلام والآمال، وعندها سيتركز كل انتباههم على الحاجة غير الملباة، ما يلهيهم عن الأشياء والحاجات والقضايا الأخرى التي تكون أهم بكثير. وبالتالي يتمكن المتلاعب من تغيير سلوك من يتلاعب به، واستبدال برنامجه، وتحديد جدول أولوياته، وإجباره على أن يرغب فيما لا يرغب فيه، وهو ما يبرز في أعلى صوره في الدعاية السياسية والدعاية التجارية[25].

لهذا أصبح بوسع السياسيين المتلاعبين أن يقدموا الغذاء للمخيلة، ويديروا اللعبة بمهارة فائقة تصل إلى حد خداع شعوب بأكملها، عندها «قد تصير اللعبة مرعبة ومدمرة وحتى انتحارية، فقد ينشغل الشعب بها إلى درجة يصير معها من غير المفيد التعويل على تعقله، وفي أثناء ذلك يكاد كل فرد تقريبا أن يوافق على التقويمات اللاعقلانية للواقع الحقيقي؛ بكلمات أخرى، القضية ليست في الخداع، ولا في نقص المعلومة»[26].

إنها حالة أشبه بخشبة المسرح التي تتمتع بقوة سحرية كنافذة على العالم المتخيل. وهناك من يشبه السياسة بالمسرح، ليس فقط من زاوية الإيهام والتخييل، بل أيضا من باب مهارة العرض، وتوزيع الأدوار، وإقبال الناس بغية الفرجة. وهنا يقول عماد عبد اللطيف في مستهل دراسته العميقة للخطاب السياسي لثورة يناير المصرية: «ما أشبه السياسة بالمسرح الكبير! وما أشبه حقل التواصل السياسي بخشبة المسرح التي تقف عليها القوى السياسية بأحزابها وجماعاتها وكياناتها لتعزف خطاباتها أمام جماهير محتشدة، تجتمع في قاعة رحبة، رحابة الوطن. من الطبيعي أن تتغير المقطوعات المعزوفة من حين إلى آخر، وأن يتغير العازفون، بل يمكن أن تتغير نوعية الجمهور نفسه، وشكل علاقته بالعازفين، لكن خشبة المسرح وحدود الوطن تظلان ثابتتين عادة»[27].

ويمس حديث بول ريكور هذه المعضلة فيما سماه «المفارقة السياسية» Political paradox، ويراها في جمع الدولة بين نقيضين، وعملها على أن يتعايشا. فالدولة

الحديثة، التي هي دولة القانون والحقوق والمواطنة، تعاني تناقض الصورة مع الواقع، فهي في الوقت الذي تقول فيه إن ما ينظم علاقتها بالمحكومين هو الدستور، وتفرط في الحديث عن احترامه، وعن رعايتها الأكيدة للمواطنين، فإنها تستعمل العنف والقوة والقمع، وتؤكد أنها وحدها التي تمتلك مشروعية ذلك، فتنزلق بذلك من حكم الشعب إلى التحكم فيه، ومن السلطة إلى التسلط. وبذا تصبح الدولة القائمة على الحد الأقصى من العقلانية في قوانينها وأنظمتها وتنظيمها، قد انجرفت إلى مسار آخر، مشبع بالقمع والكبت، ويغلب على خطابها وتصرفاتها نوع من اللاعقلانية[28].

وهناك سياسات وإجراءات لم يطلقها الخيال السياسي فقط، بل كانت هي نفسها محض خيال، وهو ما يمكن أن يصل إليه الذهن بعد مرور الزمن واسترجاع اللحظة التاريخية الذي انتهجت فيه هذه السياسات. «لقد تمت معظم القرارات الثورية في أوائل ثورة يوليو 1952 في مصر بالخيال السياسي: الإصلاح الزراعي، والتأميم ضد الشركات العالمية، وتوزيع الأرض على الفلاحين المعدمين، ومشاركة أكبر للعمال في المصانع، وللطلاب في معاهد التعليم»[29]، وربما لم يكن الشعب نفسه يتخيل أن يحدث هذا قبل أيام من الثورة.

ويؤثر الخيال تأثيرا كبيرا في تحديد حركة الأحداث بوجه عام، إذ إنه «كثيرا ما تخرج محاولات تصحيح الأوضاع المعوجة، ودفع حركة التاريخ، من الخيال، أكثر من خروجها من قلب التحليل الطبيعي لسير الأحوال... فكل فكرة خرجت من خيال أصحابها، وكثيرا ما برزت الأماني وتطور الخيال من قصة اضطهاد متكررة وخسائر مستمرة»[30].

وعلى نطاق أضيق تلجأ بعض الأحزاب السياسية إلى نوع من الإيهام بأنها تمتلك برامج قوية معبرة عن مصالح القاعدة العريضة من الجماهير، وأن لها أنصارا في كل مكان، وقدرة فائقة على صناعة البدائل في السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأمنية والعلاقات الدولية، ولهذا تسارع إلى تبرير إخفاقاتها بالحديث عن التضييق الذي تمارسه عليها السلطة، وهي في هذا لا تخالف الحقيقة كل الوقت، أو عدم رغبتها في الاستحواذ، أو أنها تعبئ إمكاناتها لجولة أخرى حاسمة. وتجد أحيانا من يصدق روايتها، ويستمر في مساندتها، ويردد تصوراتها النابعة من الأيديولوجية التي تشكل إطارا لعملها. وحتى لو لم تكن تمتلك هذا الإطار فإن تصريحات القائمين عليها تشكل مادة جيدة للإيهام المطلوب.

وحتى على مستوى التحليلات السياسية، كثيرا ما يجد المحللون أنفسهم في حاجة إلى استعمال خيالهم في التخمين والتكهن واستكناه ما وراء المعاني الظاهرة، لاسيما حين يواجهون نقصا في المعلومات، أو مواراة ومداراة في خطاب السلطة، أو تضارب في الروايات المتداولة، أو رغبة في تبني رؤية متجاوزة للسائد والمألوف الذي يجري تدويره في وسائل الإعلام.

وهناك صحافيون وكتاب يستعملون نوعا من الإيهام ليوحوا للجمهور بقربهم من السلطة، أو ضلوعهم في صناعة القرار، ويفرض عليهم هذا الادعاء أن يطلقوا خيالهم السياسي كي يصدق من يقرأون لهم أنهم عالمون ببواطن الأمور، فيختلقون وقائع وأحداثا، ويطرحون تكهناتهم وتصوراتهم على أنها معلومات موثوق بها.

3

منابع الخيال السياسي

حتى لا يكون الخيال وهما أو أضغاث أحلام، يجب أن يقوم على أسس علمية سليمة، لن تمنحنا بالقطع فرصة توقع كل شيء كما سيجري في المستقبل من دون تغيير ولا تبديل ولا تحوير، فلا يعرف الغيب كاملا إلا الله، لكنها ستقربنا من إدراك الآتي، وبالتالي تعطينا إمكان أن نستعد له على أفضل وجه ممكن.

فدراسة المستقبل تتطلب استيعاب الماضي وفهمه العميق، وكذلك الفهم الدقيق والمتكامل لكل ما يدور في الحاضر، وتوظيف كل عناصر المعرفة الممكنة[1]؛ ولذا برزت العديد من التصورات العلمية الرامية إلى كشف غموض الآتي، عبر استقراء التاريخ، والإحاطية التي تعني الاعتماد على الدراسات عبر النوعية، والتعامل بروح الفريق، أي إشراك باحثين من مختلف

«في الرواية السياسية خيال سياسي يمكن التقاطه والاستفادة به»

التخصصات في دراسة مستقبل الظواهر والقضايا الإنسانية، وتوظيف المنطق عموما، والرياضيات خصوصا، والاستفادة من إلهام الفلاسفة والمبدعين والفنانين وبصيرتهم أو حدسهم وإلهامهم، واستخدام الوسائل المتعارف عليها في إماطة اللثام عما سيكون من قبيل نظرية المباريات والمحاكاة، إلى جانب تعزيز الوعي بالمستقبل، عبر الاشتغال به، والإيمان بأن هندسته ضرورة لا فكاك منها للأمم التي تسعى إلى الأفضل دوما.

ولتكن لنا عبرة في فيليب المقدوني الذي أطلق مشروعا جسورا يرمي إلى هدم الإمبراطورية الفارسية، وكان خياله جامحا وقتها حد الجنون، إذ بدا ما كان يعتزم الإقدام عليه، في نظر من حوله، ضربا من المستحيل. فمقدونيا كانت مجرد مملكة بائسة من ممالك البلقان، بينما كان الفرس على درجة فائقة من القوة في كل شيء.

وفي بناء مشروعه هذا لم يكتف المقدوني بتكوين قوة عسكرية، أو تنظيم جهاز إداري كفء ومتماسك، إنما فعل ما لم يتوقعه كثيرون، حيث استقدم الفيلسوف الكبير أرسطو طاليس، ليكون مربيا لابنه، الإسكندر، الذي لم يكن ينام إلا وتحت وسادته نسخة من الإلياذة، بشرح أستاذه أرسطو. وحين أقدم الأستاذ على تدوين معرفته غضب التلميذ، لأنه كان يريد أن يستأثر بالعلم لنفسه، وألا يصل إلى عموم الناس. وكان الإسكندر يقدر أرسطو إلى درجة أنه قال ذات مرة: لو خيروني بين مملكتي التي صارت شاسعة وبين العلم الذي تلقيته من أرسطو لاخترت العلم من دون تردد.

هكذا أدت الأفكار دورا عميقا في بناء مستقبل الأمم، وكانت للفلاسفة والمفكرين والحكماء مكانتهم في صناعة مجدها، وعمد الساسة إلى تحويل الأفكار والقيم المتماسكة إلى إجراءات وقرارات. لكن الأمر تغير مع بزوغ فجر الولايات المتحدة الأمريكية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث اعتمدت هذه القوة العالمية على توجيه المصالح الآنية، بالتعامل مع الواقع، متخففة من أحمال الفكر وأثقاله، على العكس من الاتحاد السوفييتي الذي قام وجوده على فكرة عميقة، وبذا انتقل السياسي من إهاب الفكر إلى قبضة المصلحة المادية الراهنة(2).

وهناك من يرى أن ملكة الخيال السياسي يمكن اكتسابها بمزيج من الأعمال، منها القراءة الواعية لسير الزعماء التاريخيين، والتواصل مع الجماهير لمعرفة أقصر

الطرق إلى عقولهم وقلوبهم، ومنها كذلك الاستعمال الواعي لوسائل الإعلام والاتصال الحديثة، والمناقشة الهادفة مع السياسيين المعاصرين المؤيدين والمعارضين[3].

لكن يبقى الخيال في حاجة إلى فلسفة، بمعناها الدقيق، الذي يتعدى الوقوف عند الأفكار العامة المجردة إلى الصيغ المعاصرة من التفلسف الأكثر عملية وإجرائية وتوزعا على حقول معرفية شتى. ولعل في النقاط التالية ما يبين هذا، وهو، في كل الأحوال، يعين على التخيل السياسي، لأنه يمثل منابع أصيلة له.

أولا: استقراء التاريخ

ينظر البعض إلى التاريخ على أنه شكل آخر من أشكال الأدب التخيلي Fiction القديمة قدم التاريخ نفسه، وأن هناك مجتمعات لا تفرق بين التاريخ والخيال؛ ولا يخلو هذا التصور من منطق، فالعلاقة بين التاريخ والخيال الأدبي تبادلية إلى حد بعيد، إذ نجد أن «الصلة بين الرواية والتاريخ تندرج في إطار العلاقة بين المادة التاريخية وتجلياتها في سياق التمثيل السردي»[4]، فيما يستفيد الأديب من استدعاء التاريخ كإطار يتحرك من داخله الروائي مستعينا بالخيال، ليعالج قضايا معاصرة وملحة[5].

غير أن «الحكاية التاريخية تنفصل عن الأدب التخيلي لأنها تحتاج إلى نوع مختلف من المصداقية. هذه الحاجة عرضية وضرورية معا؛ فهي عرضية بقدر ما أن بعض الحكايات تتحرك على الخط الواصل بين الرواية التخيلية والتاريخ، بينما تشغل حكايات أخرى موقعا غير محدد يبدو أنه ينكر وجود هذا الخط ذاته، وهي حاجة ضرورية بقدر ما يكون على جماعات محددة تاريخيا أن تقرر - عند لحظة معينة - هل هذه الحكاية أو تلك تنتمي إلى التاريخ أم إلى الأدب التخيلي؟ بكلمات أخرى، يكون التعبير عن القطيعة الإبيستمولوجية بين التاريخ والأدب التخيلي دائما بشكل عيني، من خلال تقييم متموضع تاريخيا لحكايات بعينها»[6].

في الوقت ذاته، هناك ارتباط كبير بين التاريخ والسلطة، باعتبارها جوهر العملية السياسية، فالصراع على السلطة يبدو عملية تاريخية محددة بظروف مكانية وزمنية وبنية اجتماعية ومرحلة حضارية معينة، وفعل السلطة نفسه عملية تاريخية، تتحدد بمعطيات الماضي الحي، وتحدد بدورها، جزئيا أو كليا، مسيرة الحاضر نحو المستقبل[7].

ويقر جورج بالانديه في دراسته للأنثروبولوجيا السياسية بأن الصلة بين التاريخ والسياسة ظاهرة، حتى في حالة المجتمعات المتروكة للعلوم الأنثروبولوجية، ويقول: «ما إن يكف الواحد منا النظر إلى المجتمعات كأنظمة مجمدة، حتى يتعذر تجاهل التشابه الأساسي بين ديناميكيتها الاجتماعية وتاريخها، وثمة سبب آخر يفرض نفسه بقوة أكبر أيضا، فدرجات الوعي التاريخي مترابطة مع أشكال تمركز السلطة السياسية ومداه؛ ففي المجتمعات المجزأة غالبا ما يكون المحافظون على المعرفة المتعلقة بالماضي هم وحدهم أصحاب السلطة، وفي المجتمعات الدولتية يبدو الوعي التاريخي أكثر حدة واتساعا، ووسط هذه المجتمعات نقع بوضوح على استخدام التاريخ الأيديولوجي في أغراض استراتيجية سياسية»[8].

ولهذا الارتباط القوي بين التاريخ والسياسة، فإنه من الضروري استلهام أحداث الماضي في فهم الحاضر السياسي والتنبؤ بالمستقبل، ويمثل هذا الاقتناع رؤية تتسم بالحيوية والحركة، وليست ثابتة في مكانها أو جامدة، تعتمد على فهم وتحليل تفاصيل الوقائع والأحداث الفريدة التي مضت وانقضت؛ فالماضي يؤدي دوره الواضح في تحريك الحاضر، «ولا يتوقف الأمر على ملامح تكوين الذات المجتمعية، بل يتخطاها إلى الظهور في صلب ملامح التجديد، لاسيما المظهرية والذوقية منها»[9].

ولهذا يقر الجغرافي والمفكر المصري الشهير جمال حمدان بأن البعد التاريخي يعد مدخلا مهما إلى أي دراسة عملية جادة وعميقة لواقعنا السياسي، وتصوراتنا الاستراتيجية، ويقول: «بغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة، والتعميمات، ربما، مبتسرة مفتعلة، وتخرج الصورة كلها ولها مسطح، ولكن ليس لها عمق»[10].

والمشكلة تقوم حين نفرط في الحديث عن الماضي، ويحضر التاريخ دوما ككابوس مرعب، ليس لاستلهام الحكمة منه أو التبصر به، بل للعيش فيه، والبكاء الدائم على اللبن المسكوب.

إن الإلمام بما قد مضى لا يعني امتلاك الإنسان بعض القصص والحكايات التي تسليه في أوقات فراغه، أو تجعله قادرا على أن يتباهى أمام أصدقائه بما لديه من معلومات عن الذين رحلوا، بل هو وسيلة مهمة لقياس ما يجري أمام عينيه الآن، أو ما يتوقع حدوثه في المستقبل على ما حدث لآخرين، كي يحاول أن يتفادى الأخطاء التي سقطوا فيها، ويستفيد من الصواب الذي سلكوه.

فعلى الرغم من اختلاف السياق، أو الزمان والمكان، فإن بعض الممارسات الإنسانية تتشابه، بل قد تتطابق، حتى لو فصلت بين الواحدة والأخرى قرون من الزمن أو آلاف من الأميال. ولذا يقول البعض إن «التاريخ يعيد نفسه»، وهو قول فيه بعض من الصواب، وصوابه يزيد كلما تعلق الأمر بظاهرة السلطة وما تنتجه من أقوال وأفعال.

وحتى لو سلمنا بمقولة «التاريخ اختيار» التي يستريح لها بعض المؤرخين، فإن هذا الاختيار - على ما فيه من تحيز وانتقاء - ينطوي في باطنه على عظات وعبر، تزداد جدواها إن حررنا التاريخ، وفق منهج علمي صارم، من بعض تحيزات كاتبيه، التي تنبني على اعتبارات عدة، وإن تمكنا من رسم ملامح السياق العام الذي وقعت فيه الحوادث والوقائع، أو اجتهدنا في الحصول على اختيارات بديلة لمؤرخين آخرين.

ومع هذا، فهناك من بين عوام الناس من يسخر من علماء التاريخ الذين يقولون إن في استطاعتنا أن نخرج من الماضي بكثير من العظات والدروس، ويصرخ في وجوههم: «التاريخ لا يعيد نفسه». وهنا يرد عليهم الأنثروبولوجي الكبير ويليام هاولز في كتابه «ما وراء التاريخ»، ويصيح في وجوههم: «هذا قول يماثل في الغباء والسخف الزعم القائل بأن الصاعقة لا تصيب المكان نفسه مرتين... فالمؤكد أن القولين يتمتعان بقدر واحد من الصحة والصدق. وربما كانت الصاعقة لا تصيب الشيء ذاته مرتين، ولكنها تعرف على أي حال الأشياء التي تحب أن تصيبها. ولذا كانت تصيب بناية Empire State كلما هبت إحدى العواصف الرعدية. وإذا كان التاريخ لا يكرر الدور نفسه بالدقة نفسها، فذلك راجع إلى أن الثقافة المتغيرة تغير الموقف كله. ولكن هذا لم يمنع أحد الساسة المؤرخين، مثل تشرشل، من أن يتنبأ بما ستفعله بريطانيا في المستقبل مما فعلته في الماضي»[11].

وحتى يمكن الخروج من هذه المعضلة التي تنطوي على تناقض بين من يعولون على التاريخ في فهم ما سيأتي ومن يستهينون بهذا، علينا أن نمزج «الحكمة الكلية للتاريخ» مع ما يجود به العقل والفؤاد من قدرة على التبصر يجعل في استطاعتنا التنبؤ بما سيجري، وفي هذا يقول جان ج. تايلور: «من المؤكد أن المستقبل يخبئ للإنسان إنجازات أخاذة، ولكن أهمها سيتعلق بتلك الميزة الخاصة التي يمتلكها، ألا وهي تدوين خبراته حتى يستفيد منها الآخرون؛

فهذه القدرة الفريدة تسمى الترميز Symbolization، وبها تكون الكلمات المكتوبة رموزا للأفكار... وبالمزج بينها وبين الخيال يستطيع الإنسان أن يخطط للمستقبل عن طريق إدراكه الواقعي لنتائج حدث معين مختار من بين عدد من البدائل والاحتمالات»[12].

ويتفق دليل بيرنز مع الرأي السابق، إذ يقول في كتابه المهم «المثل السياسية»: إن «التاريخ هو تفسير للكيفية التي نفعل بها ما نحن فاعلون. واهتمامنا بما حدث يرجع أكثر ما يرجع إلى رغبتنا في فهم ما هو حادث الآن، وهذه الرغبة بدورها نابعة إلى حد كبير من حاجتنا إلى التأثير فيما سوف يحدث في المستقبل، وعلى ذلك يصبح التاريخ عديم الجدوى ما لم يمدنا بجانب من المعرفة له قيمة عملية، فمهمته أن يبين لنا الوسيلة التي تمكننا من أن نجعل من الحاضر مستقبلا أفضل، وذلك بفهم الطريقة التي أصبح بها الماضي حاضرا... ويجب أن ننظر إلى الماضي كأنه كان ذات يوم مستقبلا، وأن نفكر فيما حدث من تغير كأنه كان يتحرك أمام نظرنا لا كشيء ذهب وانقضى... ونحن إذ نتلفت إلى الوراء فإنما نفعل ذلك كي نتجه بأبصارنا إلى الأمام»[13].

ويجب ألا يقتصر الأمر على تاريخ البشر وما ينتجونه من ظواهر إنسانية متعددة، بل من الضروري أن يمتد إلى تاريخ الأفكار؛ فالمعرفة ذات طابع تراكمي، وسيكون من الحماقة أن نبدأ من الصفر في التعامل مع أي مشكلة نريد حلها، أو قضية نسعى إلى الإلمام بمختلف جوانبها، بل من الضروري أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون، ونضع لبنة جديدة فوق كل ما تركه لنا أولئك الذين سبقونا على دربي العلم والخبرة الإنسانية.

فهناك، مثلا، من حاول أن يقف على المعاني الأساسية والقيم الأصيلة والتصورات الكبرى في تاريخ الفكر العربي كله بغية خدمة الحاضر والمستقبل. وتوجد مشروعات متكاملة الأركان، مثل ما سطره محمد عابد الجابري في «نقد العقل العربي»، وحسن حنفي في «التراث والتجديد»، وما كتبه أدونيس وأطلق عليه «الثابت والمتحول»، وهناك ما أنتجه قسطنطين زريق والطيب تيزيني ومحمد أركون وفؤاد زكريا وهشام جعيط وفهمي جدعان ومحمد جابر الأنصاري وعلي حرب ونصر حامد أبو زيد وعبدالله العروي وغيرهم.

لكن هذه المشروعات الكبرى ليست ما يهمنا في هذا المقام، بل المحاولات الجزئية التي رمت إلى تحليل تاريخ الفكر بدرجة أساسية. وتوجد ثلاث حالات لهذا المسلك المعرفي الكلي، يمكن ذكرها على سبيل المثال لا الحصر:

(أ) الكتاب الذي ألفه الدكتور حسين مؤنس، ووسمه بـ «تاريخ موجز للفكر العربي»، ووصفه بأنه محاولة لإعادة النظر في التراث العربي الفكري كله، منذ العصر الجاهلي، وحتى عصرنا الحديث، وهو ليس تاريخا للأدب العربي أو أدباء العربية، بل هو تاريخ للفكر العربي، يوضح مسار الكتاب في كلمة على غلافه الخلفي قائلا: «عنيت هنا بتتبع الأفكار والحركات وتطوراتها، واهتممت بالجوانب الإنسانية والصدق وأمانة الفكر ومسؤوليته، ورأيت أن أساس أي فكر نافع هو الحرية والعدل... لقد كانت غايتي أن أعيد تقييم الفكر العربي ووزن رجاله وثمراته بالميزان الصحيح... نحن هنا نبحث عن الأفكار الأصيلة النابعة من الإسلام أولا، ومن العروبة ثانيا، والآراء التي تعطي الفكر العربي قيمته الحقيقية»[14]. وقد طاف المؤلف عبر مقالات عديدة في مسيرة الفقه والتصوف والأدب والعلوم الإنسانية والتطبيقية التي أنتجتها القريحة العربية - الإسلامية.

(ب) ما كتبه لويس عوض في كتابه «تاريخ الفكر المصري الحديث»، وتناول فيه تاريخ تكون الفكر السياسي والاجتماعي والثقافي في مصر والعالم العربي، وما طرأ عليه من تطورات نتيجة المؤثرات الأجنبية، واليقظة القومية والثقافية الشاملة، وذلك عبر خمسة عناصر رئيسية، أولها يتمثل في التجارب المختلفة لبناء هيكل الدولة وتنظيمها السياسي والإداري والقانوني على الطراز الحديث؛ وثانيها عن التطورات المادية المستجدة في العالم العربي ومصر بفعل تصفية الإقطاع التركي المملوكي وإعادة تنظيم العلاقات القومية والطبقية أيام الحملة الفرنسية، ونتيجة للثورة الصناعية والتقدم التقني الذي جاء مع حكم محمد علي باشا؛ أما الثالث فيتعلق بالتطورات الاجتماعية التي استجدت عن طريق الأدب والصحافة، والكلمة المكتوبة بوجه عام، أو عن طريق الاختلاط الثقافي المباشر وغير المباشر للمصريين بأوروبا، عبر البعثات العلمية والسفر، وارتياد أوروبا مصر عن طريق الجاليات الوافدة والبعثات الدارسة؛ والرابع يرتبط بالتيارات الفكرية الناتجة عن الالتقاء بالحضارة الغربية، تعاونا وصراعا، خاصة ما يتصل بمختلف الأيديولوجيات، وعلاقة

العلم بالدين؛ والخامس هو التيارات الأدبية والفنية، ولاسيما ما يتصل منها بتطور اللغة وأشكال التعبير الأدبي والفني[15].

(ج) كتاب «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» الذي ألفه المستشرق ديلاسي أوليري، ويعرض في صياغة كلية لنشأة الحضارة العربية - الإسلامية، والظروف التي اكتنفت تكوينها وجذورها، والمؤثرات التي عملت على تشكيل مسارها. ويبدأ هذا العرض بتحليل المقدمات التي قادت إلى الفكر العربي، من فلسفات سريانية وهيلينية، والتي نُقلت إلى العربية، ثم نشأة الحركات الفكرية والفلسفية، والتفاعل بين مختلف تياراتها، التي تأثرت بالثقافة الوافدة والنزعة العقلانية التي سادت في العصور الأولى، وتلك التي نزعت إلى الحفاظ على الموروث. ويتتبع الكتاب تطور الفكر العربي في العصر العباسي، ودور المعتزلة، وفلاسفة المشرق العربي، والمتصوفة، ومسار السلفية الإسلامية، وفلاسفة المغرب، ودور اليهود في الحضارة العربية، ثم أثر الفلسفة العربية في الثقافة اللاتينية[16].

لكن تبقى هناك مشكلة في «نقل المعرفة الجاهزة من سياقها الزمني ودمجها في تفاعلات ثقافية واجتماعية شديدة الاختلاف، لاسيما ما يتعلق بالآليات التي تفرضها طريقة التفاعل المباشر مع الوقائع والأحداث، سواء شفاهة أو كتابة... فالمؤثرات التي تفرزها كل مرحلة تكون لها مقاييساتها الخاصة، ورؤاها المرتبطة بطبيعة الممارسات السائدة، والوظائف الخاصة للمعاني، من خلال حقبة تاريخية معينة»[17]. ومع هذا يبقى لمعرفة ما جرى في الماضي، للبشر أو للأفكار، الأثر المهم في تخيل ما سيأتي.

وعلاوة على تاريخ الفكر والفعل، أو السلوك الإنساني وما ينتجه من وقائع وأحداث وظواهر وتاريخ للأفكار، يجب أيضا استقراء تاريخ الخبرة الشخصية والنفسية عبر «الاستبطان»، الذي يزاوج فيه الإنسان بين التجريب والحدس، الذي طالما أدى دورا مهما في علم الاجتماع الكلاسيكي[18]، في تحصيل معرفة بديهية للأشياء القائمة، أو تخيل الخطوة القادمة، سواء بالبحث داخل النفس والتحقق من الأمور التي يحملها الذهن ويحتفظ بها، أو بتفحص بعض الخبرات الذاتية[19].

في كل هذه الأنواع والأصناف يلهمنا التاريخ برؤية المستقبل، لأنه ينطوي في ذاته على نوع من التفكير المبصر، لاسيما بعد مساعي المؤرخين ليضفوا على الوعي

التاريخي ما أضفاه كانط على الوعي العلمي من قوانين عقلية بحتة بمعزل عن حقائق الحس؛ ولذا بات من الممكن أن نتحدث عن «التفكير التاريخي» الذي يشبه الإدراك الحسي في ناحية من النواحي، لأن كلا منهما يختص بالنظر في الشيء الجزئي. ويبدو هنا التاريخ شبيها بالعلم، إذ المعرفة في كل منهما تقوم على الاستدلال أو البرهنة العلمية، وإن اختلفا في أن ما يناقشه المؤرخ ليس من قبيل المجردات، ولكن من قبيل الموجودات المادية، والعناصر الجوهرية في التاريخ هي الذاكرة والحجة في الموضوع، والرواة الثقات[20].

كما يلهمنا التاريخ بالقدرة على التخيل السياسي؛ لأن التاريخ في جانب منه قائم على الخيال، وهو ما يسميه علماء التاريخ «الخيال التاريخي» الذي لا يعتمد على التعسف في تخيل الأحداث التفصيلية، لكن على إدماج ما يتوقعه هو بشكل علمي منضبط من تفاصيل لم ترد في إفادات الرواة الثقات.

ويضرب ر. ج. كولنجوود، وهو واحد من أهم دارسي هذا الحقل المعرفي في العالم بأسره، مثلا على هذا بقوله: «لو أننا نظرنا إلى البحر، ورأينا مركبا ثم عدنا بعد خمس دقائق، فنظرنا مرة ثانية ووجدنا المركب في مكان آخر غير الأول، لكان علينا أن نتبين حينئذ أن المركب مر عبر مساحات مائية في أثناء سيره بين النقطتين، في الوقت الذي لم نكن فيه نتتبع سيره. ولنا في هذا مثل على التفكير التاريخي، ونحن بهذا الأسلوب نفسه، نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نتصور أن قيصر قد سافر من روما إلى الغال، حيث يقال لنا إنه في هذين المكانين المختلفين في هذه الأوقات المتتالية»[21].

ومن ثم يقوم «الخيال التاريخي على الاستدلال العقلي البحت، وهو يملأ الفراغات التي يتركها الرواة الثقات، بما يجعل القصص أو الوصف التاريخي حلقة متماسكة متصلة. والمؤرخ الكامل يجب أن يكون على درجة من الخيال الجبار الذي لا يضفي على قصصه قدرا من التأثير والجمال فقط، بل يعينه على تبيئة الوقائع التاريخية المحددة، وتكييفها مع السياق العام الذي لم يسجله الرواة، وبذا يبدو الخيال هو الملكة العمياء التي لا غني عنها، لأنه ليس في وسعنا أن ندرك العالم من دونه، فهو ضروري للمؤرخ، وهو إن كان أدنى من الحقيقة فهو أبعد عن الخرافة، وهو في كل الأحوال ليس نوعا من الهذيان لا ضابط له، أو مجرد جنوح عن عالم الحقائق، بل يخضع لتفكير ممنهج، لأن ما يتخيله المؤرخ، على النقيض من خيال

الروائي، مثلا ينبغي أن يكون في حدود الزمان والمكان، وخاليا من التناقض، أو متسقا، وذا صلة وثيقة بالمادة التاريخية المسنودة إلى مصادر[22].

إن الحكمة التي تقول «من ليس له ماض، ليس له حاضر ولا مستقبل» لم تأت من فراغ، بل هي استخلاص لفهم عميق لطبيعة جريان الأحداث الآنية، والتي ستكون فيما بعد ماضيا. ويترتب على هاتين الطبقتين المتعاقبتين المشحونتين بالأفكار والتصرفات والتفاعلات تحديد ما سيقع، أو على الأقل كشف جانب منه، أو بناء المؤشرات الدالة عليه.

ثانيا: الوعي بالمستقبل

في الاتجاه المضاد للنظر في التاريخ، من أجل فهم ما نحن فيه وما سنقبل عليه، هناك صلة وثيقة بين الوعي بالمستقبل وإدراك الإنسان لقوى التغيير والتجديد، وقدرته على التأثير في البيئة التي تحيط به والتحكم فيها، وتسخيرها لمصلحته، مع التخلص تدريجيا من رواسب الأحاسيس القديمة، أو البدائية التي لاتزال ترى أن قوانين المستقبل تحكمها عوامل جبرية أو حتمية تماما، ولا مجال فيها لحرية الاختيار[23].

ويعرِّف توم لومباردو، أستاذ علم النفس والفلسفة والدراسات المتكاملة في كلية ريو سالدو بولاية أريزونا، الوعي بالمستقبل بأنه «المجموعة الكلية المتكاملة من القابليات والعمليات والخبرات النفسية التي يستخدمها الفرد في تفهم المستقبل والتعامل معه، وهو يشمل أبعادا عاطفية وتحفيزية وذات علاقة بالموقف وبالشخصية، ويتضمن الاستشراف ووضع الأهداف والتخطيط والتفكير النقدي وصنع القرار وحل المشكلات والأخلاقيات وفضائل الشخصية، ثم يقول: «سواء كان المرء مثاليا أو واقعيا، متساميا أو براغماتيا، كونيا أو متمركزا ذاتيا في الموقف والميل، فإن الوعي بالمستقبل يزود الدماغ الإنساني بالطاقة، ويغنيه ويفيده»[24].

ويقوم الوعي بالمستقبل على أبعاد معرفية، هي[25]:

1 - التخيل، حيث القدرة على خلق تخيلات ووقائع افتراضية في أذهاننا.

2 - الاستشراف، بمعنى القدرة على تصور أو تخيل ما سيأتي.

3 - تحديد الأهداف، وذلك بعد تشخيص العمل الذي نحن بصدده، وتعيين رغباتنا حياله.

4 - التفكير بالإمكانيات، ويعني تصور أنواع متعددة تشكل بدائل واضحة المعالم من الواقع الافتراضي المستقبلي.

5 - بناء السيناريوهات، بفعل القدرة على تخيل، ووصف تفاصيل معقدة وواقعية لأنواع من هذا الواقع الافتراضي المستقبلي.

6 - التفكير والاستنتاج النقدي، بمعنى إمكان تجاوز التفكير الذاتي الضيق إلى تعميق التفكير، أو التفكير عن التفكير، وتوظيف قواعد الاستنتاج الصحيح والفعال في الاستدلال المنطقي، ومقارنة وتقييم مختلف وجهات النظر، وتطوير الفرضيات والنظريات والتعبير عنها.

7 - انفتاح الذهن على الإبداع، حيث يمتلك الفرد مرونة في التعامل مع الأفكار ووجهات النظر المختلفة مع أفكاره وآرائه، وأن تكون لديه القدرة على إبداع أفكار وأنماط سلوك غير مألوفة.

8 - حل المشكلات، عبر طريقة للتفكير تبدأ من تشخيص المشكلات، ثم وضع الحلول لها وتنفيذها بنجاح.

9 - صنع القرار، والذي يقتضي امتلاك القدرة على الاختيار من بين أهداف وأساليب عمل مختلفة، ثم بلورة ومتابعة ما جرى اختياره.

10 - التخطيط، عبر سلسلة افتراضية من الأفعال المترابطة التي تقود إلى تحقيق الهدف المنشود.

11 - التفكير الافتراضي، الذي يقوم على وجود قدرة على تصور وتقويم الإمكانات.

12 - الرؤية الشاملة الثاقبة، التي تمكن صاحبها من أن يرى الصورة كاملة على ما فيها من تفاصيل صغيرة، وذلك وفقا للمقولة الشهيرة التي تطلب الارتفاع الذي يمكننا من أن نرى الغابة كلها بدلا من أن يزيغ بصرنا بين أشجارها المتزاحمة.

13 - الملاحظة القائمة على التجربة، والتي تجعل صاحبها قادرا على تفهم الحقائق وإدراكها.

ويربط لومباردو الوعي بالمستقبل بالتفكير الأخلاقي، أي النزعة إلى تحسين شروط الحياة، وتقدم الإنسان إلى الأمام، وهذا مناط أخلاقية هذا النوع من الوعي، ويقول: «إن جميع عمليات صنع القرارات الأخلاقية هي، بصورة عامة، نوع من الإدراك المستقبلي؛ فعندما نختار استنادا إلى قيمنا، فإننا نقرر سياق الفعل الواجب

اتخاذه فيما يخص المستقبل، وعندما نفكر أخلاقيا، فنحن نعتبر النتائج، والنتائج هي أحداث متوقعة في المستقبل»[26]. ثم يربط مسألة الوعي بالمستقبل بقيم أخلاقية من قبيل الشجاعة، وتحمل المسؤولية، وحب المعرفة، والتفكير، والحكمة، والرغبة الدائمة في التطور إلى الأفضل.

ونمو الوعي بالمستقبل لا يمكّن الفرد من إعادة التفكير في عدد من المسائل الفلسفية التقليدية فقط، بل إنه يتحدى ذكاءنا ويوسع إدراكنا ومخيلتنا، ويساعدنا على «التفكير الممكن» بما يؤدي إلى تمديد وتوسيع عالم الأفكار والحقائق، ويعزز تطوير العمليات الإدراكية العليا[27]، وفي كل هذا ما يعزز الخيال بصفة عامة، والخيال السياسي على وجه الخصوص.

ثالثا: الدراسات عبر النوعية

يجب فهم كل فعل إنساني في سياق متعدد الجوانب، نفسي واجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي، في آن، الأمر الذي يجعلنا دوما في حاجة ماسة إلى رؤية إحاطية أو تكاملية، تستفيد من عطاء مختلف العلوم الإنسانية على وجه الخصوص، ومن دون ذلك ليس في وسعنا أن نتخيل طرقا ناجعة وناجزة للتعامل مع المشكلات البحثية والحياتية التي نواجهها.

فإذا كان التخصص المتزايد قد أفاد العلم، فإن فائدته بالنسبة إلى العالم نفسه هي محل شك؛ فالعالم الذي يكرس حياته كلها لمجال أو فرع علمي ضيق، يتحدد تفكيره بهذا المجال، ويصعب عليه الخروج عنه، مع الثورة الرهيبة في المعلومات والمعارف، وبهذا يقع كثيرون من المشتغلين بالعلوم في فخ الانشغال بفرع واحد، ولا تنمو لديهم سوى ملكة واحدة، بل قد تضمر بمرور الوقت تحت وطأة الاستسلام للسير في مسرب علمي محدد، وتبدو حال مثل هذا الباحث شبيهة بإنسان له أنف ضخم وأذنان هائلتان لكن جسمه ضئيل معلق بهما، وفق تصور الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه. بل يطلق البعض عليه لقب «الهمجي المتعلم» The Learned Savage أو«العالم الجاهل»[28].

وربما أوضح الأمثلة التي يمكن ضربها هنا هو حكاية العميان الستة والفيل، فهم كانوا قد سمعوا عنه وأرادوا أن يعرفوه من كثب، فطلبوا من رجل بصير أن

يوقفه لهم، وراحوا يتحسسونه، وحين وضع الأول يده على جسم الفيل صاح: «إنه يشبه الحائط تماما»، ووضع الثاني يده على ناب الفيل وراح يكذب صاحبه: «عن أي حائط تتحدث؟ إنه مستدير وأملس وحاد، إنه يشبه الرمح، أما الثالث فوضع يده على أنف الفيل وقال لصاحبيه: «كلاكما مخطئ، إنه يشبه الثعبان، لكنه ثعبان ضخم جدا»، واحتضن الرابع بذارعيه رجل الفيل، وقال لأصحابه متهكما: «حقا إنكم عميان، إن الفيل يشبه جذع شجرة»، وجاء دور الرجل الخامس وحدث أن لمست يده أذن الفيل الضخمة فقال لهم: «الفيل لا يشبه أيا مما وصفتم، إنه مروحة كبيرة»، أما الرجل السادس والأخير فكان لايزال يبحث عن جسم الفيل ليتحسسه، وأخيرا وقعت يده على ذيل الفيل، فقال لأصحابه: «إن جميعكم حمقى، فالفيل لا يشبه أيا مما قلتموه إنه حبل غليظ طويل». وغادروا الفيل وكل منهم مقتنع بما لمسه، مكذبا الآخرين.

إن كل أعمى من هؤلاء يشبه المتخصص في فرع علمي صغير، لا يلم بغيره، ويظن أنه يعرف كل شيء؛ ففي حقيقة الأمر أن «التخصص المفرط لا يؤدي فقط إلى عزل المشتغل بالبحث العلمي عن كل جوانب المعرفة الأخرى، بل يعمل أيضا على توسيع الفجوة بين العلم والإنسان؛ إذ يحول العلم إلى أداة فنية مفرطة في التعقيد، وإلى مجموعة من الإجراءات التي تقتضي تدريبا وتعليما مكثفين، ومن ثم يتباعد العلم تدريجيا عن الإنسان في وجوده المتكامل المحسوس، وفي مشكلاته الواقعية العينية، ويزداد البحث العلمي عجزا عن رؤية الصورة الكلية للحياة الإنسانية، لأنه يفني عمره في قطاع شديد الضآلة من قطاعات عالم الطبيعة أو الإنسان»[29]، وبمرور الزمن قد يعتقد أن المسرب الضيق الذي يمر فيه هو الحياة بأسرها، ولا يتخيل شيئا مختلفا عنه، أو متناقضا معه، أو حتى مكملا له.

لكن التمرد على ضيق التخصص، والخروج منه إلى براح المعرفة الإنسانية الواسعة، أو استخدام عطاءات العلوم والمعارف الأخرى في تعزيز «التخصص» وإثرائه، ورؤية الجوانب المظلمة في الظواهر التي يدرسها المتخصصون صار مألوفا لدى كثير من الباحثين في الوقت الراهن، ولهذا يقول رايت ميلز: «الحقيقة المركزية اليوم هي تحلل الحدود الفاصلة بين الأنظمة بصورة متزايدة، فالمفاهيم أصبحت تتحرك من نظام إلى آخر بيسر وسهولة متنامية. وفي هذا الشأن سنجد أن هناك

حالات بارزة في مجالات العمل ترتكز على الاقتصار على التمكن والسيطرة من لغة ميدان واحد ثم استخدامها بحذق ومهارة في المجال التقليدي لمجال آخر... ونحن نجد أن كل علم من العلوم الاجتماعية قد عملت على تشكيله تطورات داخلية ذات صبغة فكرية، كما أن كلا منها قد تأثر أيضا بصورة قاطعة بأحداث نظامية، وكثيرا ما كانت مسألتا التسامح والاختلاف في مجال الأنظمة القائمة بالفعل، وتشمل الفلسفة والتاريخ والعلوم الإنسانية، هما اللتين تحكمان ميادين علم الاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا وعلم السياسة وعلم النفس»[30].

وقد ضرب رايموند جيس مثلا ناصعا على استخدام الدراسات عبر النوعية في إطلاق خياله العلمي، حيث وظف معرفته الواسعة بالتاريخ والأدب والفنون واللغات الأوروبية والفلسفة لتحليل وضع السياسات العالمية في الوقت الراهن، واستشراف مستقبلها، في مقالات متتابعة متنوعة[31]، حاول فيها أن يثبت أن توظيف الخيال في صنع السياسات لا يقتصر على المثاليين، أو النازعين إلى والراغبين في بلوغ الوضع الأمثل، بل يمتد إلى أولئك الذين يتفاعلون بشكل جاد مع الواقع.

رابعا: روح الفريق

مع مطلع العصر الحديث اكتسب العلم طابعا جماعيا، ولم يعد جهدا فرديا بحتا، لاسيما بعد أن استقل عن الفلسفة، وتشعب إلى حد بعيد، وأصبح مع توالي أجيال من العلماء فروعا وحقولا يسعى كل منها إلى الاكتمال. وكان العلماء في البداية يتبادلون المعارف عبر الرسائل، ولكن سرعان ما اتضح أن الرسائل المتبادلة أسلوب بطيء لا يسمح بنشر المعرفة وإخضاعها لنقد العقول الأخرى وتحليلها؛ إذ لم تكن ظروف ذلك العصر تسمح للعلماء إلا بتبادل رسالة أو رسالتين في السنة كلها، بينما كان عدد الأبحاث العلمية يتزايد ويتوالد بشكل لافت، ولذا بدت الحاجة ماسة إلى إنشاء جمعيات علمية، يتبادل فيها العلماء أبحاثهم ويتناقشون حولها، ثم يقسمون أي عمل علمي بينهم وفق خطة مدروسة وممنهجة[32].

فمن يقفون خارج المشكلة ويطالعونها بعمق، يرونها بشكل أفضل، ومن يتأملون القضايا والظواهر وهم في منأى عن المنغمسين في تلال من المعلومات حولها قد يكتشفون جوانب خفية على هؤلاء المنهمكين في التفاصيل حتى ذقونهم،

وبالتالي يكون في وسع المبتعدين قليلا أن يقدموا حلولا إبداعية أو مبتكرة، ويضعوا أيديهم على ما ستسير فيه هذه المشكلة مستقبلا، بل يدركوا بشكل أفضل مستقبل الحلول التي يضعونها.

ويطلق إدي فاينر وأرنولد براون على هذا الوضع اصطلاح «عجز المعلمين»، ويلخصان تجربتهما في هذا الصدد بقولهما: «لن نعمد أبدا إلى التوجه إلى الأطباء وحدهم لمساعدتنا في رؤية مستقبل الرعاية الصحية، أو إلى قادة الجيش فقط لتحديد مستقبل الأمن القومي، فالناس عموما، على الصعيدين المهني والشخصي، يعرفون كثيرا عما لديهم، إلى الدرجة التي تجعلهم آخر من يرى ذلك المستقبل بشكل مختلف»[33].

ولهذا كانت الاكتشافات العبقرية لأبرز علماء الفيزياء، وفي مقدمهم ألبرت آينشتاين، قد حدثت من خلال حوار مفتوح وصادق وبسيط بينهم، بعد أن قضوا سنوات يلتقون ويتحدثون ويتبادلون أفكارا صارت فيما بعد تشكل أسس الفيزياء الحديثة[34]. لقد اعتاد جوناس سولك، مطور المصل الذي قضى على شلل الأطفال، أن يجمع رجالا ونساء من حقول ومجالات معرفية وعلمية شديدة الاختلاف ليتفاعلوا مع بعضهم في أثناء جلسات جماعية، وشعر بأن هذه الطريقة أسهمت في تعزيز قدرته على إبداع أفكار جديدة. كما أدرك أليكس أوزبورن، الأمريكي المتخصص في الإعلانات، أهمية العصف الذهني في إنتاج أفكار جديدة، وسعى إلى خلق بيئة خالية من كل القيود، تشجع على إطلاق العنان للخيال لمجموعة من الأفراد تلتقي لتناقش فكرة أو تحل مشكلة معينة[35].

وفي العلوم الإنسانية، يؤمن رايت ميلز بأن «الحلقات النقاشية» عن المشكلات، والمناهج، والنظريات، بوسعها أن تسهم في فهم الظواهر بشكل أعمق، والتنبؤ بمستقبلها، ويدعو إلى ضرورة أن تنصب هذه الحلقات على العمل أو الفكرة التي يكون المتناقشون بصددها، ويجب أن يهتدي العمل بنتائجها[36]. ولعل فيما قدمته مدرستا «براغ» و«فرانكفورت» ما يبرهن بجلاء على أهمية العمل بروح الفريق من أجل إبداع الجديد، ومحاولة كشف غموض ما سيأتي. وقد تكون القاعدة المناسبة في هذا الخصوص هو أن حاصل تخيل عدة أشخاص سيكون بالقطع أفضل وأكثر دقة من تخيل شخص واحد، ويمكننا أن نطلق على هذا «الخيال الجمعي»،

وهو حالة أكثر إحكاما وتحديدا من اصطلاحات مثل «المخيال الشعبي»، الذي يعبر عما تنتجه جماعة بشرية واسعة من أساطير وحكايات تمجدها وتحافظ على تماسكها.

ويعول الفيلسوف البريطاني الشهير برتراند رسل على «الفهم المشترك» لإعانته في التوصل إلى نتائج جيدة، وتصل درجة اعتماده له في أداء هذه الوظيفة إلى حد قوله: «لا أرفض الفهم المشترك إلا حينما يقوم ضده برهان قاطع»[37].

وهذا النوع من الفهم، بالنسبة إلى رسل، لا يشكل مجرد تصور أو رؤية، إنما هو نهج أو اقتراب علمي، فها هو يوضح: «أدركت أن الاستدلالات التي يستخدمها الفهم المشترك أو العلم هي جميعا من نوع مختلف عن الاستدلالات التي يستخدمها المنطق الاستنباطي، وأنها من نوع تكون فيه النتيجة احتمالية عندما تكون مقدماته صادقة والتدليل صحيحا»[38]، وبذا فهو يضع هذه الطريقة من الفهم في مصاف العلم.

ويعتمد «الفهم المشترك» على مجموع ما نصل إليه من شهادات الآخرين، وحاصل تجاربهم، وبذا يتيح لنا ما تصل إليه عقول مختلفة، وعقلان قد يكونان أفضل من عقل واحد، وثلاثة أفضل من اثنين،... وهكذا.

ووفق رسل، الذي يضع عددا من المسلمات المنطقية للبرهنة على أهمية الفهم المشترك في الوصول إلى الحقائق، فإن «قدرا كبيرا مما نقبله دون شك فيه يقوم - بوصفه معرفة - على شهادة الغير، وشهادة الغير بدورها تقوم على اعتقادنا بأن هناك عقولا أخرى غير عقولنا، ووجود عقول أخرى لا يبدو للفهم المشترك عرضة للشك، وأنا نفسي لا أجد مطلقا ما يبرر لنا أن نختلف مع الفهم المشترك في هذا الصدد، لكن لا أشك في أنني لا أنتهي إلى الإيمان بعقول الآخرين إلا عن طريق خبرات وقعت لي»[39].

وكما هي الحال في العلم فإنه في الإدارة. بدأ العلماء والممارسون، على حد سواء، يدركون منذ مطلع ثلاثينيات القرن العشرين أن القرار الذي تصنعه مجموعات يمكن أن يكون أكثر دقة وعمقا واتساعا، لأنها تأتي بما لا يمكن لفرد وحده أن يصل إليه، علاوة على أن الأفراد يكونون أشد التزاما بتنفيذ القرارات التي اشتركوا في اتخاذها.

وهناك عدة مزايا لهذا الأسلوب في التفكير والتدبير، منها أنه يتيح تدفق المعلومات والخبرات من قرائح عدة، فتتسم بالغزارة، قياسا إلى ما يمكن أن يقوم به فرد واحد، وأنه يسمح بتعدد وجهات النظر، وإكسابها موضوعية، مبتعدا بها عن

الذاتية التي يمكن أن تعيب القرار المنفرد، وهي تشبع - في الوقت نفسه - الحاجة إلى تقدير الذات لدى المجتمعين، فتعزز انتماءهم.

لكن هذا يشترط توافر بيانات ومعلومات كافية أمام أفراد المجموعة، وأن تتوافر لهم فرصة البحث في اتجاهات متعددة، فنية وإدارية وسياسية واجتماعية، كما يشترط عدم الاستسلام للإجراءات البيروقراطية الصارمة أو الروتين المعتاد، وسيادة روح التعاون بين المديرين، وعدم سيطرة أحد الأفراد على النقاش، وفرض وجهة نظره على الآخرين[40].

فتوافر هذه الشروط سيسهم - إلى حد كبير - في شحذ الخيال، لأنه سيكون في هذه الحالة حاصل تفاعل قدرات تخيلية لمجموعة من الممكن أن يكون كل واحد منها قد أتيحت له، في المسافة الزمنية بين تحديد موضوع المناقشة وبين إجرائها بالفعل، فرصة جيدة كي يفكر في جوانبه كافة، أو يقلبها على مختلف وجوهها، ويخرج بخلاصات محددة.

ويتجلى التفكير الجماعي في أعلى صورة من خلال خلايا أو مجموعات الأفكار أو بيوت الخبرة Think tank، حيث تعكف مجموعة من الخبراء على دراسة المشكلات المقترحة عليهم، ويضعون لها حلولا. فإذا كانت المشكلة التي ينظرونها سياسية، فإنهم في حاجة ماسة إلى «خيال سياسي» فياض[41].

ويعد «العصف الذهني» من الطرق التي يمكن أن تُترجم بها «روح الفريق»، وهو نوع من «إمطار الدماغ» و«القصف الذهني» و«تدفق الأفكار»، ولذا فهو طريقة مهمة لحفز الخيال، والتدريب على التفكير الإبداعي أو الخلاق؛ إذ إنه يقوم أساسا على توليد وإنتاج أفكار غير مألوفة وعفوية، أو جديدة، لحل مشكلات معينة، بعد وضع الذهن في حالة من التحفز القوي كي يعمل بطاقته كاملة، في جو من الحرية والتجريب المفتوح بلا تحديد ولا تقييد، والبناء على أفكار الآخرين، أو التوليد منها.

ويمر العصف الذهني بعدة مراحل، هي: تحديد المشكلة وتحليل عناصرها الأساسية، ثم توفير المناخ المناسب للنقاش، ووضع تصور للحلول بواسطة المشاركين، وتجميعها وإمعان النظر فيها لاختيار أفضلها، وذلك عبر آليات معينة، منها أن يناقش الجميع الموضوع في وقت واحد، سواء كانوا مجموعة واحدة صغيرة، أو عدة مجموعات، إن زاد عددهم[42].

ويبلغ حفز الخيال مداه في العصف الذهني حين يجري التعامل مع الأفكار الغريبة التي أوردها البعض أو المجموعة بجدية كاملة، وإعادة صياغتها بما يجعلها مستساغة علميا، فالعصف الذهني مرده إلى ما أسماه أليكس أوزبورن «التخيل التطبيقي»، والذي رأى أنه طريقة أكفأ من العمل الفردي في إنتاج الأفكار[43].

ويمكن استعمال «العصف الذهني» في السياسة شأنها شأن التعليم والصناعة والإدارة المكتبية وإدارة الأعمال، لكن ليس من المنتظر أو المتوقع أن يتم هذا في اتخاذ القرارات لدى البنية العليا للسلطة السياسية، التي لديها طرق أخرى في صناعة القرار واتخاذه، إنما يمكن أن يجري على المستويات الأدنى، سواء داخل الإدارات المحلية، أو المجالس الشعبية المحلية، خاصة تلك التي تعاني الجمود والاستسلام للطرق التقليدية في تسيير الأعمال. وبوسع الأحزاب السياسية أيضا أن تدرب شبابها على مثل هذا الأسلوب؛ فينطلق خيالهم السياسي إلى حد بعيد، في مناقشة برنامج الحزب، ووسائله في التعبئة والحشد والتربية السياسية، وتوسيع قواعده الاجتماعية، وزيادة درجة تأثيره ونفوذه. كما يمكن للحركات الاجتماعية المسيسة أن تفعل الأمر نفسه في سبيل تعميق أهدافها، وتوسيع دوائر الاقتناع بخطابها ومسلكها، والأمر ذاته ينطبق على مؤسسات المجتمع المدني، التي تسعى إلى مساهمة خلاقة في دفع شروط الحياة إلى الأمام.

ويمكن أن يتم «العصف الذهني» إلكترونيا، من خلال اجتماع المعنيين باتخاذ قرار في غرفة مغلقة، وأمام كل منهم حاسوب، مرتبط بجهاز تحكم مركزي، ثم يبدأون، كل على حدة، في وضع ما يرونه من حلول للمشكلة التي يتدارسونها كما يعن لهم، وفي سرية تامة، ليبدأ بعدها تجميع المقترحات وتصنيفها واختيار البدائل الأفضل عبر التصويت، وبعدها تُعتمد، توطئة للعمل بها.

ولا نبالغ هنا، ومن زاوية سياسية، إن قلنا إن حالة الحشد والتعبئة التي سبقت انطلاق انتفاضات وثورات عربية، مع مطلع العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين في بلدان عربية عدة، تخللها نوع مختلف من «العصف الذهني» الإلكتروني العفوي والجامح، عبر توظيف مواقع التواصل الاجتماعي[44]، والتي كونت شبكة اجتماعية مفترضة بسرعة قصوى، وراكمت المعلومات والرؤى والأفكار حول الهدف المقصود، لتعوض مرحليا ما عجز الناس عن تكوينه وتشكيله في الواقع

المعيش من شبكات اجتماعية حقيقية، وتزودهم بقدرة على الخروج من «التفكير الدائري» الذي كان يصم اجتماعات القوى السياسية الراغبة في التغيير[45]، وتمنح خيالهم السياسي طاقة متجددة.

لقد «أثبتت ثورة يناير المصرية أن مفهوم التواصل الاجتماعي الجماهيري وآلياته اختلفا جذريا. فمتلقو الرسائل الإعلامية على اختلافها، أو المتخاطبون عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو متبادلو الرسائل النصية، تخلوا عن نمط المشاهدة السلبية حينما استشعروا أن المشاهدة المرئية للحوادث عبر أجهزة التلفزة، أو من خلال التخاطب عبر الشبكة العنكبوتية، استنفدت أغراضها التواصلية، لذا، غيروا أشكال تواصلهم الجسدي هذه المرة، فخرجوا، واحتشدوا، وتظاهروا، وحضروا في الميدان، وشكلوا بأجسادهم، أي عبر حشودهم البشرية، وسيلة أخرى من وسائل التعبير والتواصل الجماهيري كانت أفعل وأقدر وأشد تأثيرا»[46].

إن وسائل التواصل الاجتماعي بعد أن صارت «منبر من لا منبر له» باتت تحوي قدرة عجيبة على ممارسة عصف ذهني كثيف ومتواصل، عبر ما تبثه فوريا وبشكل سريع ومتتالٍ من الصعب أن تجاريه وسائل الإعلام التقليدية[47].

ووسائل الاتصال الرقمية، بما وفرته من «حرية افتراضية»[48]، أعادت النظر في الاحتجاجات الاجتماعية على عدة أوجه[49]، أولها أن مرجعية التفاعل في المجتمع غير الواقعي هي مرجعية معرفية بالأساس؛ ذلك لأن الذي يحرك الاحتجاج عبر الإنترنت هم النشطاء الجدد أو النخب المعلوماتية الذين شكلوا طبقات أو نخبا سياسية جديدة. وثانيها أن هذه الوسائل تتيح فرصة أمام تشكل تفاعلات إيجابية تتسم بسهولة التواصل عبر الإنترنت، وهي مرونة تتجلى عبر تشكل ما يمكن تسميته الأبعاد المماثلة، حيث اتساع القدرة على توحيد الأهداف العامة للاحتجاج في العالم الافتراضي. وثالثها هو الاستثمار العاطفي، حيث استغلت النخبة الشبكية الجديدة تقنيات الاتصال في التعبئة العاطفية للمتفاعلين كي يلتفوا حول الشعارات والقضايا التي يتبناها الاحتجاج، وذلك بدفعهم من المجتمع الافتراضي إلى المجتمع الواقعي.

وبالطبع فإن هذه الطريقة ليست عصفا ذهنيا بالمعنى المتعارف عليه، لكنها، ومن دون ترتيب من أصحابها، اتبعت بعض طرائقه واستلهمت «روح الفريق»، فبدا المشاركون فيه أشبه بدفقات مياه، تنهمر من كل حدب وصوب، وتتجمع

في نهيرات، لا تلبث أن تصب في نهر عميق وواسع من الغضب والحنق، والرغبة الجامحة في التغيير.

وهناك صور أخرى من العصف الذهني[50]، مثل «التسجيل الذهني» Brain Writing، وهو أحد أشكال العصف الذهني غير اللفظي، ويطبق مبادئه وقواعده كافة، حيث يبدأ بتحديد المشكلة المراد حلها، ثم يجتمع المشاركون في شكل دائرة، ويسجل كل منهم أفكاره في ورقة خاصة، ثم يسلمها، بعد فترة يقرها قائد المجموعة، إلى زميله الذي يجلس إلى جواره، ليبدأ كل فرد في إضافة أفكاره إلى الورقة التي تسلمها، مع مراعاة عدم التكرار، وتنقل الأوراق بعد هذا في الدائرة، ويتم تكرار تسليم الأوراق وإضافة الأفكار، بحيث تمضي عملية تناقل الأوراق بين أفراد المجموعة ثلاث مرات، ويمكن تكرار العملية لمرة رابعة إن اقتضى الأمر، وينتهي الأمر بقراءة قائد المجموعة للأفكار المدونة بصوت يسمعه الجميع، ثم تتم مناقشتها وتقييمها.

وهناك أسلوب التأليف بين الأشتات، الذي يعتمد على توظيف أشكال الاستعارة والمجاز والتمثيل أو المشابهة بصورة منظمة بغية التوصل إلى حلول مبتكرة لمختلف المشكلات. وتجنبنا هذه الطريقة عيوب الانغماس في المشكلة والتآلف معها بما يجعلنا لا نرى حلولها، عملا بالحكمة السابغة التي تقول إن من هو أبعد عن المشكلة يراها بشكل أفضل من المستغرق فيها، كما سبقت الإشارة.

وتتضمن هذه العملية نوعين من النشاط: الأول هو جعل الغريب مألوفا، عبر ثلاث عمليات عقلية هي: التحليل والتعميم والتمثيل. والثاني جعل المألوف غريبا، بما يتيح للفرد رؤية جديدة للعالم والناس والأفكار والمشاعر والأشياء بشكل أفضل، اعتمادا على عاملين: أولهما يرتبط بالحالات النفسية التي تقوم بدور مهم في العملية الإبداعية، حال تجنب تذبذب المبدع مسألة الاستغراق في المشكلة التي تشغله، ويبحث عن حل لها، ومقاومة الشعور بالرضا حيال الحل الأوَّلِي الذي تم بلوغه حتى لا يحول دون البحث عن حلول أفضل، وإعطاء العقل فرصة أكبر كي يلعب بالأفكار والصور المتصلة بالحل الذي جرى التوصل إليه، وشعور المبدع باستقلالية فكرته، والإحساس بمتعة إدراك الحل الأنجع. وثانيهما يتعلق بالأساليب الإجرائية التي من شأنها أن تقوم بدور المحفز والباعث للحالات النفسية السابق ذكرها، بما يشجع على التفكير الحر، ويقاوم الجمود والتحجر الذهني.

وهناك أسلوب النزهة العقلية Excursion Technique الذي يُلجأ إليه حال إخفاق المجموعة في التوصل إلى حل للمشكلة المطروحة رغم تجريب العديد من الإجراءات الإبداعية المشار إليها سابقا أو غيرها. وتمر هذه الطريقة بأربع خطوات، الأولى: هي النزهة، حيث يطلب قائد المجموعة من كل فرد فيها أن يغمض عينيه ويتخيل أنه في رحلة، ويجرد ذهنه من التفكير في المشكلة، ثم يعود من شروده بعد خمس أو عشر دقائق ليدون ما دار في مخيلته. والثانية: هي رسم المتناظرات، حيث يطلب قائد المجموعة من كل فرد أن يرسم ما يتناظر مما رآه في رحلته مع المشكلة المطروحة. والثالثة، والتي تتطلب قدرة على التفكير الإبداعي ورؤية المستقبل، هي التقييم واستيعاب النتائج، وتقوم على تحديد كل فرد المعاني الحقيقية للعلاقات التي ظهرت في الخطوة الثانية، بما يعين على توظيف هذه العلاقات بعد استيعابها لحل المشكلة. والرابعة: هي تبادل الخبرات، حيث يتبادل المشاركون النزهات والمتناظرات والحلول، بما يقودهم إلى التوصل إلى أفكار جديدة.

وهناك طريقة «ماذا لو؟»، التي تقوم على طرح كل الاحتمالات والبدائل بشكل افتراضي بناء على دراسة جيدة لمعطيات الواقع. وتوجد طريقة تعتمد على إعادة طرح المشكلة، بتحديدها وتعريفها - فقد يكون التحديد والتعريف الأولي غير صائب - وذلك عبر طرح الأسئلة والافتراضات التي تمثل جوهرها، وتصور الوضع المثالي للحلول، ثم وضع الإجراءات التي تمكننا من بلوغه أو الاقتراب منه.

وهناك طريقة «التخيل المؤطر» الذي يعد وسيلة للتوصل إلى درجة كبيرة من المعرفة والحقائق والأفكار والخبرات والصور المختزنة في الدماغ، ونقلها من مدار اللاشعور إلى الشعور. وتبدأ تلك الطريقة باختيار ما نريد أن نتخيله، سواء كان موقفا أو إجراء أو حلا، وما إذا كانت هناك أشياء أخرى ترد إلى الذهن، وكيف يمكن وصف الشيء في حالته المثالية، والموقف أو الشيء الأفضل مما لدينا، وبعدها تبدأ عملية الاسترخاء الذهني التام، وترك العقل يتنقل بحرية تامة بين الأفكار، وتسجيل كل ما يرد على الذهن منها ودراستها، واختيار المفيد منها، ثم الابتعاد عنه لمدة محددة، ثم العودة إليه، لدراسته.

وتوجد طريقة تسمى «لائحة الأفكار الجديدة» التي تشجع على التفكير المتنوع، وتعتمد على تحديد الشيء المراد تغييره، ثم النظر في مختلف الطرق التي يجب

أن نسلكها في سبيل بلوغ هذا التغيير، عبر طرح حزمة من الأسئلة عما إذا كان من الممكن استخدام هذه الطرق في مجالات أخرى، أو ما إذا كان المطلوب هو تكييفها أو تعديلها أو تصغيرها أو تقسيمها أو دمجها أو حذفها أو إعادة ترتيبها.

وهناك الإثارة الذهنية Provocation التي تقوم على تجريب الأفكار واختبارها، كأحد أساليب التفكير الجانبي، الذي يتجاوز السبل التقليدية التي نسلكها ونحن نفكر في حل للمشكلات. وتبدأ الإثارة الذهنية باختيار نقطة بداية للحل، غير كل تلك المحددة مسبقا، حتى لو كانت حلا ساذجا أو سخيفا، وعدم التوقف أمام منطقيته أو صدقه، لننطلق منه نحو توليد أكبر عدد ممكن من الأفكار، تزداد رشادتها ومنطقيتها وصدقها بالتدريج حتى نصل إلى حل إبداعي حقيقي.

وتوجد طريقة «افعل ذلك»، وهي عملية بسيطة للإبداع تبدأ بتحديد المشكلة، والتفتح العقلي حيالها، وتحديد أنسب الحلول لها، وتنفيذ الحل الذي جرى وضعه وتحويله إلى واقع.

إن كل هذه الطرق والأساليب تنطوي على تطبيق لـ «روح الفريق» في التفكير، وهي لا تدع هذا الفريق يلتقي من دون «خريطة طريق» أو على الأقل «حزمة إجراءات» يجري بمقتضاها الاستفادة القصوى من حصيلة التفكير الجماعي. فإذا كان الأمر يتعلق باستشراف المستقبل، فإن مثل هذه الإجراءات لا تدع الخيال، حتى لو كان حرا، يتناثر بعيدا عن المسار المقصود، والغاية المنشودة من عملية التنبؤ، بل يصب فيها، فيوسعها ويعمق مجراها، ويصل بنا في نهاية المطاف إلى كشف غموض الآتي بقدر المستطاع.

خامسا: الخيال المنطقي الخلاق والتفكير الجانبي والتباعدي

يقصد بالخيال المنطقي الخلاق «الانطلاق الذهني في المستقبل، ومحاولة استكشاف الأشكال المتوقعة للعالم ولسكانه استكشافا متسقا مبنيا على التعقل والتبصر والحجة والأناة. والخيال يوصف بأنه منطقي، بمعنى أنه ينتقل بشكل منظم من مقدمات يختارها ويحددها أولئك الذين يتأملون المستقبل إلى نتائج مستخلصة منها ومترتبة عليها، من دون أن يتخذ ذلك شكل التقيد والالتزام المطلق بقواعد وقوانين وبراهين قائمة، وهنا تكتسب خاصية الخلق والابتكار معناها

الحقيقي، فهي تنبع من الشك المنهجي، بدلا من التسليم البديهي بصحته وسلامته، إذ لو فعلنا ذلك لما تيسر اكتشاف الجديد، أو الانتقال إلى المجهول»[51].

والعملية الإبداعية عموما هي «القدرة على تشكيل أنماط أو بناءات مستحدثة، لأداء أفعال جديدة، ولحل مشكلات جديدة»[52]، لكنها لا تقف عند حد الاكتفاء بحل المشكلات القائمة، إنما تتجاوز هذا إلى امتلاك القدرة على اكتشاف مشكلات أخرى، قد تكون كامنة، أو محتمل حدوثها في المستقبل، وكذلك وجود إنتاج جديد وذي قيمة[53]. وهنا يغذي الخيال هذه القدرة الإبداعية، كما يحتاج الخيال نفسه إلى إبداع، أو يكون الاثنان في حالة تواشج وتعانق وتبادل منافع ومواقع، فتكون القاعدة هكذا: «حتى تبدع فأنت تحتاج إلى قدر من خيال، وحتى تتخيل يجب أن تمتلك عقلا مبدعا». ولكن حتى لا يكون التخيل ضربا من الأوهام، لا بد من أن ينبني على منطق، أو يكون خيالا يتلمس طريق العلم ولا يحيد عنه.

وهذا الإبداع القائم على العلم تحتاج إليه الإنسانية باستمرار، لاسيما في وقتنا هذا، حيث يقود الإبداع التغيير الاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما جرى خلال القرن الحالي، بعد أن صار الإبداع مصدرا لـ «الميزة التنافسية»، وبابا لإنجاز المشروعات الاقتصادية والثقافية، حيث تقود المعرفة والأفكار المبتكرة إلى تكوين الثروة والتحديث، وتشكل التقنيات الجديدة قوام الحياة اليومية للبشر[54]. وبالتالي يكون الإنسان في حاجة ماسة إلى إطلاق العنان لخياله، حتى يسابق الزمن، أو يلاحق التطورات التي تفرض نفسها بشدة على الواقع.

لكن هناك من رأى أنه يجب ألا نتوقف عند «التفكير المنطقي الخلاق» فحسب، بل نذهب إلى التفكير الجانبي الذي هو أسلوب لحل المشكلات بطريقة غير تقليدية أو غير مألوفة، عبر شحذ الطاقة الذهنية إلى حدها الأقصى. وهو ليس شكلا سحريا جديدا، بل طريقة أكثر إبداعية في استخدام العقل.

وقد ارتبط هذا المفهوم بإدوارد دي بونو الذي طور هذا النوع من التفكير وفق تصوره عن الآلية التي يعمل بها الدماغ، موظفا معطيات علم الأعصاب.

ويبدأ دي بونو كتابه الشهير عن هذا النوع من التفكير بسؤال مفاده: «لماذا يأتي القليل من البشر بأفكار جديدة في حين لا يفعل آخرون ذلك مع أنهم يتمتعون بدرجة الذكاء ذاتها؟ أعتبر التفكير المنطقي الشكل الأمثل لإعمال العقل منذ عصر

أرسطو إلى أن تبين أن الأفكار الجديدة وما فيها من مناورة لم تتمخض بالضرورة عن عملية تفكير منطقي. هناك نوع آخر من التفكير لا يعرفه إلا قلة من الناس؛ لأننا لا نميزه إلا عندما يقود إلى أفكارٍ بسيطة تتجلى فقط عند التأمل فيها»[55].

ولا يعني هذا أن دي بونو قد طرح هذا النوع من التفكير بديلا للتفكير العمودي الذي يتبع التسلسل المنطقي، بل يراهما متكاملين، إذ يقول: «نلجأ إلى التفكير الجانبي عندما يعجز العمودي عن إيجاد حل لمسألة تحتاج إلى فكرة جديدة، فالأفكار الجديدة بحاجة إلى تفكير جانبي؛ لأن العمودي محاصر بحدود بنيوية تمنعه من أداء هذه المهمة ولا يستطيع أن يتجاهل هذه الحدود لأنها تمثل ماهيته»[56].

ولعل المثل البسيط الذي يمكن أن يُضرب لتبيان التفكير الجانبي أن بوسعنا أن نصف بناية شاهقة من خلال المخطط المعماري، بدءا من أساساتها تدريجيا حتى نصل إلى قمتها وبشكل محسوب بدقة، لكن ليست هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من الوصف، بل يمكننا أن نتجول حولها وننظر إليها من جميع الزوايا، وبعد تركيب الصور التي جمعناها يظهر البناء أمام أعيننا أكثر واقعية من دراسة المخططات.

والتفكير الجانبي ليس تفكيرا جنونيا ولا عشوائيا، فهو يستند إلى موقف وعادة عقلية، وفي الوقت نفسه إلى الهروب من الفكرة السائدة، والتحلي بالمرونة المطلوبة في إعمال الذهن، والتبصر في التعامل مع الأشياء والأفكار، وربما تأتي الإشراقة بغتة بعد الانشغال بالمسائل والمشكلات التي يراد حلها.

ولكي نفعل شيئا ما للوصول إلى أفكار جديدة يمكننا أن ننتهج طريقتين: الأولى هي محاولة تحسين السبل المتبعة. والثانية هي معرفة وإزالة كل ما من شأنه إعاقتها[57].

ويعتمد التفكير الجانبي على التفكير بالمخالفة. فمثلا، بدلا من أن نفكر كيف يبتكر المخترعون، نفكر في لماذا لا يخترع غيرهم؟ نبحث في الغباء كي نفهم الذكاء. ولذا فهو يقوم على أربعة مبادئ، هي: تمييز الأفكار السائدة والمستقطبة؛ والبحث عن رؤيةٍ جديدةٍ للأشياء؛ والتخلص من السيطرة المتزمتة للتفكير العمودي؛ والاستفادة من المصادفة.

ويساعد التفكير الجانبي على تغذية «الخيال السياسي» من زوايا عدة، فهو يكسر القيود التي يفرضها التفكير العمودي كمنهج لتوليد أفكار جديدة، ويفيدنا

في توليد هذه الأفكار وتجديدها، خاصة أنه يفتح أبوابه أمام الجميع، ويعتمد على الذكاء المحض.

أما التفكير التباعدي فيعني توليد وإنتاج معلومات جديدة من أخرى معطاة، واللجوء إلى حل إبداعي للمشكلات المطروحة. ويحتاج هذا إلى ثلاث خطوات أساسية، هي[58]:

(1) تأجيل الحكم على الأشياء لحين الانتهاء من توليد عدد كبير من البدائل والاحتمالات.

(2) السعي نحو تحصيل أكبر عدد من الأفكار، وفق التصور الذي يرى أن الأفكار المميزة تنتج من أفكار كثيرة.

(3) ترك العنان للخيال لتجاوز المألوف في البحث عن أفكار إبداعية.

وينحو التفكير التباعدي إلى الابتكار الذي يتطلب انفتاح الفرد على الأفكار والمعلومات الجديدة، والبحث عنها في مختلف المصادر، ثم استخدام الحلول المبتكرة للمشكلات، عبر توليد أفكار جديدة، ثم الأخذ بوجهات النظر الجديدة، والإلمام بالمخاطر التي تتضمنها[59].

سادسا: نظرية المباريات

ويطلق عليها أيضا نظرية الألعاب Game theory، وهي عبارة عن تحليل لتضارب المصالح أو تصارع الأهداف يستخدم الرياضيات بغية الوصول إلى أفضل خيار ممكن، لاتخاذ القرار الأكثر رشدا. ورغم أن أصل هذه الطريقة مستند إلى ما يتبع في ألعاب التسالي من قبيل «البوكر» و«الداما» و«إكس» فإنها جذبت انتباه علماء السياسة والاقتصاد والاجتماع وخبراء الحرب وتحليل الصراعات[60]، وساعدتهم، بشكل ملموس، على دراسة البدائل والخيارات والتقاط الأفضل، من خلال التفسير العقلاني المجرد الذي يجمع بين المنطق والرياضيات.

ويرى عالم السياسة كارل دويتش أن «المباريات» منهج يستند إلى وجود تشابه كبير بين بعض لعب المباريات الاعتيادية، وبعض الحالات الاجتماعية المتكررة، ولذا فحين نجد تشابها بين الأمرين فإن من الأجدى أن نحلل المباريات ابتداء، بدلا من الحالات الاجتماعية، فنفهم من الحالات الأولى التي هي أقل تحديدا، الكثير عن الثانية، التي هي واسعة ومفرطة في التعدد والتعقد والغموض.

ويتفق مارتن شوبيك مع دويتش في الرأي، ويرى أن هذه النظرية تعطينا طريقة مهمة لدراسة صناعة القرار في حالات الصراع أو التعاون عبر عمليات رياضية محددة. وهي في نظر ستيفن برامز، مجموع القواعد التي تربط اللاعبين أو المؤتلفين[61]. وفضلا عن صناعة القرار في السياسات العامة والمحلية، والمنافسة الحزبية، يستعمل العسكريون هذه النظرية للتنبؤ بالخطوة القادمة التي سيقدم عليها العدو في الحرب.

والمباريات نوعان: الأولى مباراة صفرية، وهي المباراة التي تتساوى فيها مكاسب اللاعب الأول مع خسائر اللاعب الثاني أو العكس، بحيث يحصل الرابح على كل شيء ولا يحصل الخاسر على شيء، ومن ثم تبقى محصلة هذه المباراة هي الصفر، وتكون مغامرة ومقامرة كاملة بالنسبة إلى المتنافسين أو المتصارعين.

ومن الأمثلة على هذا النوع من المباريات معركة «الثغرة» The Battle of the Bulge بين القائدين العسكريين، الأمريكي أوماد برادلي والألماني فون كلوغ، عقب غزو الحلفاء لنورماندي، والتي استمرت من 16 ديسمبر 1944 إلى 25 يناير 1945، ضمن مجريات الحرب العالمية الثانية، وكذلك معركة بحر بسمارك البحرية خلال الحرب العالمية الثانية أيضا بين القوات البحرية الأمريكية واليابانية.

أما الثانية فهي المباراة غير الصفرية، وهي المباراة التي تفرض وجود مساحة واسعة للتنسيق والتعاون بين طرفي عملية الصراع، حيث إنهما قد يخسران معا أو يكسبان معا. أي أن اللاعبين لديهما مصالح تنافسية وتعاونية في الوقت نفسه.

وتفترض هذه النظرية وجود مجموعة من اللاعبين يرمي كل منهم إلى تحقيق ربح كامل على حساب غيره، أو إنجاز وضع حسن للجميع، وتختلف نظرة كل طرف إلى الربح والخسارة وفق عدة معايير منها: القيم التي تسيطر على سلوك الأطراف المنخرطة في اللعبة، والقواعد التي تحكمها، وحجم المعلومات المتوافرة لدى كل منهما، وإدراكاتهما المتبادلة، وبيئة اللعب، ومراقبة كل حركة يقوم بها الطرف نحو تحقيق هدفه وتعديل الاختيارات بناء على هذا.

وعلى رغم أن نظرية المباريات تستخدم بالأساس في تفسير السلوك، فإن «بنيتها التصورية هي التنوير»[62]، ولذا يمكنها أن تساعد على تخيل ما سيأتي وفق ضوابط أو محددات عقلانية.

سابعا: توظيف الخيال الإبداعي

يخبرنا رايت ميلز بأنه حين كان بصدد تأليف دراسته المهمة عن «الطبقات العليا» في المجتمع الأمريكي، ظل يقرأ للأديب الفرنسي أونوريه دي بلزاك، مرة بعد أخرى، وأخذ كثيرا مما كرس له نفسه من اهتمام بتغطية جميع الطبقات والأنماط الرئيسية في المجتمع[63]. وذلك يرجع إلى أنه كان يؤمن بأن «الروائيين الذين تتجسد في أعمالهم أكثر التعريفات انتشارا للواقع البشري، كثيرا ما يمتلكون هذا الخيال العلمي الاجتماعي، ويفعلون الكثير لاستيفاء متطلباته»[64].

وليس ميلز بالقطع هو الأول ولا الأخير الذي يستفيد من الأدب، لاسيما القصة والرواية والمسرحية، في فهم المجتمع، أو تحليل سلوكيات البشر، فأمثاله كثر، ومسارهم ازداد رسوخا إلى درجة ميلاد علم «اجتماع الأدب» و«اجتماع الرواية»، بل صارت الرواية التاريخية أحد مصادر التأريخ، وهي بقدر ما تضيء بعض الجوانب المظلمة للقديم فإنها تجلي بعض غموض ما سوف يأتي.

فالأعمال الأدبية وما يشبهها تعد في بعض جوانبها، أو كلها أحيانا، «ابتكارات لعوالم اجتماعية بديلة للعالم الاجتماعي الحقيقي، وتخضع لعوالم خيالية في الأحجام وأنماط السلوك والقيم والمثل العليا والأخلاق... إلخ، ولكنها في الحقيقة تكون نقدا غير مباشر للعالم الحقيقي ولقواعده المستقرة، فتصبح نوعا من المجاز الإبداعي الواعي والقاصد، يشير إلى المجتمع الحقيقي الفعلي القائم، أو يكون نوعا من الاستقرار اللازم أو البديهي لما قد يترتب على قيام واقع حقيقي يشبه الواقع الخيالي في مضمونه، وليس في شكله ولا في أساليبه، وإنما يشبهه أو يتعارض معه تعارضا رأسيا كاملا فيما يعتبره كل منهما خيرا أو شرا، مرذولا قبيحا أو مقبولا وجذابا»[65].

لهذا يعتبر زكي نجيب محمود أن الأديب هو مصباح يضيء معالم الطريق، ويقول إنه «ليس رجعا للصدى؟ وقد تكون هداية المصباح كشفا لما هو جديد، أو تحليلا للقديم من شأنه أن يعري الأسس المخبوءة لتنكشف فيها مواضع التعفن والتآكل. أما كيف تكون هذه الهداية أو هذا التحليل، فأمر متروك لقواعد الفن الأدبي[66]. وهذه القواعد تعتمد في جانب كبير منها، فضلا عن التشكيل الجمالي للغة، إلى فهم التخيل والتخييل.

ويتفق معه فؤاد زكريا في هذا الرأي، ويذهب إلى أن «جوانب التشابه بين النشاط الذي يمارسه الإنسان في العلم وفي الفنون والآداب أقوى مما يبدو للوهلة الأولى». ويدعو إلى التأمل في دور الخيال في هذين الميدانين، ويقول: «إننا نتصور عادة أن الخيال ملكة ذهنية لازمة للفنان والأديب وحدهما، على حين أن العالم الذي يأخذ على عاتقه مهمة وصف الواقع على ما هو عليه، من دون أي إضافة من عنده، لا بد أن يستبعد الخيال من مجال عمله. ولكن حقيقة الأمر أن العالم، وإن كان يلتزم بالفعل بتلك النظرة الواقعية، يجد مجالا خصبا لممارسة ملكة الخيال في صميم عمله العلمي... ولو تأمل النظرية التي يتوصل إليها العالم الكبير، بعد أن تكتمل، لوجدناها نموذجا فريدا لعمل متناسق أشبه بالعمل الفني الرائع... والطريقة التي يظهر بها الكشف العلمي في ذهن العالم قريبة كل القرب من تلك التي تظهر بها فكرة العمل الفني في ذهن الفنان... والمنبع الذي ينبثق منه الكشف العلمي الجديد، والعمل الفني الجديد، هو منبع واحد، والجذور الأولى والعميقة للعلم والفن واحدة، ومن ثم فإن العالم الذي ينمي في نفسه حاسة التذوق الفني أو الأدبي إنما يرجع، في الواقع، إلى الجذور الأصيلة لمصدر الإبداع في الإنسان، وربما كانت رعايته لملكة الخيال في ذهنه سببا من أسباب إبداعه في العلم، خاصة أن النظريات العلمية الكبرى تحتاج إلى قدر غير قليل من الخيال»[67].

وليس ذلك بمستغرب إن عرفنا أن الجزء الأكبر من تفكير الإنسان يعتمد على العقل الباطن، وعلى عواطفه. فقد توصل العلماء الذين عكفوا على دراسة وتشريح مخ الإنسان إلى أنه من دون تدخل العواطف في حياتنا سيكون من الصعب أن نتخذ كثيرا من القرارات، وهو التصور الذي سبق أن زكاه فلاسفة حين تعاملوا مع العواطف والعقل الباطن على أنهما المخزون الفكري للإنسان الذي تبناه المجتمع والدين والتعليم والأساطير والتاريخ[68].

ومن نافذة الخيال يمنح الأدب السياسة بعدا جديدا ومغايرا، حين يطرح الأدباء في نصوصهم، أو يقترحون، عالما بديلا، بعد أن ينتقدوا الأوضاع السائدة. وأحيانا يكون هذا العالم البديل مثاليا، فيه الحرية والعدالة والمساواة والسعادة. لهذا يبدو «الخيال السياسي» في بعض الأوقات نوعا أو فرعا من فروع الأدب يتناول الشؤون السياسية، أحداثا ووقائع ونظما ونظريات.

وهناك عشرات الأعمال الأدبية، العربية والأجنبية، التي تبرهن على وظيفة الأدب في إثراء الخيال الاجتماعي والسياسي، من أمثال خماسية الأديب الفرنسي رابليه: «غارغانتوا وبانتاغرويل»، ورواية الأديب البريطاني جوناثان سويفت «رحلات غاليفر»، ومسرحيتي شكسبير «الليلة الثانية عشرة»، و«حلم ليلة صيف»، ومسرحية توفيق الحكيم «رحلة إلى الغد»، ورواية نجيب محفوظ «رحلة ابن فطومة»، ومسرحيات يوسف إدريس «الفرافير» و«الجنس الثالث» و«المهزلة الأرضية»... إلخ.

[illegible]

[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	
رحلة الحاج، جون بنيان	The Pilgrim's Progress (1678)
رسائل فارسية، مونتسكيو	Persian Letters (1721)
رحلات غاليفر، جوناثان سويفت	Gulliver's Travels (1726)
كانديد، فولتير	Candide (1759)
تاريخ ومغامرات ذرّة، توبياس سموليت	The History and Adventures of an Atom (1769)
الأساطير والأمثال، إغناتي كراسيكي	Fables and Parables (1779)
عودة المفوض، يوليان أورسن نيمتشفيتش	The Return of the Deputy (1790)
الخطيب، أسلندرو مانزوني	The Betrothed (1827)
القائد الحزبي، ناثانيل بيفرلي تكر	The Partisan Leader (1836)
بارنابي رذج، تشارلز ديكنز	Barnaby Rudge (1841)
كونينغسبي، بينجامين دزرائيلي	Coningsby (1844)
سيبيل (أو الدولتان)، بينجامين دزرائيلي	Sybil, or The Two Nations (1845)
تانكريد، بينجامين دزرائيلي	Tancred (1847)

Uncle Tom's Cabin (1852)	كوخ العم سام، هارييت بيتشر ستو
A Tale of Two Cities (1958)	قصة مدينتين، تشارلز ديكنز
Fathers and Sons (1862)	الآباء والبنون، إيفان تورغينيف
The Palliser Novels (1964-1879)	روايات باليسر، أنتوني ترولوب
War and Peace (1869)	الحرب والسلام، ليو تولستوي
Demons (1872)	الشياطين، فيودور دوستويفسكي
The Gilded Age (1876)	العصر الذهبي، مارك توين وتشارلز دادلي وارنر
Democracy: An American Novel (1880)	الديموقراطية، رواية أمريكية، هنري آدمز
The Princess Casamassima (1886)	الأميرة كاساماسيما، هنري جيمس
The Bostonians (1886)	مواطنو بوسطن، هنري جيمس
Looking Backward (1888)	النظر إلى الماضي، إدوارد بيلامي
Pharaoh (1895)	فرعون، بوليسلاف بروس
Nostromo (1904)	نوسترومو، جوزيف كونراد
The Jungle (1906)	الغابة، أبتون سنكلير
The Iron Heel (1908)	الكعب الحديدي، جاك لندن
Under Western Eyes (1911)	تحت عيون غربية، جوزيف كونراد
The Ragged-Trousered Philanthropists (1914)	المحسنون ذوو السراويل
	الخشنة، روبرت تريسل
The Trial (1925)	المحاكمة، فرانز كافكا
The Castle (1926)	القلعة، فرانز كافكا
Animal Farm (1945)	مزرعة الحيوان، جورج أورويل
Walden Two (1948)	والدن الثاني، بورهوس فريدريك سكينر
Dark Green, Bright Red (1950)	الأخضر الداكن، الأحمر الساطع، غور فيدال
The Quiet American (1955)	الأمريكي الهادئ، غراهام غرين
Atlas Shrugged (1957)	أطلس متململا، آين راند
The Manchurian Candidate (1959)	المرشح المنشوري، ريتشارد كوندن

ممثلو الكوميديا، غراهام غرين	The Comedians (1966)
واشنطن العاصمة، غور فيدال	Washington, D. C. (1967)
بر، غور فيدال	Burr (1973)
حرب الشوكولاتة، روبرت كورمير	The Chocolate War (1974)
رجال العصابات، في إس نايبول	Guerrillas (1975)
1876، غور فيدال	1876 (1976)
فاينلاند، توماس بينشون	Vineland (1990)
الولايات المتحدة للموز، جيانينا براسكي	United States of Banana (2011)

والأوضح أو الأبرز في هذا الصدد ثلاث روايات أولاها: رواية ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع» Brave New World، التي انتهى من كتابتها سنة 1931 ونشرت في السنة التي تلتها، وهي تدور في مجتمع شديد التحرر، ويبدي فيها تخوفه من تحكم العلم في حياة الناس، حيث تخيل مدينة يقطنها العلماء، وتهجرها المشاعر والجمال، ويستعين أهلها بالعلم في تلبية كل احتياجاتهم ورغباتهم، فيستغنون عن الزواج، ويكونون الأجنة في قوارير بدلا من أن تحملها أرحام الأمهات، ويكون الشاغل الوحيد لهم هو الاستمتاع بالجنس، ولا يهزهم الموت بل يتعاملون معه بمشاعر محايدة وهدوء يغيظ كأنهم آلات صماء.

وينقسم المجتمع في الرواية إلى عدة مجموعات، كل مجموعة أو طبقة تعد إعدادا خاصا يلائم تكوينها الجسماني واستعدادها العقلي، أو تجري تربيتها في بيئة شبيهة بالمصنع، حيث يُلقَّن أفرادها طوال الوقت، حتى وهم يغطون في سبات عميق، كل الأفكار التي يجب أن يؤمنوا بها. ويعيش الفرد في هذا المجتمع المتخيل في غير كبد ولا مشقة في تدبير احتياجاته الجسدية، وهو إن أراد شيئا فلن يبذل جهدا في سبيل الوصول إليه، إنما يكفيه أن يضغط على زر أو يحرك مقبضا حتى يجد أمامه ما طلبه. وإن شعر أي فرد بأن هناك ما ينغص عليه عيشه، فيمكنه أن يبحث عن السلوى في تعاطي المخدرات. وبذا فإن هذا المجتمع به تقنية للتناسل واللذة الجنسية، وتقنية لتحوير العقل والجسد من خلال التلقين أثناء النوم وجراحات

التجميل وأقراص تمنح السعادة وتجدد الشباب، وتقنية للرفاهية والتسلية التي تشبع الحواس الخمس. لكن كل هذا لا يجعل الحياة مقبولة، وخالية من الملل، بل يعاني الإنسان فيها ظمأ روحيا شديدا.

والثانية هي رواية هـ. ج. ولز «شكل الأشياء في المستقبل» The Shape of Things to come التي صدرت سنة 1933، وحملت نبوءة بوقوع حرب في الأربعينيات، يتلوها حمى شديدة في الخمسينيات تقتل نصف سكان العالم، فلا يعود التماسك إلى العالم إلا في منتصف الستينيات بإيجاد «لجنة التحكم في الجو والبحر»، وهي مجموعة من الناس تسعى إلى خلق «دولة عالمية». لكن هذا الحلم لن يتحقق إلا بعد 56 عاما أخرى يعيش فيها الناس موجوعين من الإرهاب والكبت. وعلى لسان إحدى شخصيات الرواية، يصف ولز ما يتوقع أن تكون عليه الحياة سنة 2100، حيث يمكن للناس أن يفعلوا ما يشاءون، من دون قيود ولا كوابح، لا يحكمهم إلا الاحترام اللائق للعقول، بل يتنبأ بتربية سليمة للعقل والجسم وحماية مضبوطة وصارمة للملكية والمال العام بطريقة لم يكن بوسع الاشتراكيين الأقحاح أن يصدقوها[69].

أما الثالثة فهي رواية جورج أوريل «1984» التي رأت النور سنة 1949، وتنبأ فيها بسيطرة قوة كبيرة على العالم تتقاسم مساحته، وتحول البشر إلى مجرد أرقام في «جمهورية الأخ الكبير» الشمولية، التي تعد عليهم أنفاسهم، بعد أن تتحول القيم الإنسانية النبيلة إلى أمور تافهة، وتصبح الحياة خالية من العواطف والأحلام، ويتصرف البشر كأنهم آلات صماء. وتدور أحداث الرواية التي تخيلها أورويل في مدينة لندن، وبطلها صحافي يعمل في «وزارة الحقيقة»، يخضع لمراقبة من رجال الشرطة والجيران، على رغم أنه مواطن شريف، ويُحرم من أن يلتقي بمن يحب، وهو يعرف أن السلطات تغير باستمرار المعلومات والبيانات الموثقة عن الأفراد لتتماشى مع رغبة ومصلحة الحزب المسيطر، وإرادة الحكومة التي يقودها الأخ الأكبر[70].

مثل هذه الروايات الثلاث، وغيرها، فتحت أمام الأذهان نافذة عريضة لتأمل المستقبل الاجتماعي والسياسي، وكانت مصدر إلهام للسياسيين أنفسهم، وجعلت العلماء والمفكرين يعملون في سبيل تعظيم الفوائد، وتجنب الخسائر التي حملتها تلك النبوءات.

وهناك أمثلة أخرى في الأدب العربي، ففي العام 1957 أصدر توفيق الحكيم مسرحيته «رحلة إلى الغد»، التي يعيد فيها إنتاج القصة القرآنية عن «أهل الكهف»، لكن بطريقة مغايرة، حيث تبدأ المسرحية بإصدار حكم بالإعدام على طبيب متهم بالقتل، وبينما ينتظر الموت في خوف وكمد يرمى له طوق نجاة لا يفعل له شيئا سوى تقليل احتمال الرحيل الأبدي؛ إذ عرضوا عليه الذهاب في رحلة إلى الفضاء، العودة منها غير مضمونة إلا قليلا، فقبِل العرض ورافقه مهندس محكوم عليه بالإعدام أيضا.

بعد عودتهما من رحلة يظنان أنها استغرقت يوما أو بعض يوم، وجدا أن الزمن على الأرض قد قفز ثلاثة قرون إلى الأمام، وأن كل شيء قد تغير بفعل التقدم التقني الرهيب، بل إن متوسط أعمار الناس يصل إلى الثلاثمائة، بفعل الطفرة في مجال الصحة والطب، والناس يعيشون في سلام دائم وقد ودعوا الحروب، بعد أن زالت أسباب الصراع بين الأمم، وصار الطعام والشراب والسكن متوافرة لكل إنسان[71].

وفي العام 1966 أصدر نجيب محفوظ روايته الرمزية «ثرثرة فوق النيل»، التي حملت نبوءة بهزيمة 1967، بعد أن رسمت معالم حاضر كان فيه من السلبيات ما يشي بوقوع هذه الفجيعة.

تدور الرواية في عوامة على ضفاف النيل، يلتقي فيها مجموعة من أصدقاء على قدر من الثقافة، لا رابط بينهم سوى البحث عما يُغَيِّب الوعي، وفي مطلعهم أنيس، بطل الرواية الذي يهلوس طوال الوقت من فرط تعاطي الحشيش، ويبدي حنقه على كل شيء: واقعه ورئيسه في العمل وما يجري في البلاد، ويشكو دوما لأصدقائه الذين يقاطعون كل الناس والسياسة، ويغوصون في عبث تام، وتنتهي الحال إلى أن تمخر بهم العوامة عباب الماء من دون أن يدروا بما يجري لهم[72].

وقيل إن الرواية أغضبت المشير عبدالحكيم عامر، الرجل الثاني في نظام عبدالناصر وقتها، فتوعد كاتبها بعقاب أليم. كما أغضبت رئيس المخابرات صلاح نصر، فلم يكن أحلم من سابقه، وفعل مثلهما كثيرون من رجال السلطة. صعد الأمر إلى الرئيس جمال عبدالناصر فطلب نسخة من الرواية وقرأها، وكان قد وصله قلق نجيب محفوظ من غضب رجال الحكم، فقال: نجيب محفوظ فريد في موهبته وقيمته، ومن واجبنا أن نحرص عليه، وهو لم يثبت عليه سوء نية تجاه الثورة مثل

غيره، وروايته بها نقد، علينا أن نلتفت إليه، ولا نضع رؤوسنا في الرمال، ونحاول أن نصحح مسارنا[73].

نجا نجيب محفوظ بروايته من العقاب، لكن نظام ناصر لم ينج من النبوءة التي حملتها «ثرثرة فوق النيل»، ولايزال يشار إليها عند النقاد ومؤرخي الأدب والساسة بأنها «الرواية التي تنبأت بالهزيمة».

ولم يكن الأديب السوداني الطيب صالح إلا صاحب بصيرة أو خيال سياسي بازغ؛ حين وضع نبوءة على لسان بطل روايته الشهيرة «موسم الهجرة إلى الشمال»، والذي راح يُقسم أنه سيفتح أوروبا بإغواء نسائها، وهو الرجل الذي «اتسم اقتحامه لأوروبا، وانسجامه بانسيابية مذهلة، كأول مبعوث سوداني يحقق حلم وصوله إلى لندن، وتوهجت فيه ملاحقة النساء الأوروبيات بهوس جنوني، فتارة تجده يتصدر المنصة خطيبا من أجل اقتصاد إنساني، أو مندداً بالاستعمار. أما شقته فهي خيمة شرقية منمنمة تعتمد استراتيجية الإغراء فيها على البخور وأعواد الصندل المحروق، مضفيا عليها، بإهابه الأسود، الأكاذيب اللذيذة عن الحياة على ضفاف النيل»[74].

ولم تمر سوى عقود قليلة حتى تحققت هذه النبوءة، حين أخذ الوجود الأفريقي في أوروبا يتعزز، ليزحف أصحاب البشرة السوداء من الشوارع الخلفية إلى مؤسسات الدول، والشركات الكبرى، والأندية الرياضية، مستغلين تناقص معدل إنجاب الأوروبيين الأقحاح، وشيخوخة القارة العجوز.

ولم يكن مصطفى سعيد ينتقم مما جرى لـ «عطيل» الأسود على يد ياجو الأبيض في مسرحية شكسبير الشهيرة، بل كان، وهو الذي صرخ «عطيل كان أكذوبة»، يعمل في هدوء لتحقيق نبوءة الكاتب المسرحي الألماني هاينر موللر بهيمنة وغزو الحضارة والثقافة الأفريقية لأوروبا بفضل ضجيجها بالحياة وزخمها الروحي الفياض، الذي سيفرض نفسه على الغرب الذي يموت في بطء، بفعل انهياره الروحي وتفككه الاجتماعي.

وتنبأت رواية «الشمعة والدهاليز» للأديب الجزائري الطاهر وطار، التي نشرت في العام 1992، بالسيناريو السياسي الذي جرى في الجزائر خلال العشرية الدموية، فبطل الرواية الذي ينتمي إلى عشيرة طالما أخرجت أبطالا للثورة الجزائرية، يجد نفسه، وهو الشاعر والباحث الاجتماعي ذو الميول العلمانية

المنادي بعروبة الجزائر والمقاوم لحركة الفرنسة، وسط جماعات «الإسلام السياسي»، لأن القدر أوقعه في حب فتاة تنتمي إلى هذا التيار، فيدخل المساجد ويشارك في مناقشة «الإسلاميين» حول الأوضاع السياسية في البلاد؛ فينفر منه بعضهم لأن خطابه غريب، ويرى المعتدلون منهم أنه من الممكن أن يفيد «الدولة أو الخلافة» الإسلامية، فيعرضون عليه أن يكون وزيرا للثقافة في حكومة يعتزمون تشكيلها، لكنه يتردد في قبول كل ما يعرض عليه، ليجد نفسه منبوذا من الجميع؛ فالحكومة تتهمه بالأصولية، والأصوليون يتهمونه بالعلمانية، والعلمانيون يرون أنه لبس ثوبا غير ثيابهم، وأنصار الفرنسة يحقدون عليه لأنه العربي الأصيل، وتنتهي به الحال، وفي شكل رمزي نسجه المؤلف باقتدار، إلى مواجهة محاكمات سريعة، يطلق فيها جميع خصومه النار عليه فيردونه قتيلا، كأنه يجسد هنا الشعب الجزائري، المغلوب على أمره، الخاسر الأول من غياب الديموقراطية وتفشي العنف[75].

وفي حوار مع وطار حول روايته تلك، يتبين لنا أن نصه كان «نبوءة»، وأنه يعي هذا منذ اللحظة الأولى، فها هو يقول: «وأنا أكتب الشمعة والدهاليز كنت أتحاور مع الكاتب الجزائري يوسف سبتي عن بعض خيوط الرواية، التي هو نفسه بطلها الرمزي، وكان رفيقي اليومي ... واختلفت معه حول نهاية رحلة البطل، وكنت أفضل أن يموت مذبوحا، وكان هو يرى غير ذلك، وأنهيت كتابة الرواية وفقا لما رأيت، وبعد نهايتها، هجم على الصديق سبتي القتلة ليلا في بيته وذبحوه بين كتبه ومؤلفاته وأوراق مشاريعه»[76].

إن الشاعر النمساوي ريلكه لم يكن يمزح حين كان يعتقد أن مهمته الأساسية هي «ربط الماضي السحيق بالمستقبل البعيد»، وفي هذا تكمن قدرة الأدب على إطلاق الخيال. وفي الرواية السياسية خيال سياسي يمكن التقاطه والاستفادة به.

ثامنا: المحاكاة

تعد المحاكاة تصويرا للعالم الخارجي وتمثلا له، وقد انشغل بها الفلاسفة منذ القرون الغابرة، فرآها سقراط متجلية في الرسم والشعر والموسيقى والرقص والنحت، وتحدث عنها أفلاطون على المنوال ذاته، وتعمق أرسطو في تبيانها من خلال كتابه «فن الشعر»، الذي تأثر به فلاسفة مسلمون ومنهم حازم القرطاجني وابن سينا،

الذي قسم المحاكاة إلى: محاكاة تشبيه، ومحاكاة استعارة، ومحاكاة تركيب، ومحاكاة من باب الذرائع[77].

وقد «تعرضت نظرية المحاكاة للاستبدال والدحض في النظريات المختلفة، ونال مبناها تفكيكا ونقضا على يد جاك دريدا - مثلا - في نقضه لمركزية العقل ومركزية اللوغوس. لكن ذلك كله لا يعني، بأي حال من الأحوال، إلغاء الاعتماد على المحاكاة في تفسير وفهم الخيال الأدبي والفني ودفنها إلى الأبد»[78]. فالحقيقة أننا لا يمكن أن نستغني عنها، لاسيما مع انتقال المحاكاة إلى مجالات علمية وواقعية عدة. حتى لو وقفت عند حدود الفن والتخيل، فإنها تشكل جزءا أصيلا من الإبداع الإنساني.

فإلى جانب المحاكاة التجريبية والتقويمية والتعليمية هناك المحاكاة التوقعية، والتي تقوم عادة على نماذج من النظم تسعى إلى توقع النتائج أكثر من تدقيق البيانات. فعلى سبيل المثال، يستخدم بعض الخبراء والباحثين النماذج الاقتصادية دوما لمحاكاة الاقتصاديات الوطنية والعالمية،[79] بما يمكنهم من تحديد اتجاهات التغيرات الاقتصادية المتنوعة، وبالتالي توقع ما يجب على متخذ القرار الاقتصادي أن يفعله في سبيل تعزيز المكاسب وتقليل الخسائر.

وفي المجال السياسي، تقوم نظرية المحاكاة على تقليد أو تشخيص مفتعل عن الواقع الاجتماعي الحقيقي، عبر خلق بيئة مشابهة لبيئة الظاهرة المعقدة التي ندرسها، وبينما لا يكون في وسعنا أن نمسك بتلابيب الظاهرة في الواقع فإن بمكنتنا أن نفعل ذلك في التجربة الافتراضية، أو في المحاكاة، بما يعطي الباحث فرصة قوية لتحليل الظاهرة من مختلف جوانبها[80]، بعد أن أحكم ما يتخيله عن تصرف الطرف الأصلي من خلال مراقبة المقلد أو المحاكي.

وتستعمل أجهزة المخابرات ومراكز وبيوت الاستشارة المرتبطة بمؤسسات سياسية رفيعة هذه الأسلوب؛ فمثلا إذا كانت الدولة (أ) بصدد اتخاذ قرار مهم يؤثر في الدولة (ب)، فبوسع الأولى أن تضع بدائل لرد فعل الثانية عبر محاكاة الأساليب التي يتصرف بها رئيس هذه الدولة، إن كان القرار في يده، بعد جمع معلومات كافية عن خلفياته الثقافية والاجتماعية وطرائق تفكيره ودخائله النفسية وتصرفاته وقراراته السابقة.

وتستخدم هذه النظرية لدى علماء العلاقات الدولية والخبراء الاستراتيجيين، وكذلك في تعليم الطلاب كيفية اتخاذ قرار معين بشأن ظاهرة قد درسوها جيدا؛

فيمكن لخمسة أشخاص مثلا أن يتخيلوا أنهم يؤدون دور متخذ القرار في خمس دول وهمية، بعد أن يتهيأ لهم مناخ يشعرهم فعلا بأنهم زعماء دول وعليهم أن يقرروا برشد وإحكام، في ضوء المعلومات الكافية التي تُوفّر لهم، والأهداف التي يجب أن يصلوا إليها، وفي فترة زمنية محددة.

وقد اتبع طلاب أقسام العلوم السياسية، مثلا، في العديد من الجامعات العربية هذا الأسلوب في الدراسة، فكونوا نماذج للجمعية العامة للأمم المتحدة، والبرلمانات، ومؤسسات الرئاسة، وناقشوا قضايا مهمة، مطروحة في الواقع الفعلي، واتخذوا بشأنها قرارات، وكتبوا تقارير عما فعلوا، فمنحتهم هذه العملية التخيلية في النهاية قدرة على فهم ما يجري ونقده، وتقديم البدائل المهمة للسياسات القائمة.

تاسعا: استطلاعات الرأي

من بين الفوائد التي تحققها استطلاعات الرأي، إلى جانب الوقوف على حقيقة ما يجري، معرفة ما سيأتي، أو على الأقل تحصيل بعض المؤشرات التي تعين على الاقتراب منه، وإمكان التدخل لتطويره وتعديله أو تغييره، أو التصرف على نحو يساعد على تلافي الأخطاء وتجنب المزالق، وذلك اتكاء على ما جادت به الاستطلاعات وأظهرته، إيجابيا كان أو سلبيا.

ولهذا فإن استطلاعات الرأي تعد وسيلة مهمة لصانعي القرار في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية، حيث تعينهم على إصدار قرار رشيد، الأمر الذي من شأنه أن يزيد مصداقية المؤسسة أو المسؤول أمام الجمهور.

ومن ثم فإن الاستطلاعات وسيلة للحاكم كي يقف على مدى رضا المحكومين عن سياساته، وأداة دعاية انتخابية للمترشحين في الانتخابات ببلدان ديموقراطية عديدة، وأداة تسويقية لأصحاب الشركات الراغبين في الوقوف على رأي المستهلكين من السلع التي ينتجونها، وأداة بحثية بالنسبة إلى الأكاديميين الراغبين في تعميق فهم الظواهر التي يتصدون لدراستها، وأداة توعوية بالنسبة إلى عموم الناس المنشغلين بحيازة معلومات عن مختلف القضايا المطروحة.

ويبدأ الاستطلاع بمعرفة «مجتمع الدراسة» الذي جرى تحديده وفقا للهدف من الاستطلاع، فإذا كان مثلا عن المشاركة في الانتخابات، يكون المجتمع هنا هو البالغين

الذين لهم حق الانتخاب، أما إن كان استطلاعا عن الدروس الخصوصية، مثلا، فإن المجتمع هنا يكون الأسر التي لديها أبناء في مختلف مراحل التعليم.

وبعد هذا تأتي مرحلة أخذ عينة تعبر عن المجتمع المدروس تعبيرا صادقا وأمينا قدر المستطاع، سواء أكانت عيِّنة عشوائية بسيطة Simple Random Sampling تعطي كل شخص في المجتمع فرصة متساوية في الظهور في العيِّنة؛ أم عيِّنة عشوائية طبقية Stratified Random Sampling تنفع في تمثيل كل فئات المجتمع غير المتجانس؛ أم عيِّنة منتظمة Systematic Sampling توضع خلالها المفردات في قائمة وتُحدَّد أول مفردة في العينة بطريقة عشوائية، ثم تُختار بقية مفردات العيِّنة بطريقة منتظمة؛ أو عينة عنقودية Cluster Sampling، ويُقسَّم فيها المجتمع إلى مجموعات جزئية ثم تُختار عينة منها عشوائيا، سواء على مرحلة واحدة أو مرحلتين. ولضبط العينات يمكن استخدام أدوات مثل «الأوزان النسبية» و«خطأ المعاينة» و«معدل الرفض»، بما يجعل العينة ممثلة للمجتمع، وبالتالي تعميم نتائج الاستطلاع الذي يُجرى عليها، فيكون بمكنة المستطلعين أن يتحدثوا عن مواقف واتجاهات وسمات المجتمع بأسره في فترة معينة[81].

وإن واكب هذه الاحترازات «تحليل كيفي»، على اعتبار أن الاستطلاع شكل من أشكال التحليل الكمي، وكذلك إجراء مقابلات معمقة، ثم التبصر أو التأمل في معطيات الاستطلاع ونتائجه، فبوسع الاستطلاع أن يمدنا بوسيلة مهمة للتنبؤ، أو يكون بمنزلة عنصر من عناصر صناعة «خيال سياسي» علمي، أو تمهيد لهذا الأمر.

لكن قدرة الاستطلاعات على التنبؤ تتطلب – ابتداء - سلامة هذه الاستطلاعات وتنزيهها عن بعض الأغراض المعوجة، وهي مسألة لا توفرها الاحترازات السابق ذكرها، بل تعتمد على أمور أخرى، منها على سبيل المثال:

(أ) يجب أن تصمم أسئلة استطلاعات الرأي، شكلا ومضمونا، بما يلائم المجتمع الذي يجري فيه الاستطلاع. فبعض الأشكال والمضامين المعدة لمجتمع آخر قد لا تصلح بالضرورة في سياق مغاير، وإن اعتُمد عليها فقد لا تأتي نتائجها دقيقة تساعدنا في التنبؤ بسلوك المجتمع المبحوث واتجاهاته؛ فما يصلح للمجتمعات المنفتحة الحرة التي يشعر أفرادها بالاقتدار السياسي، والذين قد تلقوا تعليما يساعدهم في التفكير العلمي، لا ينفع في مجتمعات منغلقة ومقيدة يفقد أفرادها الثقة في أنفسهم،

وتنمو فيها الشائعات والخرافات، ويعتمد الناس فيها على الثقافة السمعية في تحصيل المعرفة، ويغيب التفكير العلمي بما يجعل أفرادها مفتقرين إلى القدرة على الشك والنقد والتفنيد والتحليل واكتشاف المغالطات المنطقية والرد عليها.

(ب) تدريب الباحثين على استكناه المستقبل، فالقائمون بالاستطلاع هم أناس تكوّنوا في الماضي، وفق معطياته وشروطه ورهاناته؛ وحتى الحاضر الذي يعيشون فيه هو ماض بالنسبة إلى من وما سيأتي في المستقبل، وبالتالي فهؤلاء يسحبون أحيانا معرفتهم بالماضي على المستقبل، بما يخل بدقة النتائج وقدرة المنتج على التنبؤ بالآتي.

(ج) ضرورة أن تكون هناك وسائل ضبط ومراقبة على الاستطلاعات حتى لا تُستخدم، من خلال نتائج محددة سلفا، في تزييف الوعي، بما يؤدي إلى دفع الناس في اتجاه معين يخدم مصلحة الأطراف التي تقف وراء الاستطلاع، سواء كانت السلطة السياسية أو مترشحين في الانتخابات أو أصحاب الشركات. وقد يأتي الضبط المطلوب من قبل المجتمع، وذلك بواسطة مؤسساته وقادة الرأي فيه، والذين يجب أن ينزعوا باستمرار إلى ضرورة أن تكون الأدوات المنهجية للاستطلاعات علمية من حيث الدقة والنزاهة والتجرد والحياد. وقد يأتي الضبط من خلال تشريعات وقوانين تحدد عقوبات على كل من يزيف استطلاعات الرأي، أو يختلق نتائج سواء، بالتزوير أو بطرح أسئلة إيحائية، بغية استخدام النتيجة في تزييف وعي الجمهور.

(د) ضرورة أن تتمتع وحدات قياس الرأي العام بالاستقلال المالي والإداري، وأن تعلن بكل شفافية الجهات التي تمولها عن طريق الهبات المقطوعة والتبرعات المنتظمة. وإذا كان المستطلعون تابعين لوزارة أو حزب سياسي أو شركة خاصة، فلا بد من ضبط الاستطلاع عن طريق الرقابة والخضوع للقانون، علاوة على المسائل المنهجية والشكلية والمضمونية والقواعد المهنية والأخلاقية.

ومن دون شك فإن أخذ هذه الضوابط في الحسبان سيزيد من قدرة استطلاع الرأي على التنبؤ بسلوك المجتمع المبحوث أو المستطلع رأيه، مع الأخذ في الاعتبار أن النتائج هنا لا تعطينا بدقة ما سيأتي في المستقبل المنظور، بل تقربنا منه، أو تكشف بعض جوانبه أمامنا، وبالتالي فهي أفضل، على أي حال، من التقديرات الجزافية والتصورات الاعتباطية عما سيأتي.

عاشرا: القائد المتبصر

من يتابع ما تقذفه المطابع لنا كل يوم يدرك تماما أنه «لا يوجد نقص في الكتب الخاصة بموضوع القيادة، إذ يقدر أحد الإحصاءات عدد الكتب التي يتضمن عنوانها كلمة قيادة بأكثر من مائة ألف كتاب، كما أن أقسام الإدارة والأعمال في المكتبات تعج بهذه الكتب، التي تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا، فبعضها تحليلات تاريخية لقادة عظماء، وأخرى سير ذاتية لشخصيات معينة على قيد الحياة غالبا، كما أن هناك كثيرا من السير الذاتية التي كتبها أصحابها، وهي بشكل رئيس، تتعلق بسياسيين ورجال أعمال ممن اعتقدوا - على الأقل في أنفسهم - أنهم قادة عظماء، وهناك كتب عن مستكشفين، وقادة سياسيين، وعسكريين كبار، ورجال دين، وهم يسعون، بشكل رئيس، من خلال وصف حياتهم وإنجازاتهم، إلى اكتشاف العوامل الحقيقية التي أدت بهم إلى أن يصبحوا قادة عظماء في المقام الأول»[82].

إن عدد الكتب الصادرة عن موضوع القيادة يعكس انشغال الناس بهذا الموضوع، وهو أمر ما كان له أن يكون لولا إدراكهم أهمية القائد، حتى لو في زمن المؤسسات. وهذه حقيقة ناصعة، فقد مارست القيادة دورا حيويا في حياة البشر منذ فجر التاريخ، وطالما أفرط المؤرخون في الحديث عن دور القادة الأبطال[83]، على اختلاف أدوارهم في صناعة مجد الأمم، فرجال الحكم والسياسة الذين أصلحوا وبنوا، والمحاربون الذين انتصروا في المعارك الكبرى، أسهموا في صناعة مآثر هذه الأمم[84]، لكنهم ليسوا وحدهم الذين حققوا هذا، فالعلماء والفلاسفة والقادة الروحيون، أدوا أدوارا أيضا على هذا الدرب الطويل.

وفضلا عن أن القائد الحقيقي يتميز بالتحلي بصفات مميزة في مطلعها قوة الإرادة، والتمثيل الجمعي والإيثار والغيرية، وامتلاك استعدادات فطرية وبدنية وخبرات ومهارات توفرها له تجاربه في الحياة، فمن الضروري أن تكون لديه بصيرة نافذة، تعينه على أداء وظائفه بوصفه منقذا ومخططا وواضع سياسة وحلقة اتصال بين الجماعة والوسط الخارجي، ومشرفا على قواعد الجزاء من الثواب والعقاب، وقدوة ومثلا أعلى للجماعة ومتحملا للمسؤولية، وكذلك بوصفه فيلسوفا، ورمزا للأبوة الجامعة[85].

وبعض القادة لديهم قدرة على إلهام من هم حولهم، وهذه القدرة ليست ميلا فطريا فحسب، فبعضها يمكن تعلمه واكتسابه. وهؤلاء بوسعهم أن يمنحوا الناس

شعورا بالهدف أو الانتماء الذي ليس له علاقة تذكر بأي حافز خارجي أو منفعة يمكن كسبها؛ فـ «الذين يقودون الناس فعلا قادرون على خلق أتباع من الناس مستعدين للعمل؛ ليس لأنه جرت استمالتهم واجتذابهم، بل لأنه جرى إلهامهم. وبالنسبة إلى الذين جرى إلهامهم فإن الحافز على العمل مسألة شخصية في أعماق مشاعرهم، وهم أقل قابلية للاجتذاب بواسطة الحوافز، واحتمال استمالتهم بالحوافز أقل من سواهم. إن الذين جرى إلهامهم مستعدون لدفع الثمن، أو تحمل عواقب الإخفاق، أو حتى المعاناة الشخصية. والقادرون على إلهام الآخرين يحشدون أتباعا من الناس، مؤيدين وناخبين وزبائن وعاملين، يعملون من أجل خير الجميع، ليس لأنه يتعين عليهم ذلك، بل لأنهم يريدون الخير للجميع»[86].

إن القيادة «أمر موجه إلى المستقبل. أمر يتجاوز مضمونه اللحظة الحاضرة، ويرمي إلى تحقيق هدف معين في مستقبل قريب أو بعيد. القيادة ليست قيادة بمعناها التام، إذا كانت مقتصرة على أغراض آنية»[87]، وهذا ما يميز القائد الحقيقي عن ذلك الشخص الذي يقوم بتصريف الأعمال السياسية، أو ينغمس في العمل الروتيني اليومي، ويؤديه كأي موظف كبير من دون أن يرى ما هو أبعد مما تحت قدميه.

وبوسع القائد الملهم، ذي البصيرة، وعميق الإطلاع على وقائع التاريخ وأحداثه، أن يمتلك خيالا سياسيا خلاقا، يساعده على إدارة المواقف والأزمات، صغرت أو كبرت، ويمنحه قدرة فائقة على الإسهام في تخطيط السياسات المحلية والدولية.

وإذا كان من السهل أن نتلمس الطريق سريعا في هذا إلى القادة السياسيين، فإن بعض القادة العسكريين أيضا يؤدون دورا كبيرا في بناء أممهم إن كان لديهم خيال، ولهذا لم يكن مستغربا أن يصدر مايكل لي لاننغ تصنيفه لأكثر القادة العسكريين تأثيرا في التاريخ بقوله:

> «لا شك في أن المبعوثين والديبلوماسيين والمفكرين والفلاسفة قد أسهموا في حركة التاريخ وشكلوا منعطفاته، بيد أنهم لم يتصدروا التاريخ إلا تحت حماية القادة العسكريين الذين عملوا على ضمان بقاء أسلوب الحياة الذي اختاره أولئك الرواد. إن أكثر الزعماء نفوذا في تاريخ العالم لم يأتوا من دور العبادة، ولم تقدمهم ردهات الحكم أو المراكز البحثية، ولكنهم جاءوا من صفوف العسكريين، جنودا وبحارة.

وعلى امتداد الزمن، تمكنت الشعوب، التي حظيت بعظماء القادة العسكريين والمبدعين في المجال الحربي، من تحقيق الازدهار والسيطرة على أراضيها والهيمنة على جيرانها. وقد وجدت الحضارات التي افتقدت القادة العسكريين الأقوياء نفسها مقهورة وخاضعة لغيرها أو معرضة للإبادة التامة. وفي حالات أخرى، لم يكن القادة العسكريون سوى طغاة، استبدوا بشعوبهم، وروعوا أعداءهم»[88].

وربما كان لاننغ هنا متحيزا لما يعرفه ويهواه، وإن كان قوله لا يخلو من منطق، قياسا على تجارب الأمم، لكن في الوقت ذاته نجد أن الأيام طالما منحت الشعوب قادة مدنيين من ذوي البصيرة، كانت لهم من الحكمة وقوة الشكيمة ما جنبتهم العيوب التي تصم أسلوب إدارة العسكريين للحياة المدنية القائمة على التنوع والاختلاف، وتصرفوا طوال الوقت بما يكفي للنهوض بواقع بلدانهم التعيس.

وتتفاوت نسبة مشاركة القائد الملهم في صياغة القرارات واتخاذها من حال إلى أخرى، وهنا يمكن أن نفرق بين مستويات ثلاثة:

1 - حين يكون القائد محتكرا للقرار أو يسيطر على الجزء الأكبر منه.

2 - حين يعمل القائد مع مؤسسات قوية وراسخة وواعية تسهم في صناعة القرار.

3 -ـ حين تتسنى للقائد متابعة حركة الشارع وخطابه بدقة ووعي.

ففي الحالة الأولى تظهر الفروق الكبيرة في التأثير على القرار بين قائد ذي بصيرة وآخر يفتقدها أو لا يتحصل إلا على نزر يسير منها. ولذا يعرف التاريخ قادة تقدموا بأممهم، حتى في ظل نظام سياسي مستبد أو شمولي، وآخرين تخلفوا بها إلى حد جارح وبارح، لاسيما إن كانوا ضيقي الأفق، ومحدودي الاطلاع، وحرجي الصدور، ويتسمون ببلادة المشاعر، وتحركهم غرائزهم، وتسيطر عليهم أنانيتهم المفرطة.

وفي الحالة الثانية تتضاعف فاعلية القرار، ويصبح أكثر إحكاما وأكثر سلاسة في التطبيق أو التنفيذ؛ لأن خيال القائد صار قيمة مضافة إلى التقديرات المدروسة التي صنعتها المؤسسات.

أما الحالة الثالثة فهي غاية في الأهمية، إذ إن قياس نبض الناس أو الوقوف على نتاج «العقل الجمعي» لهم يساعد القائد على صناعة السياسة التي تتجاوب معها

الجماهير، وتمتثل لها، وتتكاتف وراءها، وتسهم عن طيب خاطر في تطبيقها، خاصة إن كانت مصنوعة بعناية، عبر مؤسسات ذات خبرة إلى جانب إلهام القائد.

والقادة المُلهَمون والمُلهِمون في تاريخ البشرية، وإن كانوا عملة نادرة، فإن تعاقب القرون جعل أعدادهم كبيرة، ولا يمكن الإتيان على ذكرهم جميعا، واستعراض تجاربهم مع الخيال السياسي في هذا المقام، ولذا يمكن التقاط بعضهم[89]، ممن يتوزعون على مسارات عدة، القائد السياسي، والقائد العسكري، والثائر الكبير، والسياسي الحكيم، والعالم الثائر.

ها هو ونستون تشرشل (1874 – 1965) الذي يراه البريطانيون أعظم زعيم، بل أعظم رجل مر في تاريخ بلادهم، يعطي مثلا ناصعا على مدى تمتع القائد السياسي بقدرة هائلة على توظيف الخيال في خدمة سياساته، لاسيما أن تشرشل كان فنانا مزدوج الموهبة، فهو رسام وأديب، كتب مذكراته بلغة سردية فياضة جعلت الهيئة القائمة على جائزة نوبل تمنحها له في الآداب.

ولعل بعض المقولات التي أطلقها تشرشل تبين، إن حللناها على نحو دقيق، مدى حضور الخيال في رأسه وهو يفكر في الحياة السياسية، في أوقات سكونها واضطرابها على حد سواء.

فها هو يقول:

«التاريخ سيكون لطيفا معي، فأنا أنوي كتابته».

«إن السياسي الجيد هو ذاك الذي يمتلك القدرة على التنبؤ، والقدرة ذاتها على تبرير لماذا لم تتحقق نبوءته».

«إمبراطوريات المستقبل هي إمبراطوريات العقل».

«سر الحقيقة ليس أن نفعل ما نحب، بل أن نحب ما نفعل».

«الوطن شجرة طيبة لا تنمو إلا في تربة التضحيات وتسقى بالعرق والدم».

«الذكي من لا يرتكب كل الأخطاء بنفسه، بل يترك الفرصة لغيره».

إن هذه المقولات المنتقاة من أقوال تشرشل، الغزيرة، تعطي مؤشرا جيدا على حضور خياله بوصفه قائدا سياسيا كان مولعا إلى حد بعيد بقراءة التاريخ في إمعان شديد، والاستفادة القصوى من عبره وعظاته، وبالتالي امتلك قدرة فائقة على تخيل

ما سيأتي. فكلما كانت تعترضه مشكلات معقدة، قد يشعر غيره أنها بلا حلول، كان يستدعي معرفته التاريخية، ويطرح اقتراحات غير تقليدية، جعلته قائدا عظيما ليس في تاريخ بلاده فحسب، بل في تاريخ العالم بأسره، لاسيما بعد انتصاره في الحرب العالمية الثانية.

لكن خيال القادة المحاربين، وقدرتهم على إلهام من حولهم، لا يقتصر فقط على حالات النصر، بل يمكن للقائد أن يلهم غيره حتى بعد هزيمته، وانهيار مشروعه، لأنه يترك خلفه ما يفيد من يأتون بعده، حين يتفادون كل ما قاد إلى الهزائم، ويحفظون للقائد الذي كان له شرف المحاولة هيبته ومكانته وموقعه في تاريخ بلادهم.

هذه الحالة تنطبق على سيمون بوليفار (1783 - 1830) بطل تحرير قارة أمريكا اللاتينية، الذي تصدى للاستعمار ببسالة، بعد عشرة أجيال من الخضوع لسلطانه الظالم، وتمكن من تخليص عدة دول من بين أنيابه ومخالبه، بفضل عبقريته ومواهبه الاستثنائية وإيمانه العميق بالحرية؛ وقد برع في مجالات الحرب، وأبدع فيها طرقا غير مألوفة؛ وبدا زاهدا في السياسة ومناصبها، مكتفيا بتقديم تصورات حول الحكم والوحدة؛ وفي الأدب؛ كان خطيبا بارعا، وكاتبا موهوبا، تدل على هذا رسائله التي كتبها في عفوية وتلقائية. وقد ألهمت حياته الأديب الكولومبي الحائز جائزة نوبل غابرييل جارثيا ماركيز، فكتب عنها رواية شهيرة عنوانها «الجنرال في متاهة».

والرجل الذي ألهب خيال بوليفار بفكرة الحرية والاستقلال هو أستاذه سيمون رودريغس (1769 – 1854)، الذي علمه كيف يكره الاستعباد ويثور عليه، ونبهه إلى أهميه مطالعة ما كتبه المبشرون بالثورة الفرنسية، من أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو، وأخذ عليه عهدا فوق قمة جبل أفنتينو في روما، خلال جولتهما الأوروبية، أن يكرس حياته من أجل استقلال بلاده.

واقترب بوليفار من نابليون بونابرت نفسه حين سافر إلى فرنسا، وتأثر به كثيرا، وصار مثله الأعلى في مقتبل حياته، بعد أن رأى فيه رجلا مجردا من المطامع والرغبات، وبطلا للحرية والإخاء والمساواة، إلى أن راجع موقفه منه بعد أن تُوِّج إمبراطورا، ورآه يفعل كل ما يتناقض مع مبادئ الثورة.

إن خيال بوليفار السياسي كان يدفعه في طريق المحررين العظام، والقادة الملهمين لشعوبهم، وليس أولئك الذين يبحثون عن المناصب السياسية، ويجعلونها

نهاية لحركة كفاحهم، ثم ينقلبون فيها وبها على كل الأفكار التي آمنوا بها. وفي الحقيقة. «لم يكن لدى أي سياسي من معاصري بوليفار خلال ثورة أمريكا اللاتينية ما كان لديه من نفاذ البصيرة وأصالة التفكير السياسي وقدرته الخلاقة ... وإن كان من بين بعض معاصريه من كانوا يفوقونه في فن الحكم بما يتفق مع واقع ظروف الحياة في ذلك الوقت، فقد كان بفضل إلهامه وإحساسه الباطن أكثر إدراكا للمستقبل منه للحاضر القريب»[90].

ولهذا يصفه الأديب الأوروغوياني خوسيه أنريكي رودو (1871 – 1917)، وهو من أوائل من كتبوا عن بوليفار، بقوله: «كان عظيما في تفكيره، عظيما في عمله، عظيما في مجده، عظيما في محنته، عظيما حتى في إضفاء ثوب من الجلال على ذلك الجانب المظلم الذي لا تخلو من مثله نفوس العظماء. كان في النهاية عظيما في تحمله - في قوة وعزم - تلك الضريبة التي قدر على عباقرة الرجال أن يدفعوها كفارة عن عظمتهم، حين تخلى عنه الجميع، وتركوه يموت وحيدا في مواجهة مصيره المكتوب»[91].

إن خيال بوليفار جعله يوقن بأن موعد الثورة في أمريكا اللاتينية حان، ولذا تخلى عن حياته المرفهة الرخية، وراح يقلق على قدر حلمه الكبير. وقد عرف بوليفار كيف يستكشف أعماق روحه التي امتزجت فيها البطولة بالإحساس الفني التلقائي، وهكذا «بدا منذ اليوم الأول الذي عاهد فيه نفسه على الكفاح فوق جبل أفنتينو، كأنه نبي صاعد إلى لقاء وحي ربه ... كانت روحه من طراز تلك الأرواح التي تكمن في قراراتها طريقة غريبة غامضة للتفكير والعمل تخرج عن دائرة الوعي البشري. هو من نوع أولئك الرجال الذين لا يصدر سلوكهم عن تقدير محكم متزن للأمور، وإنما عن تلك القوة الطاغية النابعة من الغريزة، من تلك الغريزة الفطرية التي تلهم النحل كيف تبني خلاياها بنظام لا نكاد نرى نظيرا لإحكامه وإتقانه، مع أنه لا يخضع لقوانين المنطق الإنساني المتعارف عليها، وهكذا نرى انتصاراته الرائعة لا تقوم على ذلك التقدير الواعي للأمور، وإنما كان يكفيه فيها الإحساس المفاجئ الذي يشبه ومضة الوحي في النفوس المؤمنة، ثم التنفيذ السريع الذي لا يتوقف أمام دواعي الحذر والتلبث. أما في الهزيمة فنحن نراه وقد تزايدت شخصيته ضخامة وعظمة كما لم نر في أي بطل آخر من أبطال التاريخ.

وكلما زادت فداحة الانكسار وشدته ولد ذلك في روحه قوة جديدة قادرة على مواجهة المحنة والصمود لها»[92].

إن ما كان يدفع بوليفار إلى أن ينتصر على هزائمه هو خياله الجامح، الذي طالما ألهم من حوله، وجعله يتمكن على رأس خمسمائة رجل فقط، وبعد سلسلة من الهزائم، ومطاردته من سلطات تطلبه كي تحاكمه، أن يقوم بعمل عسكري جبار استغرق مائة يوم، جعله يحمل فيما بعد لقب «محرر القارة» حين هبط من غرناطة الجديدة (كولومبيا) إلى قصر الحاكم الإسباني في كراكاس (عاصمة فنزويلا)[93]. وربما هذا الخيال الواسع الذي خلفه بوليفار خلفه هو الذي جعل رجلا يأتي بعده بأكثر من قرن ونصف القرن، وهو تشي غيفارا، يحلم بأن يتمكن مع حفنة من الرجال من تخليص أمريكا اللاتينية من يد الإمبريالية الأمريكية.

لقد كان بوليفار مبدعا في طرقه الحربية، ولم يكن هذا ممكنا إلا لرجل أوتي قدرا عاليا من الخيال، فهو «لم يحارب قط كما حارب القادة العسكريون الأوروبيون، وهو لم يستلهم من أبطال التاريخ قبله شيئا إلا بعض العناصر المتفرقة المتناثرة في التجارب الإنسانية السابقة، من دون أن يضع نصب عينيه تجربة بذاتها يتخذ منها نموذجا له، وهو بعد لم يخلف لنا صورة تشبه أيا من صور الأبطال السابقين ... وقد كان يستخدم أساليب عسكرية لا تقوم على علم بفنون الحرب، وإنما على الإلهام الغريزي الذي كثيرا ما يكون أقدر على الحركة من التخطيط العلمي المنظم»[94].

وكان بوليفار يملك قدرة على النبوءة، وهو ما يدل عليه الخطاب الذي ألقاه في جامايكا في العام 1815، بينما كان الغموض والشكوك تلف ثورة التحرير التي أطلقها. ففي هذه الرسالة تنبأ بمصير كل شعب من شعوب أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية، فرأى أن شعب تشيلي سينعم بحياة هادئة مستقرة، وأن شعب الأرجنتين سيقع تحت وطأة نظام مستبد غاشم.

وفي السياسة، كما في الحرب، انطلق خياله في اتجاهين: تمكين الشعب من القرار، ووحدة الشعوب الناطقة بالإسبانية. ففي الأولى اقترح «سلطة انتخابية» تقوم على أن ينتخب جمهور الناس عددا من بينهم تصل نسبته إلى عشرة في المائة، على أن يضطلع هؤلاء بمهمة اختيار موظفي أجهزة الدولة، وبذا تبقى السلطة التنفيذية خاضعة لسلطة الشعب. وفي الثانية كانت الظروف السياسية،

والعقبات الجغرافية، ومصالح المتحكمين في هذه الشعوب، تمثل عائقا كبيرا حال دون تحقيق الوحدة، لكنها ظلت طوال الوقت حلما يراود كثيرين، يتتابعون عبر السنين إلى وقتنا هذا.

ولبوليفار عبارات تضج بالحكمة والخيال في آن، هي خلاصة تجربته الحربية والسياسية وبراعته الأدبية، من قبيل[95]:

«الذي تأصلت فيه روح العبودية لا يمكن أن يقدر الحرية الصحيحة حق قدرها. فهو يتملكه الهياج والرغبة في التخريب إذا وقعت الفتنة، فإذا فرض عليه إرهاب السلطة فإنه يخضع ويستكين».

«إذا لم يتوافر الاستقرار لأي مبدأ سياسي فإنه لا بد أن ينتهي إلى الفساد، ولا يلبث أن ينهار من أساسه».

«الذي يريد أن يلتزم الحق في الحكم على الثورات وعلى الرجال المضطلعين بها فإن عليه أن يراقبها من قريب، ثم يحكم عليها من بعيد».

ولعل ما قاله بوليفار وهو يضع نفسه في مقارنة مع زعماء تاريخيين يشي بأن خياله كان ممتلئا بحلم عظيم له ولبلاده، فها هو يقول: «لست نابليون، ولا أود أن أكونه، ولست أريد أن أقلد يوليوس قيصر، وأولى بي ألا أسعى إلى تقليد أيتوربيدي [هو طاغية أعلن نفسه إمبراطورا للمكسيك بعد استقلالها عن إسبانيا]، ولست أكتمك أنني أعتبر هذه الأمثلة أقل مما يستحقه اسمي من مجد».

وعلى النقيض تماما من قائدين تبصرا في الحرب والنزال، نصرا وهزيمة، هناك قائدان اتجهت بصيرتاهما إلى الحلم والسلم، وهما المهاتما غاندي (1869 - 1948) ومارتن لوثر كينغ (1929 - 1968).

فالأول وهب حياته لـ «الحقيقة» و«اللاعنف» وطور تصورات عن «المقاومة السلبية» وضعها الأديب الروسي ليو تولستوي لتكون أكثر كفاية وكفاءة إلى ما سماها «الساتياغراها»، وهي أكبر حملة عصيان مدني قومية في التاريخ الإنساني، وهي إن كانت في الأساس قد قامت ضد الاحتلال الإنجليزي للهند فإنها أثرت تأثيرا بالغا، بعد رحيل غاندي في العام 1948، في حركات تحرير أخرى مثل «حركة الدفاع عن الحقوق المدنية الأمريكية» و«حركة تضامن البولندية» وثورة «سلطة الشعب» في الفلبين التي أطاحت بالدكتاتور ماركوس.

فذلك الرجل المسالم البسيط استطاع أن يجمع الهند على كلمة واحدة على الرغم من تعدد ثقافاتها واختلاف ملل أبنائها، بشكل يجعلها أقرب إلى كونها دولا مختلفة لا دولة واحدة، فكانت مهمة توحيدها ضربا من الخيال، ولم يكن هذا ممكنا لو كان غاندي نفسه يفتقد أو يفتقر إلى مثل هذا الخيال، وتلك البصيرة التي جعلته يواجه المستحيل، ففي «غمرة فشله الذريع، واستحالة اللجوء إلى أحد طلبا للمساعدة، كان مهيأ للتحول الداخلي في رحلة طويلة لاكتشاف الذات. وقد وفر له الحظ خوض غمار هذا التحدي»[96].

ويحكي غاندي نفسه واقعة جرت في الطفولة تدل على ما سكن خياله في سن مبكرة، وظل يؤثر فيه طوال حياته، فيقول: «أذن لي أبي بمشاهدة مسرحية تؤديها إحدى الفرق، وقد سلبتني لبي، فلم أمل أبدا من مشاهدتها.. ومن المؤكد أنني أديتها لنفسي عددا لا حصر له من المرات، وقد كنت أسأل نفسي ليلا ونهارا، ولماذا لا نكون جميعا صادقين مثل هاريش تشندرا، وكانت أفضل قيمة غرستها داخلي المسرحية هي التمسك بالحقيقة وخوض جميع المحن التي مر بها بطلها، لقد آمنت بالقصة تماما، وغالبا ما كانت الفكرة ككل تدفعني إلى البكاء، ويخبرني عقلي بأن تشندرا لا يمكن أن يكون شخصية تاريخية، بيد أنه يمثل حقيقة حية»[97].

والخيال السياسي عند غاندي كان مرتبطا بالروحانية والسعي وراء الحقيقة، والإصرار عليها أيا كانت المتاعب، وهنا يقول في مذكراته: «إن الهدف الذي أرغب في تحقيقه، والذي كنت أسعى وأتوق إلى تحقيقه، على مدار هذه الثلاثين عاما، هو إدراك الذات، فأرى الإله وجها لوجه، وأنال الخلاص، فأنا أحيا وأعمل لتحقيق ذلك الهدف، وكل ما أقول وأكتب، وكل المغامرات التي أقدمت عليها في مجال السياسة موجهة إلى تحقيق الغاية نفسها، لكن انطلاقا من إيماني بأن ما ينطبق على الفرد، يمكن أن ينطبق على الجميع، لم أقم بتجاربي سرا، بل علانية، ولا أعتقد أن تلك الحقيقة تحط من قيمتها الروحانية، فهناك بعض الأمور بين العبد وخالقه لا يعلمها سواهما، وتلك الأمور لا يمكن البوح بها، أما الخبرات التي أعتزم روايتها فلا تتعلق بمثل هذه الأمور، إنها خبرات روحانية، أو دعنا نقُل أخلاقية، فالمبادئ الأخلاقية جوهر الدين»[98].

وربما كان خيال غاندي ينطلق نحو حلمه البعيد وهو يسير على قدميه خمسة عشر كيلومترا يوميا في شوارع لندن، وقت أن كان يدرس القانون هناك، فقد «كان

يلتمس في المشي هدوء الروح، بمقدار ما كانت روحه الهادئة الكارهة العنف تدفعه إلى سير تقوده عينان مفتوحتان على الداخل والخارج معا. ربط ذلك الشاب الناحل، البسيط اللباس، بين المشي وأغراضه السياسية التي اتخذت من المسيرات الجماهيرية الطويلة أداة لها بدءا من العام 1913 وما تلاه. واستعار غاندي من عادة المشي ثلاثة أبعاد على الأقل: الاعتماد على العمل العضلي، إذ الإنسان عامل في خدمة ذاته؛ ورفض السرعة الصادرة عن الآلات؛ وتوليد إرادة التغيير، إذ في مشي الجموع ما يقضي على العطالة وبلادة الروح. عبّر غاندي بفعل المشي عن منظور بسيط للحياة، وعن بساطة فاعلة لها أغراض سياسية. فما حلم به في العام 1920، وهو استقلال الهند، أنجزه مشيا بعد أقل من ثلاثين عاما»[99].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام: كيف لرجل روحاني على هذا النحو أن يمارس دورا سياسيا عظيما، بل ويلهم كثيرين على هذا الدرب؟ هنا يجيب عباس محمود العقاد: «إذا قلنا إن غاندي لم يكن سياسيا فنحن لا نريد بذلك أنه كان دون السياسيين في ملكات عقله، ولا أنه كان مفتقرا إلى الدهاء الذي تقوم عليه السياسة، فإنه لم يكن خلوا من الدهاء، ولم يكن مقصرا عن الساسة في ملكات العقل والسليقة، ولكنه لم يكن سياسيا؛ لأنه كان يعمل في سياسة قومه بأسلوب غير أساليب الساسة، بل غير أساليب الدعاة الشعبيين في أكثر الأحيان. كان يعمل في السياسة بأساليب القديسين»[100].

وتبدو هذه النقطة لافتة إلى حد بعيد، إذ يعود العقاد ليفصل فيها بعد أن وجد أنها بحاجة إلى شرح مستفيض، إذ كيف يمارس القديس السياسة، وهي فن الممكن، أو «اللعبة القذرة»؟ وهنا يواصل:

«قد يقال: وما للناسك الجاد في نسكه وللسياسة؟ إنه غريب عنها وهي غريبة عنه... عليه أن يعتزلها مع الدنيا، وأن يدع للناس أمر دنياهم يدبرونه على هواهم، وينجو بروحه وضميره من هذا الزحام، إلى صومعة من صوامع الوحدة والقنوت. وهذه حقيقة تقال وتسمع في سيرة غاندي وأمثاله. ولكنها حقيقة ناقصة؛ لأنها حقيقة من جانب واحد، وهو الجانب الذي يملكه غاندي ويختاره، من دون الجانب الذي يساق إليه على الرغم منه، وهو قيادة الهند بأجمعها في طريق الخلاص. إن الهند لا تنفعها إلا زعامة واحدة: هي الزعامة التي تخاطب روحها وتنفذ إلى صميم

وجدانها. إن زعامة الساسة الذين ينغمسون في الدنيا تضلها وتؤذيها وتثير فيها الريبة وسوء المظنة. فلم تخلق لها زعامة أصلح من زعامة الرجل الذي لا يستراب في مقاصده ونياته، وهو الرجل الناسك المقبل على عالم الروح. فالهند لا تترك غاندي إذا تركها. وهو إذا تركها كان أقل من غاندي وأصغر؛ لأنه يؤثر خلاصه على خلاصها، وينظر فيما يريحه ولا ينظر فيما يريحها. وإنما يكون ترك الزعامة تضحية عندما تكون الزعامة كسبا وجاها لصاحبها، فيقال: إنه ضحّى بالكسب والجاه في سبيل العزلة الروحانية»[101].

إن تميز الخيال السياسي لغاندي عن كثيرين، بل عن الأغلبية الساحقة من الساسة، هو إدراكه إمكانية المزاوجة بين السياسة والأخلاق، ليس على مستوى التأمل والتمني والتنظير فحسب، بل، وهذا هو الأهم، على مستوى التطبيق والممارسة. ومن ثم حل، وبطريقة عميقة وراسخة ولافتة، معضلة التناقض بين الاستجابة لشروط الواقع ومحاولة تغييره برؤى وأساليب لا تتجاهل القيم السامية والمبادئ الرفيعة، ولا تجهل دور الطاقة الروحية والأخلاقية في تغيير واقع مادي.

ويقول العقاد: «وقد تناقض النسك والحصافة في رأي أكثر الناس، بل قرنوا - قديما وحديثا - بين الإعراض عن الدنيا وانخلاع العقل والشعور، كأنهم - لإكبارهم متاع الدنيا - لا يصدقون أن أحدا ينصرف عنها وله حظ من العقل الحصيف. ولكن غاندي على التخصيص كان نقضا بارزا لهذا التناقض المزعوم، فقد كانت له حصافة وكان له دهاء، وكان من الأذكياء المعدودين، وإن لم يكن من المعدودين بين أعاظم المفكرين. فقد يأتي بين أعاظم المفكرين في الصفين الثاني أو الثالث. وقد يأتي في الصفين الثاني أو الثالث أيضا بين أعاظم الساسة وخطباء الجماهير. ولكنه بين جبابرة الروح في الرعيل الأول لا مراء. وبهذه القوة الهائلة فيه قد استطاع ما لم يستطعه أحد في الصف الأول من صفوف المفكرين، أو صفوف الساسة والخطباء»[102].

ولعل ما أنهى به غاندي مذكراته يضيء جانبا مهما وعميقا من خياله السياسي، إذ يقول: «لا يمكن لمن يطمح للوصول إلى الحقيقة أن يعتزل أي مجالات من مجالات الحياة، ولهذا دفعني إخلاصي للحقيقة إلى مجال السياسة.. من المستحيل التوحد مع جميع الكائنات الحية من دون تطهير الذات، ومن دون تطهير الذات يظل الالتزام

بقانون الأهيمسا(*) حلما زائفا.. ولأن الطهر ينتقل بسرعة إلى الآخرين، يؤدي تطهير الذات بالضرورة إلى تطهير الوسط المحيط بها»[103].

لقد تخيل غاندي في طفولته المبكرة دوره، حين فاضت مشاعره، وانقدح عقله، ثم آمن تدريجيا بأن ما يحققه كفرد في وسعه أن يحققه للجماعة، حتى لو اتسعت لتكون شعبا بحجم الهند على تنوعه الشديد، ولولا هذه البصيرة النافذة ما تحقق لبلاده ما حلم به من استقلال ووحدة.

ولم يقف إلهام غاندي عند الحركات السياسية، بل امتد إلى قضايا البيئة، فأفكاره كان لها تأثير عميق في الحركات والأحزاب التي تنادي بنقاء البيئة وعدم الإضرار بتوازن الطبيعة، وفي مطلعها أحزاب الخضر في أوروبا، ووعي بيئي لدى قطاع عريض من الشعب الهندي نفسه[104].

ولهذا ليس من المستغرب أن يقول أحد المتيمين بهذا القائد القديس: «سينظر المؤرخون في المستقبل، كما أعتقد، إلى القرن العشرين ليس بوصفه العصر النووي، بل على أنه عصر غاندي»[105].

أما مارتن لوثر كينغ فقد وظف خياله السياسي الباذخ لتحرير زنوج الأمريكيين من العبودية أو الاضطهاد والتمييز، حين لم يذعن لدعوات الاستسلام التي وجهها البعض إليهم، مثل بوكر تي واشنطن Booker T. Washington الذي دعا الزنوج إلى أن يستكينوا ويدعوا الزمن يصلح ما فسد، وكذلك دعوة دو بويز Du Bois للعشر الموهوب من السود بأن ينهض إلى العمل بكل همة، ويشدوا وراءهم بني جلدتهم، ورأى أنها مجرد تخطيط يفتح الطريق لصفوة أرستقراطية كي تفوز بنصيب الأسد، بينما يتعثر خلفهم التسعون في المائة من غير الموهوبين. كما لم ترق لكينغ دعوة ماركوس غارفي Marcus Garvey للزنوج بأن ينتصروا على شعورهم بالنقص، ويحزموا حقائبهم عائدين إلى أفريقيا، موطنهم الأصلي، برؤوس مرفوعة واعتداد بجنسهم[106].

كان لديه حلم مختلف تماما، وهو التحرير الكامل، وتجسد حلمه هذا في العبارة التي أطلقها أمام النصب التذكاري للرئيس إبراهام لينكون (1809 – 1865)،

(*) الأهيمسا، كلمة سنسكريتية، وتعني، وفق الديانة الهندوسية والبوذية والجاينية، تجنب العنف وكف الأذى عن الآخرين. [المحررة].

الذي أعلن تحرير الزنوج في الولايات المتحدة في العام 1865، وتقول: «أحلم اليوم بأن أطفالي الأربعة يعيشون يوما في شعب لا يكون فيه الحكم على الناس بألوان جلودهم، ولكن بما تنطوي عليه أعمالهم».

ولأن خياله السياسي ذهب أبعد كثيرا مما كان معروضا عليه من حلول جزئية، لم يكتف بفكرة التمثيل الرمزي للزنوج في الوظائف العامة الكبرى والمواقع والمناصب الأمامية في الجهاز البيروقراطي، كدليل أو إشارة إلى التقدم نحو حصولهم على حقوق المواطنة، ورأى أن هذا الأسلوب ينحرف بالزنوج عن غايتهم الرئيسة، وهنا يقول: «يمكن إرضاء الملونين بأن يعين من بينهم قاض هنا، ومدير أعمال هناك، وآخر في مركز يؤهله لمنصب وزير، وطالب يلحق بإحدى الجامعات، ولو احتاج الأمر إلى أن يحرسه رجال الجيش، وإلحاق ثلاثة أطفال من السود بالمدارس الثانوية في مدينة كبرى... إلخ، كل تلك النماذج كانت تقدم تضليلا للزنوج باعتبارها رمزا على مساواتهم بالبيض، وللتستر على التمييز العنصري القائم فعلا... إن النضال المرير الذي ظل قائما لعشرات من السنين، عندما بلغ الذروة لم يسفر إلا عن قدر محدود من النجاح، ولم يتقدم إلا وشيكا»[107].

وتمسك كينغ بمبدأ التحرير الكامل للسود، مستفيدا من التصريح الذي أدلى به الرئيس كيندي في 11 يونيو 1963، قبل اغتياله ببضعة شهور، من أن الولايات المتحدة «تواجه مشكلة أخلاقية، قديمة قدم الكتاب المقدس، وواضحة وضوح الدستور الأمريكي، ألا وهي الاعتراف بأن من حق جميع الأمريكيين أن يتمتعوا بنفس الفرص وبنفس الحقوق.. والذين لا يعترفون بهذا الحق لا يرجى لهم إلا المتاعب والعار، أما الذين يعملون بشجاعة، فإنما يعترفون بحقيقة واضحة لا مناص منها»[108].

وانطلق كينغ من أن «الشعب المضطهد لا يمكن أن يبقى مضطهدا إلى الأبد، والتعطش إلى الحرية لا يلبث أن يثبت وجوده»[109]، واختار النضال السلمي لرفع هذا الاضطهاد، قائلا: «أمامنا الطريقة الفضلى، وأعني بها طريقة المحبة والاحتجاج السلمي.. ولولا قيام هذه الفلسفة - أي فلسفة العمل السلبي المباشر، لكان كثير من الشوارع في أرض الجنوب غارقة في الدماء»[110]. فـ «الجندي النظامي عليه أن يفحص بندقيته، وأن يحرص على نظافتها، بينما على الجندي المسالم أن يحرص على طهارة قلبه ونقاء ضميره، وأن يكون شجاعا مؤمنا بالعدالة»[111].

وأمعن كينغ النظر في الأمور التي تجري حوله، فوجد أن الذين نادوا بحمل السلاح في وجه الرجل الأبيض لم ينجحوا في حل مشاكلهم، لأنهم اكتفوا بالتهليل، واستسلموا لضجيج الحماس الأجوف، من دون أن تكون لديهم رغبة فعلية في أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة، أو يخوضوا غمار معركة خاسرة، ومن دون أن يقوموا بما عليهم من واجب صوب الاتصال بالكتل الجماهيرية بطريق مباشر، ليدفعوها إلى العمل، بحيث تلفت انتباه أغلبية الشعب. وهنا يقول كينغ: «علينا أن نلاحظ أن المحافظين الذين ينصحون بالتريث، والمتطرفين الذين يطلبون منا أن نهاجم العالم بالسوط، يقفان على طرفي نقيض، ولو أن بينهما نقطة تشابه عجيبة، فكلاهما فاشل، لأنهما لم يصلا على قلوب الجماهير المتعطشة للحرية»[112].

وبذلك حقنت دعوة كينغ أنهارا من الدماء كان يمكن أن تسيل في شوارع المدن الأمريكية، واقترب من تحقيق أهدافه النبيلة بأقل قدر ممكن من الخسائر في الأرواح، فسياسة عدم الاعتداء «أثارت الارتباك بين السلطات التي هاجمتها، وشلت كيانها، وبدلا من أن تقمع تلك السلطات حركة التمرد بوحشيتها المعتادة، أصبحت سلبية القوة إلا في الظروف التي يتاح لها العمل فيها في الخفاء بعيدا عن الرقابة.. وبدت السلطات أشبه ما تكون بالسجين الهارب الذي وقع تحت شعاع النور الكاشف»[113].

ومن ثم فقد استعملت الشرطة الرصاص على أضيق الحدود خلال حركة الاحتجاج التي نظمها الزنوج في العام 1963، وأمسكت عن الإفراط في ضربهم بالهراوات والعصي، لأن أنظار العالم كانت متجهة إلى حيث تدور المواجهات أيامها، ورأى الجميع كيف خاض الزنوج المدربون على تطبيق مبدأ عدم الاعتداء المواجهة وهم مؤمنون بأن العمل السلمي قادر على هزيمة خصمهم المدجج بالسلاح، ولأن مئات الآلاف من الزنوج تجرأوا لأول مرة في التاريخ على أن يضعوا عيونهم في عيون الرجل الأبيض من دون أن يطرف لهم جفن.

ورسخ كينغ مبدأه هذا حين ألقيت قنبلة على منزله في 30 يناير 1956 بينما هو يخطب في أنصاره، مما كاد يتسبب في مقتل زوجته وابنه. فيومها تجمع السود عند منزله وهم مدججون بالسلاح وعلى أهبة الاستعداد للانتقام، وأصبحت مدينة مونتغمري على حافة الانزلاق إلى حرب أهلية، فما كان من لوثر إلا أن هدأ من روع

الغاضبين، حين خاطبهم: «دعوا الذعر جانبا، ولا تفعلوا شيئا يمليه عليكم الشعور بالرعب، إننا لا ندعو إلى العنف».

ناضل كينغ من أجل الحقوق السياسية للزنوج، فخطب خطبة شهيرة أمام نصب الرئيس الأمريكي الراحل إبراهام لينكون هاجم فيها الحزبين الجمهوري والديموقراطي وردد صيحته الخالدة: «اعطونا حق الانتخاب»، واستجابت السلطات له، فتم تسجيل خمسة ملايين زنجي بجنوب الولايات المتحدة في جداول الانتخابات. وفي أواخر العام 1962 شرع كينغ في قيادة سلسلة من المظاهرات السلمية في برمنغهام واجهتها السلطة بعنف وبقرار يمنع كل أنواع الاحتجاج والمسيرات الجماعية والمقاطعة والاعتصام، فتحدى كينغ هذه الإجراءات بتنظيم مظاهرة سار خلفه فيها ألف متظاهر وهم يرددون: «الحرية حلت ببرمنغهام»، فما كان من الحكومة إلا أن اعتقلته وأودعته زنزانة انفرادية، ليحرر خطابا ينطوي على فلسفته في النضال اللاعنيف، أصبح فيما بعد من أهم المصادر الأساسية لحركة الحقوق المدنية.

وكان هذا العام فارقا في حركة الحقوق المدنية للزنوج، وكما يقول كينغ نفسه: «لم يحدث إطلاقا في تاريخ أمريكا أن لجأت الجماهير إلى الشوارع والميادين، واقتحمت قدس أقداس بيوت المال، وأبهاء مباني الحكومة ذات الجدران الرخامية، ليعبروا عن احتجاجهم وضيقهم بالظلم الذي يرزحون تحته»[114]. ثم يبين كيف كان الاحتجاج عارما وشاملا: «قام الزنوج عن بكرة أبيهم مرة واحدة، فأغلقت الطاهية مطبخها وخرجت إلى الطريق، ودفع جون باب مصعده والتحق بالمتظاهرين. وشد بيل مكابح اللوري وانطلق نحو بني جنسه، وقام القس آرثر بالمصلين عبر الطريق، عندما قبض عليه أقام الصلاة في السجن»[115].

وتراءت لكينغ فكرة إتاحة الفرصة للأطفال للمشاركة في النضال ضد التمييز العنصري، فدفع الآلاف منهم إلى مقدمة المظاهرات، في مواجهة رجال الشرطة وخراطيم المياه والكلاب المسعورة، و«كان الأطفال السود يركضون ساخرين خلف رجال الأمن مطالبينهم بأن يقبضوا عليهم، ومع أن هؤلاء الصبية كانوا على استعداد لأن يسجنوا مثل الكبار تماما، إلا أنهم كانوا يعلمون كذلك أن السجون اكتظت بالسود، بحيث لم يعد بها مكان لنزيل من النزلاء»[116]. ولما تعاملت الشرطة بوحشية معهم ولم تراع حداثة أعمارهم، خلفت وراءها صورا تعج بالعار، واشمأزت الملايين

وهي ترى صور الكلاب التي تنهش أجساد الصغار، فوقعت سلطات المدينة في أزمة شديدة، وباتت أكثر مرونة حيال التفاوض حول حقوق السود. والتقط كينغ الخيط فأعلن أن بني جلدته لن يكفوا عن الاحتجاج، لكنهم على استعداد للتفاوض من موقع قوة، فلم تجد السلطات بدا من تشكيل لجنة للتفاوض مع زعماء الزنوج، وانتهت المفاوضات الشاقة بالموافقة على برنامج تدريجي لإلغاء العنصرية، إلى جانب الإفراج عن المتظاهرين المعتقلين.

ولما حاول بعض المتعصبين البيض إفشال هذا الاتفاق بإلقاء قنابل على زعماء الزنوج، انفتح باب واسع للعنف، فانفجر الشبان الزنوج في غضب شديد، وواجهوا الشرطة بقوة، وحطموا عشرات السيارات، وأشعلوا النار في بعض المتاجر، مما اضطر الرئيس جون كيندي إلى إعلان حال الطوارئ في صفوف القوات المسلحة. وهنا جاء دور كينغ ليهدئ من سورة الغضب، فقام بجولة ناجحة على عدة مدن، ليقف على وجهة نظر الزنوج فيما يجري، ويطلب منهم ضبط النفس، والتركيز على النضال المدني.

وعلى الرغم من أن رجلا متعصبا يدعى جيمس إرل راي أطلق النار على كينغ في الرابع عشر من فبراير في العام 1968 فأرداه قتيلا، بينما كان يستعد لقيادة مسيرة زنجية تؤيد إضراب جامعي القمامة، فإن حلمه وخياله السياسي الفياض ألهم حركة الزنوج من بعده، فتقدمت في الحياة الاجتماعية والسياسية الأمريكية، حتى تمكن أحد السود، وهو باراك أوباما، من الوصول إلى البيت الأبيض، كرئيس للولايات المتحدة، بعد اغتيال كينغ بأربعين سنة.

وهناك من القادة من امتزج فيه الفكر بالحركة، وحددا وجهة خياله السياسي. ويمكن أن نضرب مثلا هنا بحالة جمال الدين الأفغاني (1838 - 1897)، الذي لم يكن محاربا بالسيف ولا بالبندقية مثل بوليفار، ولا في موقع سياسي رسمي مثل تشرتشل، ولا استُنبطت أفكاره من حركته مثل المهاتما غاندي، بل كان يفكر وهو يتحرك، ويتحرك وهو يفكر، غير عابئ بتدوين ما يقوله، ولا بخطر ما يفعله، على قدر ما فيه من جسارة.

وقد «كان الأفغاني يريد أن يكون رجل نظر، حكيما من الحكماء العظام، ولكنه في الواقع كان مشغولا بالعمل، راغبا في التغيير بكل الوسائل المتاحة له، من تدبير

الثورة إلى التحريض عليها، إلى الكتابة في الصحف، حتى الدردشة في مقاهي مصر، وتحت سماء الأستانة»[117].

ويُنظر إلى الأفغاني باعتباره «داعية إسلاميا وفيلسوفا ومعلما، وهو المحفز الرئيس للقومية المبكرة في مصر وبلاد إسلامية أخرى، بعد أن دعا إلى العقلانية للمستنيرين، والإسلام الراشد للجماهير مع معارضة للاستعمار البريطاني»[118].

وبذا كان للأفغاني موقفان، الأول هو موقف المدافع عن تراث المسلمين والتصورات الدينية التقليدية، نظرا وعملا، والتي ترسخت خلال العقود الأولى للإسلام في زمن الرسول والخلفاء الراشدين. والثاني هو موقف الرجل العصري الذي تجري على لسانه وبسن قلمه لغة علمانية إلى حد ما. ومن جماع الاتجاهين دافع إلى حد ما عن الحرية، حرية الأمة وحقها في مقاومة الاحتلال والاستغلال، وإلى حد واسع عن العدالة، فتعامل معها دينيا على أنها السير على الطريق المستقيم، واجتماعيا على أنها إنهاء الاستغلال، فاهتم بمصير الفلاح، وندد بأنانية الأثرياء[119].

وفي الحرية قال أقوالا كثيرة منها: «العبيد هم الذين يهربون من الحرية فإذا طردهم سيد بحثوا عن سيد آخر». وفي مقاومة الظلم قال: «أعجب من الفلاح الذي يشق الأرض بفأسه، كيف لا يشق بها رأس ظالمه».

وقد كانت خطبه النارية ومقالاته الصحافية هي تركته الأساسية، ولذا يعتبر، على الرغم من أنه كان صاحب شخصية فذة ومحورا للعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، من رجال السياسة قبل كل شيء، ونظر إليه محبوه نظرتهم إلى وطني كبير، ونظر إليه خصومه على أنه مُهيج خطير، ويتفق الجميع على أنه أول فصل من فصول الحركات الإسلامية المعاصرة، ومصدر الإلهام للمسلمين في موقفهم من الحياة العصرية والتجديد، وصاحب التأثير الأكبر في الحركات التحررية والدستورية التي قامت بعده في الدول الإسلامية»[120].

وتمثلت منابع إلهام الأفغاني في الاطلاع على تاريخ المسلمين وفكرهم عبر الحقب المتعاقبة، والإلمام الواسع بأفكار الأوروبيين وشؤونهم. وغذى هذا خياله ليس في اتجاه إنتاج أفكار مبدعة، فهو في الحقيقة لم يؤلف سوى كتابين صغيرين لا وزن ثقيلا لهما، إنما في الحركة، حيث نفخ في أوصال الحركات الوطنية المحلية في كل قطر إسلامي، وصولا إلى فكرة «الجامعة الإسلامية». التي قال عنها: «لا جامعة لقوم لا

لسان لهم، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مآثر رجالهم».

وهنا يقول أحمد أمين عنه: «كم من الناس علموا أكثر مما علم، وقرأوا أكثر مما قرأ، ورطنوا أكثر مما رطن، ولكن لم يكن لأحد منهم شخصية كشخصيته: ذكاء متوقد، وبصيرة نافذة، وتوليد للأفكار والمعاني من كل ما يقع تحت سمعه وبصره، واستقصاء للفكرة حتى لا يدع فيها قولا لقائل»[121].

وقد كان الأفغاني «يجمع شتات العالم الإسلامي في شخصه، وعبر عن المشكلات والصعاب التي عاناها المسلمون في زمنه، وراح يعمل ضد تلك الصعاب بطاقة هائلة، وإذ كان أدرى المسلمين بمصيبة إخوانه المسلمين، فقد راح يحضهم بحماسة وثابة نارية على محاولة فهم وضعهم، والعزم على إصلاحه وتغييره، مؤكدا أن إبعاث الإسلام هو مسؤولية المسلمين أنفسهم، لا مسؤولية الخالق، فمستقبل المسلمين لن يكون عظيما إلا إذا جعلوه عظيما»[122].

ولهذا كان يقول: «لن تنبعث شرارة الإصلاح الحقيقي في وسط هذا الظلام الحالك إلا إذا تعلمت الشعوب العربية وعرفت حقوقها، ودافعت عنها بالثورة القائمة على العلم والعقل». وكان يقول أيضا: «قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام».

وربما نجد اقترابا من الحديث عن خيال الأفغاني إن تتبعنا ما كان يحدوه من أمل، وما كان يقدر عليه هو من فعل جسور في سبيل تحقيق أمانيه. فهو «كان له حلم عظيم يسع ما شاء الله له أن يسع»[123]، ووظف كل ما ينطوي عليه الأدب من خيال وبلاغة في خدمة الشعب، «يطالب بحقوقه، ويدفع الظلم عنه، ويهاجم من اعتدى عليه كائنا من كان، يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم، ويحرضهم على أن يخرجوا من الظلمات إلى النور، وألا يخشوا بأس الحاكم، فليست قوته إلا بهم، ولا غناه إلا منهم، وأن يلحوا في طلب حقوقهم المغصوبة، وسعادتهم المسلوبة. فخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم، وينشد الحرية، ويخلع العبودية، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم، ويجعل من الأدب مشرفا على الأمراء، لا سائلا يمد يده للأغنياء»[124].

والخيال السياسي للأفغاني امتد إلى أنه كان قادرا على شحذ خيال من تحلقوا حوله، وتأثروا به، ففاضوا في الحديث عنه، حتى أنهم انتقلوا أحيانا من الحقائق

إلى الأساطير، ووقفوا كثيرا عند شعورهم بأنه رجل ملهم وعظيم، وأن ما يطلبه بات واجبا لا فكاك منه. ولهذا «يمكن أن نقول إن هناك جمال الدين كما هو في ذاته، أو فلتقل على حقيقته، وأن هناك أيضا أسطورته كما نشرها هو ببراعة عظمى، واستخدم في نشرها عشرات من التلاميذ، وبعضهم كأنه شبه مسحور.. وأسطورته تلك هي التي عرفه الناس من خلالها، ولايزال أكثرهم على هذه الحال حتى يومنا هذا في البلاد الناطقة بالعربية، وهي التي أثرت في من أثرت فيه وسيكون منهم رجال عظماء»[125].

وكان من تلاميذ الأفغاني عظماء في مجالات عدة مثل محمد عبده، وأديب إسحق، وإبراهيم اللقاني، وسعد زغلول ومحمود سامي البارودي وغيرهم.

آمن الأفغاني بأن الإصلاح يمكن تحصيله من فوره، شرط العمل من أجل بلوغه[126]. ولذا رفض طلب تلميذه محمد عبده وهما في باريس العام 1883، أن يذهبا معا إلى مكان غير خاضع لسلطان دولة تعرقل مشروعهما الإصلاحي، ليؤسسا مدرسة للزعماء، يختارا تلاميذها من الأقطار الإسلامية، ويقوما بتربيتهم لمدة معينة، يصبحوا بعدها مؤهلين لقيادة الإصلاح في بلدانهم[127]، فالأفغاني كان يتصرف دوما على أنه لا وقت للانتظار، فهو خلق للدعوة والحركة في مجال العمل السياسي والثورة الأممية[128]، والتمرد على مقتضى الحال، ولذا كان يقول لمحمد عبده ناصحا: «كن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة، ولا تكن صبيا هلوعا». وحين قال له أحد الجالسين إليه ذات يوم: «إن المستعمرين ذئاب» رد عليه: «لو لم يجدوكم نعاجا لما كانوا ذئابا».

ومن أمارات تمرده أن السلطة ما كانت تصبر على استئناسه طويلا، ففي بواكير العام 1879 أسهم في تأسيس جمعية سياسية سرية كان الأمير توفيق أحد أعضائها في وقت ما، لكنه حين صار «خديوا» في العام نفسه وقع تحت تأثيرات معادية فطرد الأفغاني من مصر. وبعد أن اتهم بمحاولة اغتيال الشاه، ذهب إلى إسطنبول وحل ضيفا على السلطان عبدالحميد الذي سرعان ما اختلف معه وطرده. وانتهت حياته بدس السم له، ثم قيل إنه قد أصيب بسرطان لا يرجى منه شفاء.

ولا شك في أن الأفغاني، بتحريضه على مقاومة الظلم، سواء في أحاديثه المباشرة إلى تلاميذه على المقاهي، أو في مقالاته التي حملتها جريدة «العروة الوثقى» أو تصرفاته

التي كانت تتسم بالجرأة والإقدام، قد أدى دورا في الثورتين الفارسية والعرابية.

ولذا لم يكن الإمام محمد عبده يجافي الحقيقة حين كان يصفه قائلا: «الشيخ الجليل الذي كان يجلس على قهوة متاتيا يوزع السعوط بيمناه والثورة بيسراه».

إن الخيال السياسي للأفغاني كان أوسع بكثير من طاقته وقدرته هو بوصفه شخصا، لكنه صاغ منه حلما تحول إلى فكرة لاتزال تراود بعض الحركات الدينية المسيسة إلى يومنا هذا، على رغم أن كثيرين من أتباعها لا يدركون أن أفعال الأفغاني وأقواله لها بصمة على ما يتصورونه ويرددونه ويتصرفونه، وحتى لو عرف بعضهم فإنه لا يتمكن، في الأغلب الأعم، من تحرير رؤية الأفغاني من سياقها السياسي والاجتماعي الذي تبدل الآن إلى حد بعيد.

حادي عشر: استعراض التجارب الناجحة ودراستها

لا يريد الذين يطلقون خيالهم السياسي أن يصلوا إلى طرق مسدودة، فيقعدوا ملومين محسورين، أو يخفقوا في تحقيق أهدافهم التي يصْبون إليها، إنما هم بالطبع يوظفون قدرتهم على التخيل في الانطلاق إلى الأمام.

ويكون هذا الانطلاق أسرع نسبيا إن راكم هؤلاء على ما سبقهم إليه غيرهم، فالبدء من نقطة الصفر يضيع وقتا وجهدا كبيرين. وقطعا لن يراكم الراغبون في صناعة مستقبل أفضل على أطلال أو حطام إنما على أبنية متينة، خلقتها تجارب ناجحة.

وقليلا ما نجد في حياتنا السياسية في العالم العربي مسعى إلى الاستفادة العميقة مما عركه الآخرون، وخرجوا منه مظفرين، سواء الذين سبقونا على أرضنا في تواريخ مضت، أو من خلال التجارب الدولية. وهذه آفة لا تقتصر على السلطة فحسب، بل إن مختلف الفعاليات السياسية والاجتماعية تعاني الداء نفسه، فيبدأ الكل وكأن أحدا لم يفكر قبلهم في المشكلات التي تعترض سبيلهم، ويقطع شوطا على طريق حلها.

وعلى سبيل المثال، حين أخذ بعض المفكرين العرب على محمل الجد إشارات السلطات إلى إمكانية الإصلاح في مطلع الألفية الثالثة، حاولوا في رحاب مكتبة الإسكندرية خلال «المؤتمر الثاني للإصلاح» دراسة التجارب الناجحة في قضايا عمالة الشباب، وتمكين المرأة، والتعليم، والبيئة والمياه، والتكافل الاجتماعي، وحقوق

الإنسان، والتنمية الشاملة والمستدامة، والصحة، والسلام، والمشاركة السياسية، والثقافة والفنون، والبرامج المتخصصة والقروض الصغيرة.

وقدمت وقتها مختلف الفعاليات التي شاركت في المؤتمر أوراقا تشرح هذه التجارب باستفاضة اتكاء على أنه «إذا كان الطابع الأساسي للمعرفة اليوم هو التراكم المولد لطاقة الإبداع، فإن الأحداث الفكرية والثقافية تكتسب أهميتها من قدرتها على تشكيل ذاكرة موضوعية، تختزن التجارب الفعالة، وتستخلص مقوماتها وعصارة الخبرة الناجمة عنها، لا من قبيل التوثيق فحسب - مع أنه هدف عزيز في حد ذاته - ولكن على سبيل حفز الإرادة الجماعية على مواصلة الجهد، لتحقيق الغايات النبيلة الكبرى، انطلاقا من تصعيد الخطوات السابقة وإدراجها في منظومة تتحرك في سبيل الإنجازات القادمة»[129].

شرح وقتها مدير مكتبة الإسكندرية د. إسماعيل سراج الدين الأسباب التي حدت المشاركين في المؤتمر على التفكير في هذا الاتجاه فقال: «كانت الفكرة الجوهرية الكامنة حول مفهوم التجارب الناجحة أن النجاح ينتشر بالعدوى، مثلما يتحسن السلوك بالقدوة والمثل العليا، وكذلك من الإيمان العميق بأن المستقبل الأجمل لأمتنا العربية لن يتحقق إلا باستثمار كل الطاقات الخلاقة والاجتهادات الأصيلة والعمل الدءوب، والنظر في الإنجازات التي تدفع إلى إعادة النظر في القضايا التي لاتزال قائمة، والعقبات التي لاتزال تعرقل المسار، وذلك من خلال النظر إلى المقترحات والإنجازات الناجحة التي يمكن أن تسهم في تذليل العقبات، والانطلاق الخلاق صوب المستقبل الذي نحلم به لأمتنا العربية، وذلك انطلاقا من أن حركات الإصلاح التاريخية التي غيرت مسارات الأمم في مختلف المجتمعات، قد بدأتها دوائر صغيرة من المزودين بطاقة الإيمان بأهدافهم والإصرار على تنفيذها، وأنها سرعان ما اتسعت بالعزيمة والمثابرة والإخلاص»[130].

وقطعا ليست هذه هي التجربة العربية الوحيدة، لكنها ربما الأوسع، أو التي تتعلق بمسارات أشمل، تضم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والحقوقي. وهناك تجربة أضيق لكنها مهمة أيضا. ففي فبراير من العام 2015 عرضت المنظمة العربية للتنمية الإدارية، التابعة لجامعة الدول العربية، في مؤتمر لها تجارب الدول الناجحة في إصلاح الجهاز الحكومي، بغية رسم خطط الإصلاح الإداري، وتهيئة

مناخ الاستثمار، وتعزيز إمكانيات الأجهزة الرقابية والهيئات المستقلة، وتطوير نظم الرقابة المالية والإدارية لمكافحة الفساد في تحقيق الإصلاح الإداري في الدول المتقدمة لتعميمها والاستفادة منها[131]. وقد قامت جامعات ومؤسسات مجتمع مدني ومؤسسات خاصة في مجال المال والأعمال بالنظر في تجارب سابقة، للاستفادة منها.

والسؤال ما الذي يقدمه استعراض التجارب الناجحة لحفز الخيال السياسي العلمي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تبدو يسيرة، فكثير من أولئك الذين آمنوا بضرورة استعراض التجارب الناجحة سيطرت عليهم النزعة إلى تقليدها أكثر من مفارقتها إلى ما هو أبعد منها بكثير. وقد حدث هذا بشكل أوسع وأعمق مع نقل تجارب تنموية، بعضها سبقته رؤى نظرية متكاملة، وشبه متكاملة، جعلته يشكل نموذجا يمكن استعارته، كما وضعه أصحابه من دون تغيير أو تبديل.

لكن هذه الاستعارة أو النقل التام، الذي قد لا يراعي في كثير من الأحيان اختلاف العوائد، التي تشمل الإمكانات المتاحة وطبائع البشر واحتياجاتهم ومعطيات الجغرافيا، ليس هو المطلوب في صناعة خيال سياسي خلاق، إنما شيء آخر تماما، قد يجعل التجارب الناجحة تؤدي وظائف أساسية في إفادة الخيال، وذلك على النحو التالي:

(1) استعراض التجارب الناجحة هو مجرد أرضية للانطلاق، وليست نهاية للمطاف، أو مجرد بحث عن شيء يمكن تكراره أو تدويره أو استعماله طلاء أو زينة في عملية دعاية سياسية لحساب سلطة أو معارضة.

(2) في التجارب الناجحة هناك دوما، على الرغم من النجاح، أشياء ناقصة إن تممناها فإن النجاح سيتسع، وعلينا أن نفكر في كيفية إتمامها، بوسائل مبدعة.

(3) التجربة الناجحة اليوم قد لا تحتفظ بنجاحها إلى الغد نظرا إلى تغير الظروف الطبيعية والبشرية، وبالتالي من الضروري إعادة تقييم وتعريف النجاح وفق الظرف المستجد.

(4) التجارب الناجحة ليست تجاربنا إنما هي تجارب آخرين، كانت لديهم أهداف وغايات، بعضها قد يتطابق مع ما نريده، لكن هناك ما لا نريده، إما لأنه زائد عن حاجتنا، أو ناقص عنها، وإما لأن لدينا أهدافا مختلفة نسبيا، تتطلب أن نفكر بطرق مغايرة في سبيل تحصيل النجاح.

(5) التجارب الناجحة قد ترضي طموح أصحابها في اللحظة التي ينجزونها فيها، لكنهم يجب ألا يتوقفوا عند هذا الحد من الطموح، وعليهم بالضرورة ألا يتوقفوا أبدا، بل يذهبون بطموحهم إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير.

وفي السياسة يُطرح السؤال: ما الأطراف المناط بها أن تطلق الخيال في سبيل الاستفادة من التجارب الناجحة؟

إن الأذهان تنصرف دوما إلى السلطة الحاكمة في حال تحديد الطرف الذي عليه أن يُعمل خياله السياسي بعد امتلاكه، لكن في الحقيقة هناك أطراف أخرى مستدعاة لهذه المهمة، من بينها الأحزاب السياسية المعارضة، والحركات الاجتماعية والسياسية الفاعلة، وقوى المجتمع المدني، بل وبعض الأفراد من الشخصيات العامة الذين يؤدون دورا بارزا في توجيه الرأي العام، أو إيصال أفكار ومعان إلى من في أيديهم مقاليد الأمور.

وهناك حالتان قائمتان بين هذه الأطراف جميعا: إحداهما إيجابية، والأخرى سلبية، يمكن توضيحهما على النحو التالي:

أ - الإيجابية: حين تكون القنوات بين هذه الأطراف أو القوى السياسية مفتوحة، تجعل ناتج الخطاب والإرادة ينساب بينها بلا عقبات أو عراقيل، ومن ثم تتعاظم الاستفادة، بتعزز العناصر التي تدفع الخيال السياسي قدما، وتضعه في الوقت نفسه على طريق العلم، فتحميه من السقوط في الأوهام والوساوس القهرية، أو أحلام اليقظة والتفكير بالتمني.

ب - السلبية: التي تكون فيها هذه القنوات مسدودة، الأمر الذي يجعل طاقة التفكير الخلاق تتناطح بدلا من أن تتفاعل وتتكامل، وبالتالي تفقد الجزء الأكبر من فاعليتها في الصراع، وكلما طال أمد هذا الصراع أو انفتح بلا حد، أو تغلبت عليه المنافع الذاتية والانتهازية، تدهور معدل تراجع الاستفادة من التجارب الناجحة في التخيل السياسي العلمي بشكل ملموس.

4

سبل تنمية الخيال السياسي ومعوقاته

«بلغ التفكير بالتمني ذروته مع الانتفاضات والثورات التي اندلعت في عدد من الدول العربية في السنوات الأخيرة، فكثير من الثوار، أو حتى عموم الناس، الذين استبشروا بالثورات خيرا، فكروا فيما سيأتي بالتمني، من دون أن تكون هناك خطط واستراتيجيات منطلقة من الواقع تحمل أمانيهم هذه إلى التحقق في المستقبل»

في محاضرة الافتتاح التي ألقاها ميخائيل أوكشوط بمدرسة لندن للاقتصاد في العام 1951، تحدث عما أسماه «بحر السياسة الذي لا حدود له»، وقال: «في مجال النشاط السياسي يبحر الناس في بحر بغير قاع وبغير حدود، لا ميناء يلوذون به، ولا أرض يلقون إليها مراسيهم، لا يعرفون نقطة للبداية، ولا قصدا محددا يتجهون إليه، إن مشروعهم مثل سفينة تطفو حيث البحر هو الصديق والعدو معا، وحيث الإبحار ما هو إلا استخدام لكل ما هو متاح من أنماط السلوك التقليدي بقصد تحويل أي ظروف معادية إلى ظروف مواتية»[1].

بالطبع، لم يكن أوكشوط يتحدث بشكل مباشر عن الخيال السياسي، لكن وصفه البديع هذا ربما يفتح نافذة للتفكير فيما هو موات،

وما هو معادٍ في السياسة، وكيف يمكن توظيف الأول في دفع الخيال قدما، والثاني في تعويقه، وما السبل التي تجعل بوسعنا أن نجدف إلى الأمام، فنتغلب على الريح المعاكسة التي ترفع أمامنا جدران المتوج المتلاحقة.

أولا: سبل تنمية الخيال السياسي

مثل أي شيء وأي طاقة، يمكن أن نعزز الخيال السياسي إن امتلكناه أصلا. فابتداء، فإن «أسباب سلوكنا الذي يشمل نشاطاتنا العقلية مثل الإدراك يمكن أن نجدها بصورة نهائية فيما ورثناه من عوامل وفي تاريخنا البيئي، وفيما نقابله في حياتنا من مصادفات تحدث في البيئة المحيطة بنا»[2]. وإذا كان ما ورثناه قد حدث بالفعل، ولم يكن لنا يد فيه، فإن ما نكسبه، يمكننا أن نغير فيه أو نعدل، وفق ما يمنحنا أقصى فائدة ممكنة، فتتحول «عوائد» البيئة أو المجتمع إلى إضافة تثري ذهن الإنسان، وتوقظ مشاعره، وتلهب حسه، فينطلق خياله، ليوظفه في مختلف مجالات الحياة، ومنها بالقطع السياسة وشؤونها.

والسؤال عن سبل تنمية الخيال السياسي يتطلب قبله الإجابة عن سؤال آخر، هو: كيف نعزز التفكير الإبداعي؟ وهو تساؤل، كان ولايزال، يؤرق العلماء في مختلف المجالات، واحد منهم هو مايكل ميكالكو الذي خصص كتابا كاملا ليطرح فيه الإجابة؛ متنقلا بين حقول معرفية مختلفة وتجارب لعلماء وأدباء وفنانين، ليصل في النهاية إلى خريطة متكاملة أو استراتيجية للتفكير الإبداعي، يقسمها إلى جزأين: الأول هو «رؤية ما لا يراه الآخرون» من خلال معرفة «كيف نرى؟»، وإعطاء التفكير شكلا مرئيا. والثاني هو «التفكير فيما لا يفكر فيه الآخرون» عبر التفكير بسلاسة وطلاقة، وصنع توليفات مبتكرة، ووصل ما ليس متصلا، والنظر إلى الجانب الآخر، والنظر داخل العوامل الأخرى، والعثور على ما لا نبحث عنه، وإيقاظ روح التعاون[3].

لكن عملية توظيف الخيال في مجال السياسة تقتضي من المتخيلين أن يبتعدوا بأنفسهم عن آرائهم الخاصة بشأن المجتمع، بوصفهم أعضاء فيه، وأن يستخدموا النظريات، ويقرأوا التاريخ جيدا، لتوفير الأدلة والبراهين. من دون ربط ما يستقر في رؤوسهم من فهم بالخبرة الشخصية؛ لأن مثل هذا يجعلهم بمنزلة اللاعبين الاجتماعيين، وبالتالي لن يكون في مقدورهم أن يفهموا المصطلحات السياسية على

نحو سليم[4]؛ فمن يبتعد عن المشكلة قليلا ليراها جيدا، بوسعه أن يتخيل لها حلولا أفضل بكثير من تلك المنغمس فيها، كما أن من صنع المشكلة لا يمكنه أن يحلها. وقد شرحت هذه النقطة باستفاضة من قبل.

ويمكن تدريب الباحث على امتلاك قدرة تقنية معقولة على جمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها واستخلاص النتائج، ويمكن كذلك استنهاض أو استثارة القدرة الكامنة لديه على التخيل والاستشراف. ومن واقع تجربته، يحدد ميلز عدة خطوات لهذه العملية، صاغها هو بإسهاب، لكن ربما شابها بعض الغموض، ويمكن تجليتها وإعادة صياغتها بشكل أكثر سلاسة ودقة على النحو التالي[5]:

(1) إعادة ترتيب الملفات التي لا رابط بينها بأعلى مستوى من الدقة والواقعية، بحيث تمتزج الأفكار، التي كنا نظن - للوهلة الأولى - أن بينها افتراقا أو خصاما تاما.

(2) تجنب الوقوع في فخ تعريفات المفاهيم والاصطلاحات التي تؤدي إلى ميوعة الفهم ومن ثم تمييع الخيال، وهذا يتطلب استعمال القواميس والمعاجم والموسوعات والكتب المساعدة بحنكة ودقة في البحث عن عمق المعاني، بحيث نصل إلى تحديد صارم وجلي للمشكلة التي نريد حلها أو الفكرة التي نسعى إلى تجليتها، ونصيغ هذا في أقل كلمات دالة ومباشرة وذات طابع إجرائي.

(3) يجب أن نعلم أن كثيرا من المفاهيم العامة التي نتوصل إليها قد تكون قد صيغت من قبل في أنماط أو قوالب معينة، وبالتالي يكون وضع تصنيف جديد لها هو بداية تحقيق تطور مغاير ومثمر. ومن هنا، فبدلا من مطابقة ما توصلنا إليه مع ما استنتجناه أو وضعه غيرنا من قبل، يمكننا أن نبحث عن القواسم المشتركة بين ما لدينا وما تركه الآخرون، ونحدد ما تميزنا نحن به، وننقد ما طرحوه، من دون الوقوع في وهم يقينية الأشكال التوضيحية والرسوم البيانية والمعادلات الرياضية؛ لأنها في الحقيقة ليست الوسيلة الوحيدة لتبيان العمل، أو شرح الفكرة، أو طرح الموضوع.

(4) من الضروري التفكير في الأمور والأشياء والمعاني والأفكار والمواقف المضادة لتلك التي نتخذها أو نتبناها، فبضدها تتميز الأشياء وتنجلي؛ فإذا كنا بصدد دراسة البؤس والتقتير علينا أن ننظر إلى الإسراف والتبذير، وإذا كنا ندرس اليأس والقنوط علينا أن نسعى وراء الأمل والرجاء؛ فبهذا نصبح أكثر تحكما في المادة التي تحت

أيدينا، وتوفر لنا رحلة الذهاب والعودة بين الأمر ونقيضه استنارة من دون شك. لكن هذا التقابل يجب ألا يُترك للتخمين أو النظرة العابرة والعشوائية، إنما يجب أن يتم وفق أدوات منهجية محددة، وقد يكون من المفيد أن نستخدم الإحصاء، أو ننظر أحيانا في حالات مقارنة من خارج البيئة التي ندرسها.

(5) يجب عدم الاستسلام للقوالب المنهجية الجامدة، والتعامل معها على أنها أصنام لا يمكن المساس بها، وتجنب الغموض كوسيلة للهرب أو التملص من استخراج الأحكام المحددة عن المجتمع؛ علينا ألا نكتفي بالاهتمام بالاستخلاصات العامة والأساسية والكبرى من التاريخ، بل علينا أن نغوص، ولو قليلا، في التفاصيل والجزئيات، ونفهم العلاقات القائمة بينها، ولا نقصر جهودنا على إعداد دراسات متتالية عن وسط اجتماعي أو قضية سياسية جزئية، بل ننظر إلى الأبنية الاجتماعية الكبرى. ولتبق عيوننا مفتوحة دوما على أننا في النهاية ندرس أمورا تخص الإنسان، ولذا فإن الإلمام بالطبيعة البشرية غاية في الأهمية، والتعامل مع الفرد بوصفه فاعلا تاريخيا واجتماعيا ضرورة.

ويقدم جون إلستر نصائح أخرى يسميها «أمثلة للتصرف على أساس النتائج البعيدة زمنيا»، إن أمعنا النظر فيها سنجد أنها تساعدنا أيضا على تنمية الخيال، إذ يجملها في ثلاث طرق ذهنية وسلوكية، هي[6]:

(1) **التراجع للقيام بقفزة أفضل إلى الأمام:** أو التراجع خطوة كي نتقدم خطوتين. وتجسد إحدى القواعد الاقتصادية هذا الموضوع بجلاء، وهي تلك التي ترى أنه كي نستثمر من أجل زيادة الاستهلاك في المستقبل، يتعين علينا أن نستهلك أقل في الوقت الحالي. وإذا كانت الحالة الأدنى الراهنة ستبقي الإنسان على قيد الحياة، فالمكاسب التي ستعود عليه من الحالة الأعلى المقبلة ضخمة بما يكفي لتبرير الخسارة التي لحقت به نتيجة اختياره الوضع الأدنى.

(2) **التمهل:** فهناك أمور كثيرة يؤدي التمهل فيها إلى تحسن ما نسعى إلى الحصول عليه، أو إلى تعزيز فرصنا في اختيار الأفضل.

(3) **التصويب مباشرة نحو الهدف:** فنحن حين نسعى إلى إصابة هدف متحرك يجب ألا نصوب على المكان الذي يوجد به الهدف، لكن على المكان الذي سيحل فيه عندما يصل إليه السهم أو تخرقه الرصاصة، وهذا معناه أننا حين نصوب نعمل

حساب الحركة إلى المستقبل، وليس وضع الهدف في زمانه ومكانه الراهنين. ولعل «النظرية النسبية» تعطي فهما أشمل لهذه النقطة، وتبرهن على صحتها ودقتها.

وحتى يكون في وسعنا أن ننمي خيالنا السياسي فعلينا ابتداء أن نزيح الكوابح التي تلجم الخيال أو تكبته، وأولها العقل الذي يصر - أحيانا - على فرض حدود وهمية على طاقته اللامحدودة، أو يوحي لنا دوما بالحذر، ويقيد رغبتنا في المغامرة. وثانيها البيروقراطية التي تميل بطبيعتها إلى عمل روتيني واتباع أساليب جامدة وفق نماذج عتيقة نسبيا، ومقاومة أي ميل إلى التغيير أو أي فكرة مبتكرة، خصوصا لو جاءت من خارج المؤسسة. وهذه الآفة يعانيها الجميع في العالم العربي، لاسيما في الدول التي تتسم باتساع جهازها البيروقراطي وقدمه وتضخم دوره في تسيير دفة الأمور.

وعلينا كذلك أن نستفيد من كل ما تتيحه لنا ينابيع التخيل من استقراء التاريخ، وتراكم المعرفة، والاستبطان، والعمل بروح الفريق، والعصف الذهني المفتوح والعميق، وعطاء الدراسات عبر النوعية، والخيال المنطقي المحدد، والخيال الإبداعي المنطلق.

ثانيا: معوقات الخيال السياسي

على أهميته، لا يجد «الخيال السياسي»، في الأغلب الأعم، لدى السلطات والنخب العربية طريقا ممهدا في كل الأحوال؛ إذ تعترضه أشياء كثيرة فتقتله، أو على الأقل تحد منه، وبالتالي تجعل الاستفادة منه ضئيلة وهزيلة، أو تحوله إلى خيالات وأوهام وأضغاث أحلام قد تحط في لحظة عابرة برأس القيادات السياسية أو الأفيال الكبار الذين يديرون المؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات العملاقة التي تحوز جزءا هائلا من ركائز القوة داخل المجتمع.

ليس معنى هذا أن العرب المحدثين والمعاصرين عاجزون عن الخيال السياسي من الناحية الطبيعية أو الفطرية، أو إن شئت فقل «البيولوجية»، لكنهم، شأن آخرين في دول نامية ومتخلفة، يجدون أنفسهم مثقلين بأحمال تمنع إطلاق الخيال.

وهذه الأحمال أو الكوابح متعددة ومتداخلة في آن، وهذا التداخل يسمح لها بأن تشكل شبكة متينة الخيوط، قد تتماسك بطريقة أكثر، وتتصلب بصيغة أقوى،

لتصير جدارا عازلا يحرم القرار السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي والإداري من أن ينعم بعطاء المبدعين الذين بوسعهم أن يتوقعوا ما يأتي في ضوء الإلمام بكل معطيات الواقع.

وتعتمد منابع الخيال السياسي على استقراء التاريخ، والعمل بروح الفريق، وامتلاك العقل المنطقي الخلاق، واستعمال الإبداع الأدبي، واللجوء إلى استطلاعات الرأي، واستعمال أدوات مثل نظرية المحاكاة ونظرية المباريات، والاستفادة من الدراسات عبر النوعية. ومن هنا فإن غياب هذه المنابع أو تجفيفها، أو على الأقل اتخاذ ما يؤدي إلى ضحالتها، يشكل كوابح على إطلاق الخيال السياسي. وفي هذا المقام، سأعرض الأسباب الرئيسية التي توجد هذا، وهي لا تخص الحالة العربية، إنما تنسحب على مختلف النظم السياسية في مختلف الأزمنة والأمكنة. ويمكن ذكر هذه الكوابح على النحو التالي:

1 - **الوقوعية**: بمعنى قلة الطموح، والخوف الهائل من التجريب والتغيير، والرضا بالموجود والمقسوم، والاستسلام لشعار «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، والاعتقاد الزائف بأن الحكمة مرتبطة وجودا وعدما بالبطء والتريث الشديد.

وقطعا هناك فرق وتمييز واضح بين الواقعية التي تعني فهم وتقدير الموارد المادية والمعنوية والرمزية التي يجب تعبئتها نحو تحقيق الأهداف، وبين الوقوعية التي تعني عدم الإيمان بأن في وسعنا ألا نكتفي بتعبئة هذه الموارد إنما نطورها ونعمقها ونزيدها، ونعتقد أنها ليست ثابتة تنقص بتزايد احتياجاتنا إنما هي متحركة، وعلينا أن نجعل هذا التحرك إلى الأمام، ونؤمن دوما بأن لدينا «طاقة كامنة» غير مستغلة، ونبحث عنها ونوظفها في سبيل الوصول إلى الغايات التي نصبو إليها.

2 - **بلادة صُنَّاع القرار**: وهذه مسؤولية القيادة العليا، أو متخذ القرار، حين يستريح لاختيار أشخاص أقل كفاءة، وأضحل معرفة، لأنهم يتسمون بالطاعة، ويميلون إلى الاكتفاء بتنفيذ ما يقال لهم أو يُملى عليهم من هذه القيادة، من دون مراجعة أو تفكير. فمثل هؤلاء يفتقدون القدرة على ابتكار الحلول، أو وضع السيناريوهات البديلة، لأنهم يدركون - في نهاية المطاف - أن هذه ليست مسؤوليتهم، وحتى لو شعروا بمسؤولية تجاه هذا، فليس في وسعهم أن يجعلوا ما توصلوا إليه يجد طريقه إلى التنفيذ.

وحتى لو كان من بين هؤلاء من لديهم قدرة على الإبداع والتخيل، فإنهم بمرور الوقت إما يفقدون هذه القدرة، وإما تتراخى عندهم إلى أدنى حد، وقد يتم لفظهم والتخلص منهم بمرور الوقت إن أصروا على أن يقدموا المختلف ويفكروا خارج الصندوق.

3 - **التحكم البيروقراطي:** سلطة المكاتب تتحول أحيانا إلى طاقة معوقة، لاسيما إن كانت القوانين التي تحكم عملها، والتقاليد التي تنظم إجراءاتها، لا تواكب التغيرات، ولا تضع في اعتبارها ما يستجد من ظروف وأعمال. وطالما أسهم البيروقراطيون الأداتيون في قتل أفكار مبدعة في الإدارة والسياسة لأنها، من وجهة نظرهم، تخالف ما اعتادوه، أو تهز ما ألفوه من نظم، وارتاحوا إليه، وحققوا من خلاله مصالحهم، سواء في الترقي أو حيازة المنافع المادية.

4 - **نقص المعلومات والاستهانة بدورها أو الاستسلام التام لها:** فإطلاق الخيال السياسي ليس عملية اعتباطية وجزافية، أو إجراء يخضع للحظ والتخمين، أو يقوم على التكهن الذي يبرع فيه قارئو الطالع، إنما هو عملية يجب أن تقوم على أسس متينة من التفكير العلمي، ولهذا تحتاج إلى توافر معلومات غزيرة وسليمة، أو كافية لفهم الظاهرة أو المشكلة التي يراد وضع حلول خلاقة لها.

وهناك آفة تتمثل في الاستهانة بالمعلومات، أو توهم أنه من الممكن الاستغناء عنها؛ لأن في وسع صانعي القرار ومتخذيه أن يعتمدوا على ملكاتهم المتوهمة، أو يعتقدوا أن الاطلاع على المعلومات يعطلهم أو يقيدهم، لاسيما إن كان الوقت ضيقا أمامهم وعليهم أن يتصرفوا بسرعة وحسم.

في الوقت ذاته، وعلى النقيض من هذا، يؤدي الاستسلام للمعلومات، والإغراق في تفاصيلها، وعدم ترتيبها وفق ما هو مهم منها وما هو أقل أهمية، وما له علاقة مباشرة بالمشكلة المنظورة، وما ليس له هذه المباشرة، إلى تعويق الخيال السياسي، الذي يرمي إلى هضم المهم من المعلومات ثم إدخالها في عملية ذهنية خلاقة للتنبؤ بما سيأتي.

5 - **الجهل بالتاريخ:** إن معرفة ما جرى مهم لفهم ما يجري والتنبؤ بما سيأتي، ليس لأن أحداث التاريخ تتكرر بحذافيرها، كما يروج البعض، إنما لأنها تتشابه في معانيها ومراميها العامة؛ لأن منطق الصراع الاجتماعي والسياسي لا يتغير، سواء على المستوى الدولي أو داخل كل دولة على حدة.

فطوال الوقت نجد أن للسلطة تصوراتها وأدواتها، وللمجتمع رغباته وآماله، وهناك «تدافع» لا ينتهي في التفاعلات بين الطرفين، والتفاعلات البينية داخل المجتمع في أفراده وتكويناته المنتظمة.

لهذا فحين يكون السياسي بصدد مشكلة، ويكون على علم عميق بالتاريخ، يشعر كأنه قد مر بها من قبل، ويعرف المسارات التي سلكها من عالجوها من قبل، ما كان فيها صالحا، فساعد على تجاوز الأزمة وحل المشكلة، وما كان طالحا أدى إلى مزيد من التأزيم والتعقيد، وقاد إلى الفشل.

6 - **الاستسلام للموروث**: يعد الرضوخ الكامل للموروث، أيا كانت صورته ومضمونه، من الأشياء التي تعيق الخيال، وتقف حجر عثر أمام الانطلاق إلى المستقبل، وفي كثير من الأحيان «تصبح التقاليد قيدا حديديا على حرية الإبداع والتصرف، وفق مقتضى الحال، ومن ثم ينشأ الصراع بين حفظة التقاليد، بدعوى أنهم يصونون التراث، وبين المجددين بدعوى أنهم يبدعون كيفما شاءوا، وهو ذلك الصراع الذي أخذ عنوان الأصالة والمعاصرة، وتزداد المعركة ضراوة إذا كانت التقاليد ترتبط بالثقافة الدينية؛ حيث تصبح الأصالة عنوانا للإيمان، وتصبح المعاصرة عنوانا للمروق»[7].

وكثير من العادات والتقاليد والطقوس والآراء الدينية تحول أحيانا دون التغيير إلى الأفضل، لعدة أسباب:

1 - تنتمي هذه العادات والتقاليد إلى أجيال قديمة، كانت تواجه ظروفا مغايرة، وتطرح أمامها تحديات معينة، وأسئلة نابعة من واقعها. يؤدي التفاعل مع الظروف، والاستجابة للتحديات، والإجابة عن الأسئلة، إلى خلق نمط من التفكير والأقوال والأفعال قد يجمد مكانه ويرسخ، وحين يأتي زمن آخر يفرض تحديات ويطرح أسئلة ويخلق ظروفا مغايرة، يكون ما رسخ في القديم غير صالح للتعامل مع هذه التطورات الجديدة، فإن تمسك به الناس حرفيا، بزعم أنه يشكل مخزونا للحكمة والأخلاق وسير الأجداد التي يجب الالتزام بها، يكون بلا شك عائقا أمام تقدمهم.

2 - هذه الموروثات - بمختلف أشكالها - عبرت أو عكست في أيام انطلاقها ثم رسوخها عن منافع ومصالح فئات وشرائح اجتماعية، وربما أفراد متحكمين في الأمور، ويحرص عليها الذين على شاكلتهم رغم تبدل الأزمنة، وتباعد الشقة بين القديم

والمعيش. ومثل هؤلاء يحاربون بكل طريقة إبداع الجديد، وخرق المألوف، وطرح البدائل، وهذا يقتل القدرة على التخيل السياسي أو غيره.

3 - تجد هذه العادات والتقاليد، بكل ما تنتجه من قيم وأفكار وطقوس، حجيتها في إطار عملية التنشئة الاجتماعية، حيث يعلم الأجداد والآباء الأبناء والأحفاد ما ورثوه وألفوه أو اعتادوا عليه، ويصرون على أن هذا هو الصواب، وأن صلاح الجيل الجديد يكون على قدر تمسكه بهذه «الأصول». وعملية التنشئة تلك لها أدواتها المتعددة، وهي تفرض القديم كله، وتستعمله في معاندة أي جديد أحيانا، ليتحول إلى كابح أو كابت للقدرة على إبداع ما ينفع الحاضر، فضلا عن التخطيط للمستقبل.

4 – على الرغم من حاجة الناس المتجددة إلى الدين، فإنهم لا يرونه إلا من خلال ما وصلهم عن الأقدمين، لا من نصوص - فهذه تتجاوز حيز الزمان والمكان وتفارقهما - إنما من ممارسات وتصرفات تحملها أقاويل، كثير منها لا يمكن البرهنة عليه بشكل قاطع؛ لأنه في النهاية تسجيل لتاريخ اجتماعي، ينطبق عليه ما ينطبق على الكتابة التاريخية أحادية الجانب، أو التي تُروى على لسان المتغلب، ويحملها هؤلاء المنتصرون عبر الزمن، بقدر حرصهم على اندثار رواية المغلوب.

وطالما شكلت هذه المرويات التاريخية، التي هي عبارة عن تاريخ أتباع الدين وليس الدين نفسه، عائقا أمام التجديد، ومثلت قيدا على الخيال، بدعوى أن هذا «بدعة» و«كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». وإذا قمنا بجردة حساب لتصريحات وتصرفات أتباع الجماعات الدينية السياسية، أو تلك التي توظف الدين في تحصيل السلطة السياسية، وجدنا أن معتقداتهم في حجية وصدق وطهر ما ملأ رؤوسهم من أقوال الأقدمين يقف حجر عثرة أمام إطلاق خيالهم السياسي، ليتبنوا خطابا، ويبدعوا طرقا، تلائم واقعهم المعيش، أو ليتكيفوا بالفعل مع المستجد في ترتيبات السياسة وخطابها من قبيل الدولة الوطنية، والدساتير، وسيادة الشعب وكونه مصدر السلطات، والديموقراطية، وتداول السلطة، والحريات الفردية... إلخ.

ولهذا اعتبر عالم النفس المعروف علي زيعور الاستسلام للموروث من الأسباب التي تؤدي إلى انجراح السلوك والفكر في الذات العربية، بما يؤثر سلبا في الصحة العقلية ويعيق التكيف الخلاق، حيث يقول: «لا يستطيع منهج الدراسة هنا

أن يبقي على الثقافة التغييرية في موقف فاتر، ولا في موقف محايد، أو متقبل ومتلق، حيال الراسخ تسميته، في ثقافتنا التراثية المعهودة، باسم الحكمة المتعالية، أو المسكوت عنها، أو المضنون بها على غير أهلها... فهذه الحكمة المتحكمة، أو التي يطلب لها أن تبقى في عتمة، مهيمنة ولا يصح الاقتراب منها ومقاربتها بالتحليل والمقارنة، لا تستطيع اليوم أن تبقى محافظة على مركزها المسيطر، ولا على البقاء خارج مناهج العقل وطرائق الدراسة المعروفة في علوم الطبيعة والنفس والمجتمع، ولا على الادعاء بأنها حكمة تحتكر الحقيقة وتصلنا وحدها بالكائن الأسمى: لا للسياج بين مواقع النظر، ومنتوجات العقل أو ميادين الفكر، وتلك الرؤية الخاصة للحكمة المضنون بها خاصة جدا، أو هي رؤية متميزة سلفا، وشديدة الغرق في الذاتاني أو العندياتي، أو حيث الادعاء بعدم قدرة العقل على الاختراق والنفاذ والتفعيل، لا توافق مناهج النظر، في فكرنا المعاصر، على إبقاء سيطرة العرفاني، والحدساني، والصوفي»[8].

والآثار السلبية التي يتركها الاستسلام للموروث الاجتماعي والثقافي على الخيال الإبداعي، لا تعني بأي حال من الأحوال، إهمال أمرين: الأول، أن القديم من عادات وطقوس وأقوال السالفين والسابقين لا يموت تماما، وليس كله شرا أو قيدا لا فكاك منه، فبعض ما فيه مفيد، شرط ألا يتم التعامل معه بوصفه مقدسا أو معيارا للفضيلة، إنما قابل للنقد والغربلة، بما يقود إلى الاستفادة من إيجابياته ولفظ سلبياته. والثاني، هو أن رفض قيد الموروث لا يعني أبدا إهمال دراسة التاريخ واستقراء وقائعه وأحداثه لتعيننا على فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل.

ويؤدي الاستسلام للموروث إلى إنتاج نوع مريض من الخيال السياسي. وهناك من يرفض تعظيم دور هذا النوع من الخيال في صناعة السياسة أو اتخاذ القرار، أو بلورة رؤية وتصور سياسي، أو أن يكون دليلا أساسيا في بلورة أي إجراءات سياسية، فهذا الصنف من الخيال، يقترب عند أصحابه من الأوهام التي تجعلهم يعتقدون في إمكان إعادة الماضي كما هو. وهنا يقص توفيق السيف حكاية تدل على هذا، حيث يقول: «أستذكر لهذه المناسبة حديثا أجريته مع عدد من الشباب، بعد محاضرة طويلة لأحد العلماء حول حكومة الإمام علي بن أبي طالب. سألت أربعة منهم عما إذا كانت الأساليب التي اتبعها الإمام في زمنه كافية لحل مشكلاتنا الحاضرة،

فأجابوا جميعا بالموافقة. ثم سألت المحاضر نفسه فأجاب بالنفي، موضحا أن لكل زمن مشكلاته، والحلول المناسبة لظرف المشكلة. وأظن أن جواب الشبان الأربعة يمثل رأي شريحة واسعة جدا من الجمهور العربي الذي يشعر بالإحباط إزاء تراكم المشكلات وتطاول الزمن عليها، الأمر الذي يدفعهم إلى البحث عن حلول مستندة إلى ذاكرة تخيلية، تقدم لهم أحداث الماضي معزولة عن ظرفها الخاص»[9].

لهذا فإن الجماعات التراثية، أو التي تتمسك بالموروث الديني ولا تريد له تجديدا، تفتقر إلى الخيال لأسباب تتعلق بكراهيتها للتنظير والتفلسف وإنتاج الأفكار المجردة، وانحيازها إلى صرامة التنظيم، حتى لو كان متهالكا، والسعي نحو التفكير بطريقة واحدة، وعدم إيمانها بالتعددية التي تفتح الذهن أمام التفكير في بدائل وخيارات، في ظل الاعتقاد بأن ما عليه الجماعة التراثية هو الصواب المطلق والطريق المستقيم، كما يؤدي الإيمان بحتمية الانتصار - لأن الطريق رباني والكفاح مقدس - إلى الشعور بالاستغناء عن أي فكر أو رؤية وتصور ومنهج خارج ما تتبناه الجماعة[10].

ويبقى السبب الأهم في التأثير السلبي للوقوع في قبضة الموروث، أو الخضوع لسطوته على الخيال السياسي هو أن التعامل مع هذا الموروث يكون في الأغلب الأعم بالتسليم، بينما يحتاج الخيال إلى التفكير. والفارق الجوهري بين «التسليم» و«التفكير» هو ما يحدد مقدار تأثير الموروث - الذي لا يعني هنا أبدا حكمة التاريخ وخلاصاته العميقة - سلبيا على الخيال. فكلما ابتعدنا عن التسليم مقتربين من التفكير تُزاد فرص إعمال الخيال، والعكس صحيح.

ومع هذا، لا ينبغي إهمال كل ما أتى به الموروث، وإلا لن نتعلم شيئا من حكمة التاريخ الاجتماعي والفكري. وهنا يقول محمود أمين العالم: «ينبغي ألا نقف من التراث موقف الرفض أو الاستهانة أو الاستخفاف، ولا موقف التقديس والتقليد الأعمى، ولا موقف الانتقائية والتجزيء والنفعية، وينبغي ألا يكون موقفا من مضمون من دون الشكل، أو من الشكل من دون مضمون. التراث كله بكل ما فيه، من مدارس مختلفة، متصارعة، عقلانية، أو لاعقلانية هو تراثي الثقافي، يستوي في هذا الخوارج والأشاعرة والمعتزلة والصابئة والشيعة والمتصوفة وما شئت من ملل ونحل ومذاهب واتجاهات أدبية أو فنية أو علمية أو إدارية. أنا لا أختار من بين هذه الاتجاهات، ولا أنتقي، وإنما أستوعب التراث كله استيعابا نقديا في إطار

واقعه التاريخي الاجتماعي الخاص، الاستيعاب النقدي ليس انتقاء فقط، أو تقييما لجانب منه على حساب جانب، وإنما هو إدراك ووعي موضوعي لحقيقة التراث في ملابساته الموضوعية التاريخية، الاستيعاب العقلي النقدي العلمي التاريخي لهذا التراث في مختلف جوانبه، وحركته المتنوعة، هو الموقف الصحيح من التراث في تقديري»[11].

إن المطلوب من أجل تجاوز هذه العقبة في وجه إطلاق الخيال السياسي العملي هو أن نتغلب على كل أسباب العقم في الثقافة القديمة، وأن نعمل على تجديد نظراتنا لتراثنا القريب والبعيد، وإعطائه عمقا جديدا، ومعنى جديدا، وروحا جديدة[12].

ولعل ما فعله محمد عابد الجابري يعد مثالا ناصعا على هذا الدرب، فبعد أن حلل العقل السياسي العربي برده إلى ثلاثة عناصر أساسية: القبيلة، والعقيدة، والغنيمة، نجده قد طلب تحول القبيلة إلى تنظيم مدني سياسي اجتماعي: أحزاب، نقابات، جمعيات حرة، مؤسسات دستورية. وتحويل الغنيمة إلى اقتصاد ضريبة، أو تحويل الاقتصاد الريعي إلى اقتصاد إنتاجي. وتحويل العقيدة، في المجال السياسي، إلى مجرد رأي، عبر فسح المجال لحرية التفكير والمغايرة والاختلاف، بدلا من التفكير المذهبي الطائفي المتعصب الذي يزعم امتلاك الحقيقة، أو الاستسلام لسلطة الجماعة المغلقة، دينية كانت أو عرقية أو حزبية[13]. إنه هنا أعمل خياله السياسي في تطويع القديم، إن كان لا فكاك من تأثير رواسبه بعد، في خدمه الراهن والآتي.

7 - **التفكير بالتمني**: يعد التفكير بالتمني، في الشأن العام، عائقا أمام الخيال السياسي العلمي؛ لأنه يقود إلى اتخاذ المواقف والقرارات وفق ما يرغب فيه الفرد، وليس وفق أدلة علمية قائمة على إمعان النظر في الواقع ودراسته.

وقد أطلق الكاتب البريطاني كريستوفر بوكر على التفكير بالتمني اسم «دائرة الخيال» التي تتكرر في التاريخ والسياسات، مثلما تتكرر في حياة الأشخاص والقصص، وتبدأ بانخراط الفرد في «حلم» يعيش فيه ويعتقد في صحته، ثم لا يلبث أن يفيق بعد أن يدرك أن الواقع يعمل ضد أمنياته، فيدخل في قنوط؛ وهنا يسعى إلى بذل جهد بغية أن يطوع الواقع لحلمه، من دون جدوى، فيدخل كابوسا مخيفا، وتتبخر أمنياته[14].

ويقول الكاتب المصري حازم دياب: «ليس على الأمنيات رقيب، هذه هي القاعدة التي نشأت عليها، يشجعك كل من يحيط بك على الحلم من دون حساب: تمنَ كل شيء... لكن الأمنيات كالأطفال، قد تتخّذ مسارا لا تتوقّعه، وفي بعض الأحيان طريقة تهجئتك لكلمات الأمنية قد تحولّها ضدك. باختصار: الأمنيات ليست بالضرورة حلما جميلا يتحقق أمامك، بل قد تنقلب ماردا يقتات على طموحك... الأمنية خطيرة، علينا الإيمان بذلك، التريّث في الحلم قبل الشروع به ربما يجعل النتائج أقل وطأة»[15].

ولا يقتصر التفكير بالتمني على الأشياء الإيجابية المفرطة في التفاؤل، لكنه يشمل أيضا الأشياء السلبية الغاطسة في التشاؤم، والذي قد يعود إلى رغبة انتقامية، أو يكون استنتاجا لخبرات سيئة لصاحبه، ويسمى هذا «التفكير بالتمني العكسي».

وينطوي التفكير بالتمني على أخطاء أساسية تؤثر سلبا في بناء خيال سياسي علمي[16]، وهو الذي يمكن - إن تلمسنا خطاه - أن يقودنا إلى نتائج جيدة، لا تقف عند حد الأوهام، أو الخيالات المريضة. وهناك خمسة مزالق يوقعنا فيها التفكير بالتمني، فتعيق الخيال العلمي، ويمكن ذكرها على النحو التالي:

(1) يجعل التفكير بالتمني صاحبه يقع في انحراف معرفي، أو بمعنى أدق لا ينشغل بتحصيل معرفة علمية دقيقة تعينه على تصور المستقبل أو الاقتراب من فهمه، أو وضع خطة لتحقيق الأهداف الآتية.

(2) يمثل طريقة سيئة لاتخاذ القرار، فالقرار يجب أن يستند إلى دراسة المعطيات بشكل جيد، ووضع المسارات البديلة بطريقة دقيقة، أما القرار الذي يلهث وراء أمنية لا تستند إلى برهان يكون محض مجازفة، وقد يقود إلى خسارة أو كارثة.

(3) يؤدي إلى تشتيت الانتباه بعيدا عن الموضوع الأساسي، فالذي يفكر بالتمني، فردا كان أو مجموعة، يخرج عن تركيزه في قضيته الرئيسة، مدفوعا بخيالات هائمة لا تقف على قدمين.

(4) يكرس طغيان العاطفة على العقل، ففي التمني المحض يعلو الوجدان على البرهان، ويشرد الفرد في صناعة مصائر لا تعدو أن تكون تنفيسا عن أحلامه المكبوتة، وهي يمكنها أن تحدث له نوعا من التوازن النفسي العارض، لكنه لا يدوم لأنه قائم على الخداع، وسرعان ما يذوب في الهواء، أو يتحطم تماما على صخرة الواقع.

(5) يعزز التفكير بالتمني حضور الأوهام أكثر من الحقائق، ومجافاة الحقيقة والاستسلام للوهم، وبذا لا يثمر شيئا إيجابيا أبدا.

وطبق نايجل هارفي الآثار السلبية للتفكير بالتمني على حالة سياسية معينة تتمثل في موقف بعض مناصري حزب ما حين يدفعهم التفكير بالتمني، أو البحث عن الوضع المثالي، إلى ذكر عيوب هذا الحزب خلال استطلاع آرائهم بشأنه، فيضعهم من يفرغون نتائج هذا الاستطلاع في خانة المعارضين، مع أنهم ليسوا كذلك، وهي نتيجة تتغير تماما لو تم استطلاع آرائهم في لحظة يكون وعيهم فيها حاضرا حيال تهديد مباشر يتعرض له هذا الحزب، فوقتها يمكنهم أن ينتقلوا من الأمنيات إلى الواقع، ويظهر موقفهم الحقيقي حياله، وبالتالي تتغير نتيجة الاستطلاعات[17].

وتضرب وفاء إبراهيم مثلا سياسيا آخر عن خطورة التفكير بالتمني، منطلقة من أن كل «ما لا يرتبط بالواقع ولا يمسه هو تفكير بالتمني»، فتقارن بين الوحدة الأوروبية التي قامت على دراسة معطيات الواقع بدقة، فنجحت على الرغم من التباين والتفاوت بين دولها في أمور مختلفة، وبين الوحدة العربية التي كانت مجرد تفكير بالتمني فأخفقت على رغم أن المشتركات بين العرب أكبر بكثير منها لدى الأوروبيين[18].

وهناك حالة من التفكير بالتمني وقع فيها مثلا أحمد داود أوغلو وقت أن كان وزير خارجية تركيا، إذ أعلن - في ثقة متناهية - في أغسطس 2012، أنه لم يعد أمام الرئيس السوري بشار الأسد سوى بضعة أشهر، إن لم يكن بضعة أسابيع فقط، للرحيل. وتبين بمرور الوقت، أن هذا التوقع خطأ إلى درجة يرثى لها.

وهنا يقول أحد المحللين السياسيين: «على ضوء تلك التصريحات التي أدلى بها أوغلو لا يسعنا إلا أن نتساءل إذا كان ما يقوم به رئيس الوزراء التركي، الذي ارتكب أخطاء متسلسلة في الموضوع السوري، هو تفكير بالتمنّي بدلا من محاولة تقويم الوضع على ما هو عليه. بيد أنه حريٌّ به أن يدرك أن التفكير بالتمنّي لم يثمر أي نتائج بالنسبة إلى تركيا في منطقة الشرق الأوسط التي تُثبت أنها أكثر تعقيدا بأشواط مما تخيّله داود أوغلو يوما»[19].

وهناك مثلان شهيران يضربان في هذا الصدد: الأول يتعلق بما قاله عالم الاقتصاد إيرفينغ فيشر من أن «أسعار الأسهم وصلت إلى ما يشبه الهضبة دائمة

الارتفاع»، قبل أسابيع قليلة من انهيار بورصة وول ستريت في العام 1929، والتي دخل بعدها العالم في كساد كبير، لم تمح آثاره من الذاكرة إلى الآن. والثاني يتعلق بإدارة الرئيس الأمريكي جون كنيدي التي رأت أنه إذا انتصرت القوات الكوبية فسيتمكن المقاتلون الذين كان يدعمهم جهاز المخابرات الأمريكية (سي. آي . إيه) من الهروب، ولن يقعوا في قبضة قوات الرئيس فيدل كاسترو؛ لأنهم سيذوبون وسط أهل الريف في أثناء عملية غزو خليج الخنازير التي بدأت في أبريل 1960، وانتهت بفشل ذريع، إذ تمكن الجيش الثوري الكوبي من أسر 1179 شخصا من مجموعات الإنزال، التي دربتها المخابرات الأمريكية، واستولى على خمس دبابات ثقيلة، وعشرات من الأسلحة الفردية، وثمانية رشاشات ثقيلة، والكثير من الرشاشات والأسلحة المضادة للطائرات، وعشر سيارات نقل عسكرية، وتم إغراق أربع سفن، وإسقاط 12 طائرة قاذفة[20]».

بهذا يبدو التفكير بالتمني في المسائل السياسية أو الشأن العام أحد الأسباب التي تمنع صاحبه من أن يلجأ إلى الخيال السياسي العلمي الذي سيقوده إلى نتائج أفضل من الاستسلام لأمنيات قد لا تكون سوى مجرد طبابة عابرة يريح بها نفسه.

وقد بلغ التفكير بالتمني ذروته مع الانتفاضات والثورات التي اندلعت في عدد من الدول العربية في السنوات الأخيرة، فكثير من الثوار، أو حتى عموم الناس، الذين استبشروا بالثورات خيرا، فكروا فيما سيأتي بالتمني، من دون أن تكون هناك خطط واستراتيجيات منطلقة من الواقع لتحمل أمانيهم هذه إلى التحقق في المستقبل، وبذا تحولت «ثورة التطلعات» التي اجتاحت عقولهم ونفوسهم في البداية إلى «ثورة إحباطات»، جعلت كثيرين منهم إما يتملكهم حنين إلى الماضي، على الرغم من أنه هو الذي أورثهم المشكلات والأزمات المعقدة التي يكابدونها، وإما يجلدون ذواتهم وينفضون عن الفعل الثوري، أو يقبلون بالمتاح، وينصاعون للأمر الواقع، أو يستسلمون لخيالات هائمة تفقدهم - بمرور الوقت - القدرة على فعل أي شيء عام إيجابي، أو يسقطون في فخ الانشغال بمصالحهم ومنافعهم الذاتية الضيقة.

8 - **الأيديولوجيا**: من أي زاوية تكون «الأيديولوجيا» عقبة أمام الخيال السياسي العلمي؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ليست بسيطة، نظرا إلى تعقد مفهوم الأيديولوجيا ذاته، وتشابهه مع تصورات سياسية أخرى، مثل الفلسفة السياسية

والمذهب السياسي والدور السياسي للأديان واليوتوبيا. ونظرا إلى أن الأيديولوجيا تعد، في نظري، من أكبر العقبات وأعمقها أمام انطلاق الخيال السياسي، فإن تناولها في هذا المقام سيحتاج إلى شيء من التفصيل، مقارنة بالعقبات الأخرى التي طُرحت في النقاط السابقة؛ ذلك لأن الأيديولوجيا قاسم مشترك بين بشر مختلفين في الطبائع والثقافات والإمكانات، لكنهم جميعا يقعون في فخها، كما أنها الأكثر تسييسا من بين كل العقبات السابق ذكرها.

والأيديولوجيا تعد من أكثر المفاهيم المحيرة في جميع العلوم الاجتماعية قاطبة[21]؛ إذ ليس هناك اتفاق على معنى واضح لها، بل إن بعض تعريفاتها تتناقض بشكل جلي مع البعض الآخر. وكما يقول ماكس سكيدمور، فإن «الأيديولوجيا مسؤولة عن الجريمة الاجتماعية بقدر مسؤوليتها عن الإبداع الثقافي الرفيع، وهي التي أدت إلى ظهور الدولة القومية، وفي الوقت نفسه، هي التي أطاحت بنظم سياسية عديدة، وهي التي تقف وراء السجون والتعذيب، وعلى العكس، فهي المرتبطة بالسعي الدؤوب إلى حماية حقوق الإنسان»[22]، ولذا فمن الصعب معرفة كم مرة استُخدمت فيها الأيديولوجيا بمعانٍ مختلفة في سياقات عديدة[23]، أو جرى نسيان «الجدل المكروه»[24] الذي يدور حولها، هنا وهناك[25]، الآن وفي أزمنة مضت.

وعموما، لايزال تعريف الأيديولوجيا محل جدل عارم بين كل من يأخذون على عاتقهم التصدي له. ولم يشف أي تعريف من بين عشرات التعريفات التي قدمت شرحا لماهية هذا المفهوم المعقد غليل أحد، بل واجهت جميعها تحديات ومعارضة[26]، وسعيا دؤوبا إلى مواصلة الجدل والنقاش حول هذا المفهوم المركب.

وعلى مدار النصف الأخير من القرن العشرين قفز هذا المصطلح ليصير واحدا من أعقد المفاهيم السياسية وأكثرها إثارة للجدل بين منظّري السياسة والمؤرخين والفلاسفة واللغويين وعلماء الأنثروبولوجيا الثقافية وعلماء الاجتماع وعلماء النفس... إلخ[27]؛ وذلك لأن الأيديولوجيا «ليست مفهوما عاديا يعبر عن واقع ملموس فيوصف وصفا شافيا، وليست مفهوما متولدا عن بدهيات فيحد حدا مجردا، بل هي مفهوم اجتماعي تاريخي، ومن ثم يحمل في ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية عديدة»[28]، لايزال الأخذ والرد حولها محتدما إلى الآن، خاصة بعد سقوط «الروايات السياسية الكبرى»، أو الأيديولوجيات

التي سادت زمنا، وكان بعض الناس يعتقدون في صوابها وطهرها، وقدرتها على إقامة مجتمع فاضل يستمر إلى أبد الآبدين، مثلما جرى على الشيوعية التي قام على أكتافها الاتحاد السوفييتي المنهار؛ أو إمبراطورية مرهوبة الجانب، بوسعها أن تُخضع الآخرين بالقوة، مثلما ذهب هتلر في ألمانيا، حين اتخذ الأيديولوجية النازية أساسا لدولته، وموسوليني في إيطاليا، حين اعتمد الفاشية ركيزة لحكمه.

لكن هذا التعقيد، وتلك الحيرة لا تمنع من إمكانية تحديد ما تؤثر به الأيديولوجيا سلبا في الخيال السياسي العلمي، ويمكن توضيحه في ثلاث نقاط رئيسة:

(1) النبوءة التي تحملها الأيديولوجيا، والتي تبدو أقرب إلى «الحتمية التاريخية» منها إلى التنبؤ العلمي، تشكل عقبة أمام أذهاننا حين نريد أن نفكر في المستقبل بحرية، متخففين من ضرورة تطويع أفكارنا ومقولاتنا ونتائج تفكيرنا لخدمة الأيديولوجيا التي نَنتمي إليها.

(2) تحدد أي أيديولوجيا، بما تضعه من نظريات أو تصورات أو مفاهيم، المسارات التي يمكن أن يسير فيها عقل أولئك الذين يريدون أن يطلقوا خيالهم بينما رؤوسهم محملة بأيديولوجيا تمنحهم المرجعية أو الإطار الأساسي الذي يفهمون به ذواتهم ومجتمعاتهم والعالم، ومن ثم يطوِّعون، سواء واعين أو غير واعين، هذه المسارات لتتماشى مع الأيديولوجيا.

(3) قد تجبر الأيديولوجيا أتباعها على تطويع نتائج تخيلهم لخدمة أغراضها النهائية، ومن ثم تحول هذه النتائج إلى أوهام بعد أن جرت أدلجتها.

لكن الخيال السياسي كان للأيديولوجيا بالمرصاد، على ما يبدو، حيث امتد إلى التفكير في مستقبلها، وشكّل هذا تحديا دائما لعلماء السياسة والاجتماع والفلاسفة والمفكرين والأدباء في مختلف أنحاء العالم، سواء المنتمون إلى أيديولوجيات يريدون لها الانتصار على الأيديولوجيات الأخرى، أو أولئك الذين لا يعتدون بالأيديولوجيا أصلا، ويرونها قيدا على حريتهم في التفكير والتعبير والتدبير.

ففي كتابه «عصر الأيديولوجيا» طرح جون شوارتز مانتل تساؤلا عما إذا كان للأيديولوجيا مستقبل في ظل النداءات والآراء العديدة التي تحدثت عن نهايتها، وضرورة إلقائها في متحف التاريخ البشري. وأجاب: «إن مختلف الأيديولوجيات مهمة لتحديد الإطار الخارجي للحقائق المعاصرة، وهي تقترح طرقا بواسطتها يصبح التغيير ممكنا»[29].

وهذا الرأي ليس الأول من نوعه، ولن يكون الأخير، لكنه يستمد وجاهته من أنه يأتي على لسان شخص يدافع عن الديموقراطية الغربية، ويشاطر الذين يضعون أصابعهم في آذانهم حين يسمعون كلمة أيديولوجيا الرأي حيال قضايا أخرى كثيرة. ليس هذا فقط، بل إنه يرى أن «التفكير الأيديولوجي يحتل جزءا مهما من عملية الديموقراطية السياسية، حيث لا يمكن للأحزاب السياسية أن تعمل من دون مبادئ عامة أو أهداف إرشادية تتقيد بها، ولذا فإنه من الممكن أن تكون نهاية الأيديولوجيا هي نهاية للديموقراطية السياسية، ونهاية للمبادئ في الحياة السياسية»[30].

لكن رؤية مانتل تقف في وجه تيار في الغرب، يضم ساسة ومفكرين، يناهضون الأيديولوجيا، فها هو الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان يقول:

«أنا كمواطن أتردد أو لا أحب أن أرى أي حزب قد ارتكب فعلا محرما من خلال اعتناق مبادئ أيديولوجية. لقد قضينا مائة وسبعين عاما في هذا البلد نعمل على أساس قاعدة مفادها أن الديموقراطية قوية بالقدر الكافي لتقف في وجه الأيديولوجيا»[31].

وها هو مفكر بحجم كارل بوبر يؤكد أنه في العلوم الاجتماعية لا يجب التحدث عن حتمية أو نبوءة، وليس لأحد أن يتجاوز حدود المتاح، ويدعي أن بإمكانه رسم الطريق الذي ستسير فيه الإنسانية، مغلفا ادعاءاته بأطروحات تلبس ثوب العلم، إذ إن الواقع الاجتماعي أكثر عمقا وتعقيدا وصيرورة مما يتصور هؤلاء الذين يريدون أن يعينوا أنماطا أو قوانين ثابتة لحركة الحياة الاجتماعية، تؤهلهم لإضفاء صبغة علمية على نبوءاتهم بالحالة التي سينتهي إليها المجتمع. ويسهب بوبر في شرح ما أسماه «خرافة التاريخانية»، منطلقا من أن التاريخ البشري يتأثر في سيره - بشكل قوي - بنمو المعرفة الإنسانية، وأنه لا يمكن لنا - بالطرق العلمية أو العقلية - أن نتنبأ بنمو معارفنا، ليبرهن بذلك على أنه لا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني، وهذا معناه رفض إمكانية قيام تاريخ نظري، أي علم تاريخ اجتماعي يقابل علم الطبيعة النظري، أو نظرية علمية في التطور التاريخي تصلح أن تكون أساسا للتنبؤ، ومن ثم يخطئ المذهب التاريخي في تصوره للغاية الأساسية التي يتوسل إليها بمناهجه، ويصبح من الضروري دحض كل أصناف التنبؤ الاجتماعي[32].

وإذا كان بوبر قد انتقد الأيـديولوجيا من منظور علمي منهاجي تغلب عليه النزعة إلى التنبؤ، فقد سبقته «نظرية التـلاقي» التي ظهرت في خمسينيات القرن الماضي في مثل هذا النقد، لكن بأسانيد من التطور الاجتماعي. فهذه النظرية التي تعود جذورها إلى علماء الاجتماع، مثل ماكس فيبر وجورج زيميل، ترى أن المجتمعات الحديثة تتطور بطريقة واحدة، وطبقا لنموذج واحد كامن، ومن ثم يقود التحديث إلى ظهور أنماط متشابهة، على رغم اختلاف نقطة الابتداء الأيديولوجية.

فجوهر التحديث يكمن في الترشيد في سياق نموذج الطبيعة/ المادة، وتلجأ المجتمعات المحدثة، رأسمالية كانت أو اشتراكية، إلى عملية ترشيد للبيئة الاجتماعية والحياة الإنسانية، من الداخل والخارج، حيث يمكن تنظيم المجتمع عبر التخطيط المركزي، الأمر الذي يعني تحكم البيروقراطية، وتنميط الحياة في تجاوز للخلافات الأيديولوجية الظاهرية، من ناحية، ويشير إلى أن حال الإنسان في المجتمع الصناعي الاشتراكي، لا تختلف عنها في المجتمع الصناعي الرأسمالي، حيث التشيؤ والاستلاب والاغتراب والتسلع... إلخ[33]. لكن هذا التصور لم يلق ذيوعا، لتستمر الطروحات الأيديولوجية حاضرة بشدة في المجتمعات كافة.

وقد يكون موقف علماء الطبيعة من الأيديولوجيا برهانا ناصعا على أنها تشكل عقبة فعلا أمام خيال سياسي علمي، نظرا إلى ما يتحلى به هؤلاء من التزام صارم بمناهج العلم وأدواته، من جهة، واعتقادهم بأهمية الإبداع وإطلاق الخيال وحدوث الإشراقات التي تقوم على الحدس والاستبطان، من جهة أخرى. وقد نظر علماء السياسة، الذين يريدون لها أن تكون في انضباط العلوم الطبيعية، إلى الفكر الأيديولوجي بامتعاض شديد، ظانين أن الارتباط بمعتقدات مسبقة لا تبنى على تجارب شخصية هو من قبيل المراهقة الفكرية[34].

ولذا رفع هؤلاء شعار «التحرر التام من الأيديولوجيا». وتعمق هذا التوجه بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، إذ اعتبر البعض أن انهياره كقائد للشيوعية في العالم كان نهاية لعهد ما في طريقة التفكير، ونقطة بداية ذات معنى لصياغة موقف محدد للأيديولوجيا[35]. ولا يعود القول بـ «نهاية الأيديولوجيا» إلى تلك اللحظة التاريخية الفارقة فقط، بل يرجع إلى تاريخ سابق على ذلك، مرتبط بالشيوعية أيضا. فحين مات ستالين خرج رايموند أرون ليقول في كتابه «أفيون المثقفين» إن ستالين لم يحمل

معه الستالينية وحدها إلى القبر، بل أيضا عصر الأيديولوجيا برمته. لكن التعبير ظهر لأول مرة في كتابات الروائي ألبير كامي، في العام 1946 على وجه التحديد، حين انتقد جهود الاشتراكيين الفرنسيين لعقد مصالحة بين الماركسية والأخلاق.

وبعد هذا بسنوات استخدم هـ. ستيورات هيوز، الأستاذ بجامعة هارفارد، تعبير «نهاية الأيديولوجيا» في دراسة له عن مزاج المثقفين الأوروبيين، انتقد فيها اليسار بصيغ لاذعة، واتهمه بأنه يفتقد القدرة على الإقناع. ثم جاءت جوديث ن. شكلار لتتحدث في كتابها «ما بعد اليوتوبيا: انهيار الإيمان السياسي» عن نهاية الراديكالية، وتصفها بأنها صارت «موضة بالية»، وتعتبر أن الاشتراكية ليس لديها ما تقوله[36].

والمشكلة في الأيديولوجيا أن التخلص منها ليس بالسهولة التي يتصورها أعداؤها، فسقوط الأيديولوجيات لا يكون لإخلاء العالم تماما منها، لكن لإفساح الطريق أمام أيديولوجية جديدة. وفي هذا الصدد يتحدث جاك سنايدر عن أن سقوط حائط برلين كان رمزا لانتصار الليبرالية على أيديولوجيتين نافستاها طوال القرن العشرين، وهما الشيوعية والفاشية القومية. لكنه يعتبر أن هذا الانتصار جعلنا نصل إلى «نهاية التاريخ»، حيث انهارت الديكتاتوريات، واكتسحت الديموقراطية الدول السلطوية في أمريكا اللاتينية وجنوب شرق أوروبا وشرق آسيا، وفي كل مكان طُبق فيه اقتصاد السوق[37].

من الصعب دفن الأيديولوجيا، على الرغم من أن الحقيقة الجلية التي تبين أن الأيديولوجيات التي عرفها العالم حتى الآن لم تنجح في إسعاد البشرية ورفاهتها، وأن الوصول إلى «أيديولوجيا حديثة» يرتضيها الجميع أمر غير يسير، بل غير مطلوب في نظر كثيرين. فالتمسك بالخصوصية، النابع من إحساس قوي بالهوية، لايزال يلزم مجتمعات عديدة، ويسيطر على أذهان الأغلبية الكاسحة في كل زمان ومكان؛ فحتى في أكثر هذه المجتمعات تلمسا لطريق الحداثة، نجد القريحة الشعبية لاتزال حريصة على إنتاج فولكلورها، ووضعه في وجه أي تيار يريد أن يجرف هذه المواريث والتقاليد الراسخة كالجبال الرواسي.

نعم، يستعمل كثيرون لفظ أيديولوجيا للحديث عن شيء كريه أو ممقوت، يفسد ولا يصلح، ويشد إلى الخلف دوما، ولا يدفع إلى الأمام أبدا، ويقود إلى ممارسة سلوك عنيف وعدواني ضد المختلفين في الرأي والاتجاه. لكن حتى أولئك الذين يكرهون الأيديولوجيا، فإن كراهيتهم هذه حين تنتظم في أفكار محددة، ينتمون

إليها ويدافعون عن اعتناقها ويبررون بها الظواهر والوقائع والسلوكيات، فإنهم يقعون تحت طائلة أيديولوجيا أو يعتنقون إحداها، حتى لو كانوا لا يشعرون بذلك. ليس هذا فقط، بل إن أيديولوجيتهم هذه، التي قد لا تأخذ مسمى معينا أو اصطلاحا محددا، تبدو ممقوتة بالنسبة إلى أعدائهم، تماما كما هم يمقتون الأيديولوجيات التي تدفع هؤلاء الأعداء إلى تبني الصراع ضدهم، أو العمل في الاتجاه الذي لا يحقق مصالحهم، ولا يمكنهم من تحقيق أهدافهم.

فالأيديولوجيا لديها قدرة عجيبة على أن تتغلغل في كل ما ننتج من أفكار، وما نبدع من فنون، فهي موجودة في الأفكار السياسية التي نتداولها في مراكز الأبحاث، وأروقة قاعات الدراسة، ودهاليز الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والعمالية، والجمعيات الأهلية. وهي موجودة في حياة الناس اليومية، في السوق والبورصة، وفي المطاعم وأمام المخابز، وفي حديث الأسرة حول مواقد الشتاء التي تزهر باللهب.

والأيديولوجيا متضمنة بدرجات متفاوتة في الفلسفة بمختلف ألوانها، وفي أشد حالاتها تجريدا وتعقيدا ومنطقية، وفي مختلف ألوان العلوم الإنسانية، مثل الاقتصاد والاجتماع والتربية والتاريخ وعلم النفس والأنثروبولوجيا، وفي الإبداع الأدبي، نثرا وشعرا، وفي الرواية والقصة والمسرحية والنقد والقصائد والفولكلور الذي ينتقل من جيل إلى جيل، وهي كامنة في الفن السينمائي والتشكيلي ورسوم الكاريكاتير. إنها موجودة بدرجات متفاوتة على استحياء أو بشكل صارخ فاضح، وتفرض نفسها حتى عندما نتصور أننا نتخلص منها، ونجهز عليها، ونفكر في غيرها.

وإذا كان الفرار من الأيديولوجيا صعبا، فإن البديل هو تفكيك أبنيتها، بحيث ننزع عنها بعض الأوهام، مثل الحديث عن ارتباطها بالطبيعة البشرية، والادعاء بعلميتها التامة، واستخدامها في تبرير حتى أكثر الأخطاء فداحة، وجمودها عند نقاط محددة لا تفارقها بدعوى التمسك بالجوهر. عند هذا الحد ستنجلي «الأيديولوجيا» وتتخلص من شوائبها العديدة، لتؤول في النهاية إلى «منظومة» من القيم السياسية، تختلف من أيديولوجية إلى أخرى، لكنها جميعا تمثل قيما أصيلة لا يمكن للإنسانية أن تعيش وتتقدم من دونها.

عند هذا الحد يمكن تخفيف التأثير السلبي للأيديولوجيا في الخيال السياسي العلمي بقدر المستطاع، لاسيما إن جرى الالتزام بمناهج واقترابات ومؤشرات علمية.

لكن تبقى هناك مشكلة أشد تعقيدا، ألا وهي استعمال «الخيال السياسي» في خدمة الأيديولوجيا.

والمثال الصارخ على هذا هو ما ذهب إليه المفكران الأمريكيان: فرانسيس فوكوياما في حديثه عن «نهاية التاريخ وخاتم البشر» بانتصار الليبرالية، وصمويل هنتنغتون في تناوله لما أسماه «الموجة الثالثة للديموقراطية»، حيث يكسب التوجه الديموقراطي أرضا جديدة في نظره، وتسري قيمه من مكان إلى آخر باستمرار ملحوظ. فهذه التصورات التي أعدت في معامل الاستخبارات تبدو في ظاهرها نوعا من الخيال السياسي العلمي، لكن باطنها يبين أنها أيديولوجيا مقنعة، أرادت الولايات المتحدة الأمريكية - من خلال إطلاقها - أن تبسط نفوذها على العالم بشكل أو بآخر، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.

وهناك من طرح رؤى مناقضة لمقولة نهاية التاريخ، كنوع من الخيال السياسي المغرض، لكنه في الوقت ذاته لم يرق له التمسك بالأيديولوجيا. فعلى سبيل المثال، اعتبر شانتال دلسون أن أفول نجم الأيديولوجيات يفسح في الطريق أمام «دولة القانون» التي لا يمكن أن تتموضع إلا وسط مجتمعات فردية وعلمانية. ولأن هاتين الخاصيتين تفتقدهما أغلب بلدان العالم، وفقا لرأيه، فإن التاريخ يبقى مفتوحا أمام البشر ليبذلوا جهدا في سبيل الوصول إلى «مملكة العقل»، التي تتخلى عن التفكير «الكلياني» أو «الشمولي» الذي تتسم به الأنظمة السياسية القائمة على أسس أيديولوجية[38].

وما سبق، إن كان يشير إلى أن دلسون يتعامل مع الأيديولوجيا على أنها مسألة سلبية لأنها تعوق الوصول إلى دولة القانون، فإنه لا يعني أبدا أنه قد نأى بطروحاته عن الوقوع تحت طائلة الأيديولوجيا. فتأسيسه لهذه الدولة على مبدأين عريضين هما الفردية والعلمانية جعل تلك الأطروحة تلبس رداء أيديولوجيا إلى حد ما.

وهناك من ذهب إلى حد أن يقول إنه من قبيل الخيال السياسي المريض، وليس الصحي، أو من قبيل الأوهام، أن نتحدث عن إمكانية التخلص من الأيديولوجيا تماما، وأن الشعار الذي يدعو إلى التحرر التام منها هو «تخيل ساذج»، وأن الذين يصورون لأنفسهم أنهم تمكنوا من تحقيق ذلك واقعون ضحية وهم كبير، «فالمرء الذي يطالب بإلغاء الأيديولوجيا وإزالتها من الوجود لا بد له من تقييمها أولا قبل الإقدام على تلك الخطوة. وعملية التقييم ذاتها تشكل في حقيقة الأمر نوعا من تبني أيديولوجيا معينة، ومن ثم فإن تأثير الأيديولوجيا بالنسبة إلى الواقع الاجتماعي سيظل قائما،

حيث إنها تقدم إجابة عن أهم الأسئلة التي تتعلق بحياة البشر، ولذا فإن التخلص منها كلية يصبح مسألة عديمة الفائدة» أو مجرد وهم كبير[39].

فكل منا يحمل أيديولوجيا ما بوعي أو من دونه، إذ إن كل شخص يثمن قيما محددة، مثل الحرية والمساواة والعدالة والسلطة والملكية والقانون. وكلنا يحمل أشياء مسبقة للحكم على الأمور، حتى الذين ينكرون ذلك أو يدّعون التخلص من هذه الحالة، تحت حالة من التجرد العلمي تسمى «الموضوعية».

فنحن ننظر للعالم من خلال تصوراتنا وأفكارنا، ونرتبط بهؤلاء الذين يحملون أفكارا ورؤى متطابقة أو متشابهة مع تلك التي نعتنقها[40]. ليس هذا فقط، بل هناك من يربط الأيديولوجيا بالطبيعة البشرية، فالليبرالية الكلاسيكية أُسست على أن الطبيعة الإنسانية أنانية لكن رشيدة، ومن ثم بات لديها المجتمع المثالي هو الذي يوفر لأفراده أقصى درجات الحرية في تحقيق مصالحهم الذاتية، في إطار منافسة بين الجميع حول تلك المصالح. والاشتراكية انطلقت من أن البشر متساوون ومتعاونون، ولم يجبلوا على الأنانية والتنافس، اللذين هما سمتان لمجتمع طبقي منقسم، يفسد الطبيعة الإنسانية ويحول دون تقدمها.

وبنت الفوضوية، التي تنطوي على نوع من الخيال السياسي الجامح، رؤيتها على أن طبيعة البشر تتسم بالعفوية الاجتماعية، ولذا فإنها تفسد حين يمارس البعض سلطة على الآخرين، ويصبح المجتمع مثاليا حين يخلو من سيطرة أي أحد على آخر [41]. أما دانييل بيل فلم يتلمس الطبيعة البشرية ليعيد التفكير في موقفه من الأيديولوجيا، بل راقب الأحداث والوقائع، وبعد أن هاجم الأيديولوجيا بشدة في الطبعة الأولى من كتابه «نهاية الأيديولوجيا» المنشورة في العام 1960، ووصفها بأنها افتقدت حيويتها الثقافية، عاد بعد عامين فقط، لينصح بألا ندير ظهورنا لها تماما، وليتحدث عن «يسار جديد»[42].

لكن حتى أولئك الذين لا يتخيلون أن هناك عالما خاليا من الأيديولوجيا، سواء لإيمانهم بضرورتها أو لاعتقادهم في ارتباطها بالطبيعة البشرية، أو أنها تفرض وجودها حتى في الوقت الذي يدعي فيها البعض أنهم يعملون في ظل غيابها، لم ينكروا أن الأيديولوجيات تعرضت لتصدع بفعل انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط الشيوعية في أوروبا الشرقية.

وهنا وجد المتمسكون بها أنفسهم ممزقين بين الانحياز لها، وعدم القدرة على الفكاك من الأوضاع التي ترتبت على تصدعها واهتزاز العديد من أركانها. ومن ثم كان لا بد من مرونة في التعامل مع الأيديولوجيا، بحيث تُسْقَط التصورات الجامدة والانحيازات المريضة والأوهام السائدة حول أي شكل من أشكالها، وذلك في ظل اعتقاد واقعي مفاده أن الأيديولوجيا ستستمر بأشكال أخرى، وأنها ستظل أداة للصراع البشري، ومناطا للتمييز بين مختلف النظم والمجتمعات.

وفي ضوء هذا التصور، الذي رشدته التجارب المريرة في متابعة جدل الأيديولوجيا في الواقع، بات من المتوقع أن تنحو الأيديولوجيات منحى عمليا، بحيث تصبح المصلحة ضالتها المنشودة، حيث تجدها تستوعبها وتجعلها في قلب مبادئها، مما يقود في بعض الحالات إلى توسيع نقاط التماس والتداخل بين الأيديولوجيات المتعارضة، بحيث لا تتحرج من الاستعارة بعضها من بعض، والقيام بتوفيق مبادئ وتصورات من هنا وهناك بما يحقق المصلحة الاجتماعية، مادامت كل أيديولوجيا تنفرد بتصورات وثوابت عامة تميزها عن غيرها في نهاية المطاف[43]، ومادام هناك انفتاح على «الآخر»، وتسامح مع عطائه الفكري، وتفهم لأسلوب حياته، ورغبة صادقة في البحث عن الحقيقة.

فالأيديولوجيتان الكبيرتان في القرن العشرين، الاشتراكية والرأسمالية، شهدتا من النقد الذاتي والتطويع ما يبرهن على أن موت أيديولوجيا ما، وانقراض من يتبعون خطاها، أمر غير واقعي. وهنا يقول سمير أمين: «لا نؤمن بشيخوخة الماركسية وبعض النظريات الأخرى، بل على العكس نعتقد أن المادية التاريخية لم تفقد بعد مغزاها العلمي»[44].

علاوة على ذلك فإن اليسار أصبح اليوم، بدرجة كبيرة، يتحدث بلغة ليبرالية، مستخدما مصطلحات مثل الحقوق والتعددية[45]. أما بالنسبة إلى الرأسمالية، فقد جددت نفسها، وفق ما يقول فؤاد مرسي، فهي تغلبت على أخطر التناقضات في اللحظة المناسبة، وصارت رأسمالية معاصرة، تستجيب لمقتضيات العصر بشكل حيوي، وما كان لهذا أن يحدث لولا أن منظري الرأسمالية ومطبقيها تمتعوا بخيال سياسي علمي، جعلهم يتفادون المزالق التي وقعت فيها الاشتراكية.

فقد استطاعت الرأسمالية أن تجدد قواها الإنتاجية، وتعيد تنظيم علاقاتها في هذا الشأن بحيث لا تفلت من قبضتها، واستعادت أكثر مستعمراتها القديمة،

لتظل على الرغم من استقلالها أطرافا لمراكز الرأسمالية الرئيسة. وتختلف الرأسمالية المعاصرة بوجه بيّن عما كانت عليه في مطلع القرن العشرين وأواسطه بفعل الثورة العلمية والتقنية، وقد تمكنت من تصويب مسارها في ظروف احتدام المواجهة مع الاشتراكية، وفقدان المستعمرات السابقة، بفعل حركات التحرر في دول العالم الثالث، واستطاعت أن تحدث صورتها ومسلكها بطريقة مذهلة، لتقوم رأسمالية ما بعد الصناعة، التي جعلت العلم نفسه قوة إنتاجية، وفتحت آفاقا جديدة للإنتاج، ووسعت السوق، وصاغت علاقة ذات طابع خاص بين الإنسان والآلة[46].

وإذا كانت «مرونة» الرأسمالية وتلمسها المصلحة وامتثالها للخيال السياسي الخلاق، واستفادتها من عطاءات الأيديولوجيات الأخرى، إلى حد ما، بما فيها الشيوعية، قد حمتها من الانهيار، حتى الآن، فإن بعض القيم المحمولة لدى الاشتراكية لم تسقط بعد، إذ إن المساواة والعدل الاجتماعي سيظلان غايتين لكل من يبحث عن عالم أفضل بالنسبة إلى المسحوقين والفقراء، سواء كانوا أفرادا أو دولا، خاصة في ظل «توحش» الرأسمالية، وتعامل الدول المتقدمة اقتصاديا بطريقة «غير متكافئة» مع الدول النامية والفقيرة، وفي ضوء اتساع الفجوة باستمرار بين الطبقات في العديد من دول العالم، وستظل هذه الرؤية تداعب الخيال السياسي لكثيرين.

فسقوط الاتحاد السوفييتي، إن كان قد قاد إلى انهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية، لم يمنع من انتصار العديد من الأحزاب ذات التوجه الاشتراكي في العديد من دول أوروبا الغربية. وحركة «العولمة» التي تعد أقصى مراحل الرأسمالية العالمية، حتى هذه اللحظة، تجد من يناهضها، حتى داخل البلدان الرأسمالية نفسها، ويطرح بعض هؤلاء آراء ذات صبغة اشتراكية في كثير من الأحيان.

إن قضية تطوير الأيديولوجيا لنفسها كي تتماشى مع الواقع، أو على الأقل تسليمها بضرورة تغيير شيء ما من بنيتها الفكرية وأساليبها، حتى تحافظ على استمرارها، لم تقتصر على الأيديولوجيات الكبرى مثل «الليبرالية» في شقها الاقتصادي المتمثل في الرأسمالية فقط، بل إن بعض الأيديولوجيات المحدودة، غيّرت فيما بعد بعض اقتناعاتها، كي تقي نفسها من الانقراض، والخروج خارج حركة التاريخ.

أما الأيديولوجيات التي افتقدت قدرا من الخيال السياسي الخلاق، ووقفت جامدة عند أفكار معنية لم تتعدّها، أو تجعلها تدخل في جدل حقيقي مع الحياة، بحيث تُخْتبر مقولاتها على الأرض، فلم تفارق الهامش طوال تاريخها، وتركت القلب لأيديولوجيات أخرى أكثر واقعية.

ويمكن هنا أن نضرب مثالا بالفوضوية أو «اللاسلطوية» التي تبلورت على يدي المفكرين الفرنسي جوزيف برودون (1809 - 1865)، والروسي ميخائيل باكونين (1814 - 1876)، وعلى الرغم من أن هاتين الأيديولوجيتين تشكلان نوعا من «الخيال السياسي» الجامح. فإن هذا الجموح لم يعنِ تعميقا للفكرة، بقدر ما كان خروجا قويا على مسار الواقع، أو ما يجود به الخيال السياسي العلمي.

فمنذ البداية رفضت الفوضوية السلطة والنظام تماما، ومن ثم لم تقبل أيا من أساليب الحكم التي كانت مطروحة آنذاك، الأمر الذي يكشف عنه الحوار التالي بين برودون وأحد الأشخاص الذين ينتمون إلى التيار المحافظ:

- «أنت جمهوري؟

- جمهوري. نعم ذلك، ولكن لا، هذا لا يعني بالنسبة إليّ الدولة والملوك.

- آه حسنا... أنت ديموقراطي؟

- كلا.

- ماذا؟! ... ربما أنت ملكي.

- كلا.

- إذن دستوري؟

- لا سمح الله.

- إذن أنت أرستقراطي؟

- كلا على الإطلاق.

- أنت تريد خليطا من الحكومة؟

- حتى بدرجة أقل.

- إذن ماذا أنت؟

- أنا لاسلطوي»[47].

والتصور الأول عن «الفوضوي» أنه إنسان متمرد، يرفض المجتمع، ولا يقبل بأوصياء عليه، ويحرر نفسه من كل ما هو مقدس، وينبذ الأشخاص الرسميين، ويعتبر الدولة أكثر المفاهيم المسبقة ضررا، وأنها هي التي أعمت الناس طوال العصور. فكل دولة طغيان، وحكم الإنسان للإنسان عبودية، وهو ما يلخصه برودون في قوله: «كل من يضع يده عليّ ليحكمني فهو مغتصب وطاغية... أنا أعلنه خصما لي»[48].

أما باكونين فيعتبر الدولة تجريدا يلتهم حياة الناس، ومقبرة هائلة؛ حيث تسمح كل الطموحات الحقيقية والقوى الحية لبلد - بكرم وسعادة - لنفسها بأن تدفن باسم ذلك التجريد، ويزعم أن النظام التمثيلي بعيد عن كونه ضمانة للشعب، بل على العكس يخلق ويصون الوجود المستمر لأرستقراطية حاكمة ضد الشعب»[49].

ومن ثم لم يجد باكونين في الاقتراع طريقا لتحرره من قبضة السلطة، لكن برودون اضطر إلى تعديل هذا الموقف، استجابة لمقتضيات الواقع، واندمج في الانتخابات البرلمانية. من جهة ثانية، وجدت الفوضوية نفسها معبأة لدفع اتهامها بعدم النظام، فوصفت مسلكها بأنه نظام طبيعي حيوي مستقل ذاتيا، يناقض النظام الاصطناعي المفروض فوقيا عبر سلطات الدولة.

لكن بعض المتحمسين للفوضوية في القرن العشرين راحوا يُعمِلون قدرا من خيالهم السياسي، محاولين تطوير فكرة «التنظيم» هذه، منطلقين من اقتناع يقوم على وجود تفسير خاطئ، أو على الأغلب جدا خطأ متعمد، يزعم أن المفهوم التحرري يعني غياب كل تنظيم. وقد وصفت هذه التصورات عن الفوضوية واللاسلطوية بأنها محض افتراء تام عليها. فالمسألة لا تتعلق بموضوع تنظيم، أو عدم تنظيم، بل بمبدأين مختلفين في التنظيم[50]، ينزع أحدهما، وهو الذي تتبناه الفوضوية أو الأناركية، إلى مجتمع بلا تسلط.

لكن هذه المحاولات لم تكن تجاري قط حركة الواقع أو على الأقل تلاحقها، ولم تكن بالكثافة المطلوبة، ومن ثم ظلت الفوضوية في مرحلة الطوباوية، حيث الحلم بإنسان متحرر من السلطة تماما، بينما كانت أيديولوجيات أخرى أكثر عملية فارتضت بالسلطة، وآمنت بأن الدولة ضرورة، وليست شرا لا بد من القضاء عليه، كما آمن بعض الفوضويين، وكرست جهدها من أجل منع استبداد هذه السلطة، ابتداء من اكتسابها الشرعية من الشعب عن طريق الانتخابات،

وانتهاء بالمساءلة البرلمانية والقضائية للمسؤولين الرسميين، مرورا بتوافر العديد من الحريات العامة.

وعلى النقيض من ذلك هناك أيديولوجيات لا تكفر تماما باستعمال وتوظيف قدر من الخيال السياسي العلمي، ولذا تعيد ترتيب أفكارها، وتلائم أوضاعها مع ما استجد من ظروف، وتطور رؤيتها بما يتماشى مع السياق العام، ولا يخرجها من التاريخ تماما.

لكن مهما طورت الأيديولوجيا بعض تصوراتها لتكتسب شيئا من المرونة، تظل في كل الأحوال حائلا أمام انطلاق الخيال السياسي.

5

مجالات توظيف الخيال السياسي

قادت حاجة البشر إلى تجديد مجتمعاتهم، سواء على مستوى القيم التي تحكمها أو التنظيمات التي تشكل رافعة لها، إلى إطلاق خيالهم بقوة كي يواكب هذه الحاجة المستمرة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، أدى التفكير حول دور وحضور المجتمع المدني إلى شحذ الخيال السياسي على المستوى العالمي[1]. وأظن أن قضايا من قبيل التغير السكاني والهجرات والإرهاب والحركات الاجتماعية تدفع في الاتجاه نفسه.

وطوال التاريخ الإنساني وهناك من يثبت دوما أن الحاجة إلى الخيال السياسي ضرورية. ويوجد من يدرك هذه المسألة ويعيها تماما،

«تبقى اليوتوبيا درجة عالية من الخيال السياسي، ويبقى الأخير سبيلنا إلى رسم معالمها على الورق، ثم العمل من أجل تحققها في واقعنا، كي نظفر ولو بالقليل من محاسنها»

وهناك من ينخرط فيها ويمارسها دون إدراكها على النحو الذي تتعين عليه، ويتحدد قوامها، أو دون تبلورها بطريقة علمية.

وقد تعددت مجالات توظيف أو استخدام «الخيال السياسي» لتشمل قضايا محلية ودولية تضغط على أعصاب المجتمعات والأمم، وتشكل تحديا شديدا لا بد من الاستجابة له، بدءا من السعي إلى عبور الأزمات وصولا إلى نحت دور دولي، مرورا بالحرب والتخطيط وصناعة الاستراتيجيات والبحث عن المثل العليا وتعزيز دور الصناعات الإبداعية في خلق التماسك الاجتماعي، والحفاظ على الكيانات السياسية ومنها الدولة الحديثة، واستلهام المثل العليا بحثا عن مجتمع أفضل:

(أ) عبور الأزمات السياسية

تعني الأزمة وجود تهديد لشيء جوهري أو هدف قومي مع ضيق في الوقت ونقص في المعلومات، ولذا يكون على من يتصدى لها أن يمتلك خيالا يرمم به نقص البيانات المتوافرة، ويتغلب على مأزق الزمن، فيقلل من سلبيات المفاجأة، ويتفادى التهديد الذي يحيق بالمصالح الوطنية. فالأزمة تؤدي إلى تصعيد تلقائي لسلطة اتخاذ القرار لدى القائد السياسي، وكلما ازدادت حدتها ازدادت درجة تصعيد ومركزية القرار، حيث لا يوجد وقت كاف للتشاور مع المؤسسات السياسية، بل قد تؤدي الأزمة إلى أن تفوض هذه المؤسسات القائد ليتخذ ما يراه مناسبا من قرار، أو قد ينص الدستور على هذا.

وقد لا يستطيع صانع القرار أن يسلك طريقا عقلانيا يتيح له تجميع المعلومات وحساب البدائل، فلا يجد أمامه سوى اللجوء إلى خبرته ونسقه العقيدي وقدرته على التخيل لتساعده على اتخاذ ما يلزم من قرارات أو إجراءات، لاسيما أن وقت الأزمة يتسم بحالة من عدم اليقين الهيكلي Structural uncertainty[2]. ومع تراجع فرصة التوظيف الكامل للقدرات العقلية ينفتح المجال أكثر أمام المشاعر والخواطر والخيال.

ويعد توظيف الخيال السياسي في عبور الأزمة مسألة غاية في الأهمية، إذ إن الأزمات تسقط على الرؤوس بلا هوادة، متفاوتة في أحجامها وخطورتها، ولا بد من الاستجابة لها. فالأزمات أشبه بالجلطات التي لا مناص من تذويبها، وإلا تفاقم الوضع بما لا تُحمد عقباه.

(ب) الخطط والاستراتيجيات

وهما أعلى درجة في التفكير والتدبير والترتيب ونطاق التأثير والأفق الزمني من «السياسة» وإن كانا مثلها يتعلقان بـ «فن الممكن»، والثلاثة متداخلة، ومتشاركة في منظومة الغايات والطرائق، واستخدام الفكر الاستراتيجي بدرجات متفاوتة.

وتبقى الاستراتيجية هي عملية فكرية منضبطة ذات مخرجات وغايات ووسائل محددة بوضوح، وهي تخدم الهدف السياسي الوطني، وتخدم السياسة في إطار التقلبات والتعقيدات والهواجس والغموض. ويصبح «التفكير الاستراتيجي هو القدرة على تطبيق الاستراتيجية في الواقع، ثم صياغة ما يخدم بنجاح مصالح الدولة، من دون تحمل مخاطر يمكن تفاديها، ولذا فهو يتضمن جانبي الفن والعلم معا»[3].

ومفهوم الاستراتيجية هو من المفاهيم المتداولة في مختلف العلوم الاجتماعية، بأقلام وألسنة الباحثين والمتخصصين في الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية،[4] لكن تظل «الاستراتيجية عملا سياسيا محضا، أو يجب أن تكون كذلك على الأقل، ومثل كل الأعمال المسوسة يستلزم النجاح ممارسة حسن تقدير الأمور»،[5] وهذا يتطلب من دون شك قدرا لا يستهان به من الخيال العلمي.

لكن كيف يمكن أن يكون حسن التقدير هذا بالنسبة إلى الاستراتيجية؟

هنا يجيب المفكر البريطاني آيزيا برلين ليعرف «حسن التقدير» بأنه: «القدرة على إدماج مجموعة كبيرة من المعلومات الأولية الظرفية المتغيرة المتشابكة المتعددة الجوانب، وهي التي تحول كثرتها وسرعتها وتداخلها دون تجميعها وتصنيفها.. والإدماج بهذا المعنى هو رؤية المعلومات الأولية، بوصفها عناصر في نمط واحد، مع تداعياتها، لرؤيتها بصفتها مؤشرات إلى الماضي والاحتمالات المستقبلية، حتى تمكن رؤيتها بصورة براغماتية، على معنى ما يمكن أن تفعله ـ أو ستفعله ـ أنت أو الآخرون تجاهها، وما يمكن أن تفعله ـ أو ستفعله ـ هي لك وللآخرين». وبذا تبقى هذه القدرة هي «موهبة» يفتقدها معظمنا، ولا يمكن تعليمها لمن لا يمتلكها، وتبقى عملية صنع القرار الاستراتيجي تترك دوما مساحة أمام تصوراتنا وتصورات الآخرين واعتراضاتنا واحتجاجاتنا وندمنا على النتائج، وسط أشياء تقوم على التكهنات والفرضيات وتدعنا في شكوك مُحيِّرة[6].

وإذا كان من شروط وضع الاستراتيجية وضوح الأهداف وتكاملها وواقعيتها، إلى جانب العقلانية والتخصص والاستمرارية والإلزام والمرونة، فإن أحد أهم هذه الشروط هو الابتكارية والاعتماد على الذات، وهنا يكون للخيال دوره، فمثلا يحتاج تطوير الدول النامية والمتخلفة إلى استراتيجيات ملائمة لظروفها، لاختلاف مواردها وخبرتها السياسية وميراثها التاريخي عن الدول المتقدمة[7].

ونظرا إلى أن التفكير الاستراتيجي يتطلب كلا من التفكير النقدي والتفكير الإبداعي، إلى جانب التفكير في التأثير المتبادل بين المنظومات والتفكير في الزمن والتفكير الأخلاقي، فإن للخيال دوره المهم في صياغة الاستراتيجيات من زاوية الإسهام في زيادة الفهم، وتوسيع التفسيرات المنطقية الممكنة، ووضع الخيارات البديلة، وتحديد الفرص المحتملة[8]. وكل هذا يصب في إطار «صياغة الثالوث الاستراتيجي المتمثل في الأهداف والأفكار والموارد»[9]، وكل منها يحتاج إلى خيال.

وهذا الاحتياج يعود إلى أن الاستراتيجية تتسم بأنها «استباقية توقعية»، إن لم تكن «تنبئية»، وهذا الاستباق يرمي إلى رعاية المصالح الوطنية وحمايتها مما يخبئه المستقبل، ولذا يجب ألا يقوم على التقديرات الجزافية أو الخيالات الأسطورية، إنما على دراسة الاحتمالات والسيناريوهات، ووضع الافتراضات والمنطلقات، والتي تكون بدورها مشروطة بما يجري على الأرض، وبالإمكانات المتاحة[10]. وهذا معناه أن الخيال الذي يوظّف في إنتاج الاستراتيجيات هو خيال منطقي خلاق، يبدو ضروريا حتى يمكننا توقع ما يأتي، واستباق الأخطار، والعمل على تفاديها، أو تحقيق المكاسب وتعزيزها.

(ج) الحرب

يفيد الخيال المحاربين سواء وهم يخططون للقتال، من حيث تحديد المكان والزمان والوسائل والمقاتلين، أو كانوا يديرون المعركة في الميدان نفسه، بعد أن تقرع الطبول وتنطلق حمم النار، أو كانوا يجلسون ليتصوروا شكل الحرب في المستقبل.

وربما قاد «الخيال الاستراتيجي لدى المحاربين»، إن صح التعبير، مجالات عدة في الحياة إلى التطور والتقدم خطوات إلى الأمام، من زاوية أن كثيرا من الاختراعات الحديثة خرجت من رحم الصناعات العسكرية، أو كان التفكير في كسب الحرب دافعا للتوصل إليها، والحاجة إلى الهيمنة أو الردع هي أم اختراعها.

ويقر كلاوزفيتس(*) بأن «جميع القادة العظماء قد تصرفوا انطلاقا من فطرتهم، وحقيقة أن فطرتهم كانت دائما سليمة هي جزئيا مقياس لعظمتهم وعبقريتهم الطبيعية». ويعود تركيز كلاوزفيتس على الحدس أكثر من التفكير الواعي إلى درايته بأن الحروب لا تديرها المعادلات الحسابية على الورق، بل إنما التصرف في الميدان[11].

إننا إن أمعنا النظر في مسار التاريخ فسنجد أن نابليون قد حقق انتصاراته بالخيال العسكري، ونقل هانيبال (حنبعل) أفياله من قرطاجة إلى روما أيضا بالخيال العسكري، وأسس الإسكندر الأكبر إمبراطورية الشرق، ودكّ جنود مصر الساتر الترابي بمدافع المياه أيضا بالخيال العسكري،[12] وكذلك انتصر جيش المسلمين على المشركين في موقعة بدر على رغم أنه كان أقل عددا وعدة، وهزم خالد بن الوليد الروم في معركة اليرموك بقوة أقل من عشر قوتهم، واستطاع البطل الإغريقي ليونيداس برفقة ثلاثمائة رجل أن يعيق تقدم جيش الفرس الجرار من ممر ترموبيل حتى سقط ورفاقه بعد أن قتلوا أضعاف عددهم، ومهدوا الطريق لبلد صغير هو إسبرطة كي ينتصر في النهاية على إمبراطورية الفرس القوية. كما تمكن بضعة آلاف من المقاتلين اللبنانيين من صد الجيش الإسرائيلي في صيف 2006، وقبله استطاع أطفال فلسطين أن يتصدوا للدبابات والبنادق بكومات من حجر، ويحققوا نصرا استراتيجيا على عدوهم المدجج بالسلاح، وتمكن أربعون رجلا أبحروا في قارب صغير ذات ليلة من أن يحرروا كوبا من قبضة الدكتاتور، واستطاع الفيتناميون بسلاح بسيط، وزاد قليل، أن يهزموا الولايات المتحدة الأمريكية.

ولو أن الداخلين إلى هذه المعارك جلسوا ليحسبوا حسابات الواقع، وأعطوها وحدها قرارهم، لهُزموا هزائم منكرة وفي زمن يسير، لكنهم تجاوزوا واقعا ينبئهم، للوهلة الأولى، بعدم تكافؤ قوتهم مع قوة عدوهم، وأطلقوا العنان لخيال جَسور، مكنهم من الانتصار أو الصمود.

ولهذا تحدث الخبراء والمؤرخون الحربيون عن «الفنون العسكرية»، منطلقين من أن التاريخ العسكري هو وقائع وأحداث متتابعة من ممارسة فن الحرب، التي كان لها دور كبير في تطور مجالات أخرى.

(*) كارل فون كلاوزفيتس (1780 - 1831)، الجنرال والمنظّر العسكري البروسي الشهير، ومؤلف كتاب «عن الحرب» Vom Kriege. [المحررة].

وهنا يقول فرنان شنيدر في كتابه «تاريخ الفنون العسكرية»: «إن التاريخ العسكري، منذ عصر أجدادنا سكان المغاور إلى عصرنا الذري، قد أسهم إسهاما فعالا في التطور المستمر للعلوم البشرية، هذه العلوم التي أسهمت أيضا، بنسب متفاوتة في تحسينه وازدهاره. إن فنون القادة الكبار قد تأثرت تأثرا كبيرا بعلوم معاصريهم وطرق تفكيرهم، فهؤلاء القادة يستفيدون من أنهم نشأوا على أفكار رؤسائهم السائدة في زمانهم. فالإسكندر اقتبس تكتيكه من الفكر الإغريقي، كما استمد بونابرت غذاء نبوغه من نظريات مفكري القرن الثامن عشر، عسكريين كانوا أو مدنيين، أضف إلى ذلك أن المؤلّف القيم الذي وضعه كلاوزفيتس عن الحرب، وهو أفضل ما كتب في باب الفنون الحربية، لا يعتبر ثمرة دراسة لفنون نابليون فقط، بل إنه إضافة إلى ذلك دراسة لسلسلة من المذاهب المستوحاة من أفكار من هم أمثال كانط وهيغل»[13].

ولعل المثل الرائع الذي يمكن أن نضربه في هذا المقام هو المفكر الصيني «سون تسي»، الذي عاش في القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد غير أن أفكاره وتصوراته عن الحرب لاتزال صالحة للقراءة، وقادرة على إلهام الجنرالات في مشارق الأرض ومغاربها، لأنه كان يمتلك قدرة هائلة على إعمال الخيال، وبالتالي اعتبر الحرب فنا، وفي الفن يحضر الخيال غزيرا، ولذا فإن إيجاز ما ورد في كتابه يبدو عملا مفيدا إلى أقصى حد ونحن بصدد الحديث عن توظيف الخيال في الحرب، لأننا سنكتشف معه كيف تمكن رجل عاش في هذه الحقبة البعيدة أن يكتب نصا له كل هذه الطاقة من الخيال، بما جعله يتجاوز زمنه وحدود أمته، ويسيح في مشارق الأرض ومغاربها ليستفيد منه المحاربون المختلفون تماما في كل شيء تقريبا.

وتسي ابتداءً هو سليل عائلة عسكرية، وسبق لأجداده أن سجلوا خبرتهم في المعارك، وتركوها لمن أتوا بعدهم كي يستفيدوا منها، وقد ألف كِتاب «فن الحرب»[14]. الذي هو من أقدم وأشهر الكتب الحربية في الصين، بل هو أقدم كتاب حربي في العالم أيضا، إذ يتمتع بمكانة بارزة في تاريخ البحوث الأكاديمية الحربية، وهو جزء مهم من الثقافة والتقاليد الصينية الممتازة، ومضمونه دقيق وعميق وواسع جدا، وقد أحدث تأثيرا بعيد المدى في تطور العلم الحربي القديم بالصين، ويعتبر مرجعا أساسيا وحضاريا عنها.

ولايزال كثير من حقائق الكتاب تحظى بأهميتها السابقة نفسها، فهي مفيدة في بناء وتطوير النظريات الحربية الحديثة، واستخدام مبادئها وأفكارها في الحياة الاجتماعية وفي عالم الأعمال، وهي تطبق على نطاق واسع في إدارة المؤسسات والتنافس التجاري والمباريات الرياضية والأنشطة الأخرى.

فالحرب هي الحرب، تختلف الأزمنة، وتتطور تقنيات السلاح، لكن تبقى الفلسفة العامة وما تتضمنه من قواعد حاكمة للحروب كما هي تقريبا، فالجوهر باق، وفي القلب منه ما يمكن أن يكون الجانب الذي نطلق عليه وصف الفن، بأكثر ما يكون الأمر مرتبطا بالعلم وتطوراته.

يشتمل الكتاب على قلة عدد صفحاته موضوعات غاية في الأهمية منها: وضع الخطط، وشن الحروب، وتدبير الهجمات، وطبيعة القوة العسكرية، واستغلال الإمكانات المتاحة للجيوش، وأنواع أراضي المعارك، والهجوم بالنار، وتوظيف الجواسيس. ويدعو تسي في كتابه إلى ضرورة دراسة خمسة أشياء أساسية عن العدو منها مدى ارتباط الشعب بالسلطة، والمناخ، والتضاريس، والقيادة، ومبادئ التنظيم.

ويرى تسي أن «القائد المحنك هو الذي يحصل على احتياطيه من الأسلحة من بلاد العدو»، ويرصد خمسة أخطاء يقع فيها القائد، فيقول:

- إذا كان القائد متهورا يمكن قتله.
- وإن كان جبانا يمكن أسره.
- وإذا كان حاد المزاج يمكن أن يستثار غضبا ويخطئ.
- وإن كان مرهفا ذا إحساس متضخم بالذات والكرامة، يمكن استفزازه بالإهانة.
- وإن كان ذا طبيعة رحيمة فقد يضطرب ويتضايق.

وينصح الكتاب قادة الجيوش بما عليهم أن يفعلوه حين يأخذون مواقعهم في مواجهة العدو ويقول: عند عبور الجبال لا بد من البقاء في الأودية المجاورة، وعند إقامة المعسكرات يجب اختيار الأرض المرتفعة لمواجهة الشمس.. وعند عبور نهر يجب البقاء بعيدا عنه، وعندما يعبر العدو المتقدم لا تقابله في وسط الماء، بل من الأفضل أن تسمح لنصف قواته بالعبور وحينئذ تضربه.

ويقسم تسي الأرض وفقا لطبيعتها إلى أرض ممهدة أو معقدة خداعية أو رمالها متحركة أو ضيقة وشديدة الانحدار أو بعيدة، ويرى أن كل أرض لها

إن قدرة تسي على الخيال جعلته ينطلق من أن الحرب بلاء، لكن قد تفرض على جيش وهو يكرهها، وعلى أمة مسالمة لا تجد أمامها مفر من رد العدوان، فإن جاءت فلا بد من أن تكون مستعدة لها، وأن تديرها ليس على أنها انعكاس لقدرتها على تصنيع السلاح أو امتلاكه، وترجمة للعلم ومشتملاته، إنما أيضا بوصفها فنا، وهذا ما يميز جيشا عن جيش، وقائدا عن قائد.

ولهذا كان المفكر والمؤرخ العسكري ليدل هارت يرسم لوحة بالكلمات يتخيل فيها وضع الحرب قائلا: «في الحرب نماثل رجلا يبذل كل جهده للبحث عن عدو في الظلام، والمبادئ التي تحكم تصرفنا ستكون مماثلة لتلك التي يمكن أن يتبناها على نحو طبيعي. يمد الرجل ذراعا لكي يتلمس طريقه إلى عدوه (استكشاف). وحينما يلمس خصمه يتحسس طريقه إلى رقبة الأخير (استطلاع)، وبمجرد أن يبلغها يمسكه من ياقته أو من رقبته حتى لا يتمكن خصمه من الفكاك أو الرد عليه بطريقة مؤثرة (تثبيت)، ثم يضرب بقبضته الثانية عدوه، الذي أصبح عاجزا عن تفادي الضربة. ضربة قاضية حاسمة (هجوم حاسم). وقبل أن يستطيع عدوه أن يفيق يتابع وضعه المميز لكي يجعله فاقد القوة نهائيا (استثمار)»[15].

وهناك رؤى عملية أشمل عن سيناريوهات وضعت لحرب قادمة، مثل تلك التي حواها تقرير أعده مجموعة من الخبراء الأمريكيين برئاسة الأميرال ديفيد جيرمايا، نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، يعرض مسارات الصراعات المحتمل وقوعها بقوة بعد انتهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي المنهار وعقب حرب الخليج 1991، ويحدد عدد ونوعية القوات والأسلحة التي ستستخدمها القوات الأمريكية والميزانية اللازمة لذلك.

وحدد التقرير نطاقا زمنيا يتراوح بين العامين 1994 و1999، متصورا سبع أزمات محتملة قد تجر واشنطن إلى الحرب وهي: تهديد جديد في منطقة الخليج على يد العراق، وهجوم مباغت من قبل كوريا الشمالية على جارتها الجنوبية - وإمكانية حدوث هذين السيناريوهين بشكل متزامن - ونشوب توترات في دول البلطيق، واحتمال حدوث انقلابات عسكرية تهدد أمن أمريكا ومصالحها أو قيام حرب بين فصائل الجيش الفلبيني بعد تخفيض الوجود العسكري الأمريكي هناك، وإمكانية تحالف الإرهابيين وتجار المخدرات والعصابات في بنما بما يهدد

الملاحة، واحتمال قيام روسيا بعملية عسكرية توسعية في أوروبا[16]. وعلى رغم أن هذه الحروب المتخيلة لم تقع، فإنها ساهمت في تعزيز جاهزية العسكرية الأمريكية وتفوقها.

لكن الحاجة إلى الخيال لا تقتصر على إبداع طرق أو أساليب للتعامل مع الميدان أو التفكير فيما سيجري فيه، إنما تمتد إلى تخيل وضع الحرب في المستقبل، وما إذا كانت ستظل مرتبطة بدوافعها القديمة مثل تحقيق المصلحة وتعزيز المكانة والانتقام وحفظ الأمن، أم أن قيودا جديدة ستطرأ على الدول في اتخاذ قرار الحرب على خلفية أي من هذه الدوافع[17]. وفي كل الأحوال فإن باب التفكير سينفتح على مصراعيه ليتخيل شكل الحروب ونوع السلاح المستخدم فيها والمهام الجديدة التي ستجد الجيوش نفسها أمامها والأماكن التي ستطلق فيها النيران[18]. وفي كل الظروف أيضا ستبقى الحرب بمنزلة «إزميل سيئ لنحت الغد»، كما قال مارتن لوثر كينغ.

لقد بات من الواضح أن ثمة عددا قليلا من المجالات قد شهدت فيها مسيرة البشر تطورا هائلا، وكان الأكثر إثارة واتساقا في هذا التطور هو مجال الحروب وصناعات الأسلحة، على امتداد تاريخها. إنها مسيرة تكررت فيها إعادة تعريف التكنولوجيا المتقدمة وتطبيقاتها لإنتاج معدات جديدة ذات تعقيد تكنولوجي أبعد من الخيال في كثير من الأحيان[19].

فمجال الحروب، فنونها واستراتيجياتها وأدواتها، يشهد تطورات لا تنقطع. فعلى سبيل المثال، دفعت الحرب «اللامتماثلة» والإرهاب الدولي الدول الكبرى إلى تطوير قدرات وتدريبات جيوشها بما يتناسب مع هذا، إلى جانب التوسع في استخدام الآليات الموجهة، وعلى رأسها «الطائرات من دون طيار»، وبات الطريق واسعا أمام المستويات المتزايدة من الروبوتات الذكية، التي سيكون لها مكان راسخ في ساحات معارك الغد، وستشهد حروب المستقبل «تشكيلة متنوعة من الروبوتات من حيث الحجم والتصميم والقدرات والاستقلالية والذكاء، وستبنى الخطط والاستراتيجيات والتكتيكات في تلك الصراعات المستقبلية على عقائد جديدة هي الآن في طور التكون، ويحتمل أن تشمل كل شيء، بدءا بالسفن الروبوتية، وأسراب الطائرات غير المأهولة المستقلة إلى محاربي الحجيرات المكعبة الذين يديرون الحرب من مسافة بعيدة. وقد تمثل القوات التي تخوض تلك الحروب حكومات أو مجموعات غير

حكومية على السواء، وربما أناسا مهووسين يمتلكون قدرة على الفتك كانت من قبل في أيدي الدول، وفي تلك المعارك ستضطلع الآلات بأدوار أكبر، ليس في تنفيذ المهمات فحسب، بل في التخطيط لها أيضا»[20].

وراحت تظهر اتجاهات جديدة في العلاقات المدنية - العسكرية، وأخذ القادة المدنيون والعسكريون يتفاعلون على المستويات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية في آن، وينتقلون من مجرد التعايش إلى التعاون في بناء القدرات، وفهم واحترام التفويضات الضرورية والمستقلة، وتعزيز أدوات الاتصال ومجالات التعليم والتدريب.

وتعزز دور القطاع الخاص في العمليات العسكرية عبر إعداد الجيوش وتجهيزها، والمشتريات الدفاعية، وإدارة المشروعات وتطويرها، وتصاعد دور المتعاقدين في الحروب من مقاولي خدمات دعم القوات، ومقاولي دعم المنظومات، ومقاولي خدمات الحماية الأمنية.

كل هذا سيجعل الجيش في القرن الحادي والعشرين يبدو مختلفا جدا عن الجيوش التي واجهت بعضها بعضا خلال السنوات الأخيرة من الحرب الباردة، حيث من المنتظر أن «يكون الجيش أصغر، وأكثر مرونة، وقادرا على توجيه ضربة أكبر بكثير مما يوحي به حجمه، وسيكون مملوءا بالجنود المحترفين للغاية، والقادرين على تنفيذ مهمات متعددة لم تكن تنفذها فيما مضى سوى وحدات خاصة. وسيرافق هؤلاء الجنود إلى ميدان العمليات مجموعة متنوعة من الأفراد غير العسكريين الذين سيكون كثيرون منهم متعاقدين لتنفيذ مهمات غير عسكرية تعتبر مهمة، ولكنها تتطلب أفرادا غير ماهرين. إن جيش المستقبل سوف يشبه قوة متكاملة البنية، مع تزايد الأدوار التي يقوم بها الأفراد المدنيون والمتعاقدون أكثر من أي وقت مضى. وقد لا يكون الجيش هو العنصر الأكبر، لكنه سيكون العنصر الأهم من حيث ضمان أمن العمليات»[21].

وقد ظهرت ألوان أخرى من الحروب، ستتعزز في المستقبل، مثل «حرب الشبكات» التي تبدو جذابة على نحو خاص لأطراف مؤثرة من دون الدولة، مثل التنظيمات الإرهابية، والمنظمات الإجرامية العابرة للدول، وجماعات الضغط السياسي المتطرفة، وتصعب هزيمتها لغياب هدف واحد يؤدي تدميره إلى إنهاء وجود الشبكة بالكامل[22]. وهناك من يطلق عليها حرب الإنترنت، التي تُشَن

بواسطة الحواسيب المتقدمة وشبكة الإنترنت، بغية إحداث ضرر في نظم معلومات الخصوم؛ وفي المقابل توجد حرب دفاعية من النوع نفسه لحماية النظم الخاصة بالمهاجمين، وهناك من يطلق عليها حرب المعلومات[23].

إنها حرب «الفضاء الإلكتروني» التي لا يمكن التعامل معها على أنها نوع نظيف من الحروب لا ضحايا فيها، ومن ثم يمكن تبينها لتجنب شرور الحروب التقليدية؛ ففي الحقيقة هي نوع من الحرب السرية التي تبقى خافية على عيون عموم الناس، لكنهم هم الذين سيدفعون ثمنها أيضا، سواء الأفراد أو الشركات العامة والخاصة[24].

وتختلف مجالات الحروب تلك عما تسمى «حرب الأفكار» التي تقوم على الدعاية، والتي هي «ذخائر ينتجها العقل، وتوجه إلى العقل، وتعد أسلحة أثبتت أنها لا تقل أهمية عن أي من الأسلحة التي ابتكرها الإنسان»[25].

(د) مكافحة الإرهاب

لن تفلح طريقة رد الفعل، أو الحرب الدفاعية، في وضع حد للإرهاب، إن لم يكن بالقضاء عليه قضاء مبرما، فعلى الأقل تقليل خطره إلى أدنى حد، وتعويق وجوده إلى أقصى مدة ممكنة، وهي مسألة تبدو ملحة لأي دولة وأي مجتمع يواجه أفعال الإرهابيين، من قتل وتخريب وتدمير.

والحرب الناجعة في مواجهة الإرهابيين يجب أن تعتمد على «المبادأة» أو «المبادرة» التي تمكننا من مداهمة الإرهاب في طريقة تفكيره، ووسائل تدبيره، على حد سواء، بما يشتت جهد الإرهابيين، ويحبط أعمالهم، ويسهل عملية الوصول إليهم، والقبض عليهم لمعاقبتهم بما يستحقونه من جزاء.

لقد سمعنا وعودا كثيرة من كبار الساسة في العالم عن استئصال شأفة الإرهاب، لكنها لم تُجدِّ نفعا، فلاتزال ترن في الآذان كلمة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش وهو يقول - عقب حدث 11 سبتمبر 2001: «سنخرجهم من جحورهم وسنسحقهم»؛ وبعد عقد من وعيده هذا اتسعت رقعة الإرهاب، وزادت مكنته، إلى درجة أن استطاع، لأول مرة في التاريخ المعاصر، اقتطاع أرض من دولتين وإقامة «دولة» عليها.

واستفحال الإرهاب يدل على أن الطريقة التقليدية لمواجهته لم تعد شافية ولا كافية، وتفرض ضرورة استعمال بعض الخيال في النظر إلى الإرهاب وصفه ظاهرة،

وإلى الإرهابيين بوصفهم بشرا عدوانيين، تجمعت أسباب لميلاد هذه العدوانية في نفوسهم، وسعوا إلى تنفيذها في الواقع بتلك الطريقة الدموية.

واستعمال الخيال في خطط مكافحة الإرهاب يعني أمرين أساسيين هما:

أولا: أن نعرف كيف يفكر الإرهابيون، ونضع تصورات قبلية لمواجهة تفكيرهم.

وثانيا: أن نعرف كيف يدبر الإرهابيون، ونضع الخطط المسبقة التي تمنعهم من تنفيذ عملياتهم الوحشية.

وهذان الأمران مرتبطان - إلى حد بعيد - بتوفير معلومات وافية عن التنظيمات الإرهابية، من حيث تاريخ نشأتها وأفكارها التي تتباين في بعض التفاصيل من تنظيم إلى آخر، وإن تطابقت في الرؤية العامة، وأماكن توزيعها وتمركزها ونشاطها، وكذلك الشخصيات البارزة في هذه التنظيمات، وخلفياتها التعليمية وشبكة علاقاتها البينية، وما إذا كانت هناك ارتباطات مع أجهزة استخبارات أجنبية من عدمها، وكل العمليات الإرهابية السابقة التي شارك أعضاء التنظيم فيها، ومدى تقييم التنظيم لنتائج هذه العمليات.

فهذه المعلومات ستجعل بوسعنا أن نضع عشرين سيناريو، في الحد الأدنى، للعمليات المتوقع حدوثها في المستقبل، كأن نقول: في المرات العشر السابقة نفذ تنظيم «كذا» عملياته على النحو التالي (ثم نضع تفاصيل العمليات أمامنا)، ومع الأخذ في الاعتبار أن عناصر التنظيم قد درست طريقة المواجهة التي قامت بها قوات الأمن أو الجيش أو فرق مكافحة الإرهاب، فإنها من المتوقع أن تفكر في عملياتها القادمة على هذا النحو (ونضع السيناريوهات)، وقد تصبح الأمور سهلة إن وجدنا أن عمليات الإرهابيين يغلب عليها التكرار والنمطية، وستصبح أكثر تعقيدا إن وجدنا في هذه العمليات تجديدا مستمرا في وسائل التنفيذ وأدواته.

ومثل هذا يخلق كفاءة عالية في التصدي للإرهابيين، سواء عبر تحصين دفاعاتنا - فإن هاجمونا يجدون أمامهم رجالا مستعدين تماما، ويعرفون كل ما سيُقدِم عليه الإرهابيون، وبالتالي يحبطونه، ويلقنونهم درسا قاسيا - أو بالمبادرة بالهجوم عليهم أو على وسائل دعمهم لإجهاض العمليات قبل الشروع في تنفيذها.

ويمكن تعزيز هذه الكفاءة بجمع مزيد من المعلومات عن تحركات الإرهابيين المستقبلية، فمثل هذا الوضع سيجعل بمكنتنا أن نعدد السيناريوهات ونضبطها،

بل نحاكيها إذا لزم الأمر، على أن يتم هذا في سرية تامة، إذ من الضروري أن يُحرم الإرهابيون من أي معلومات تساعدهم على تغيير السيناريوهات وتجديدها.

لكن يجب الأخذ في الاعتبار أنه مهما كانت المعلومات قوية، وذات مصداقية وغزيرة، فإنها لا تغني عن التخيل. وسأضرب هنا مثلا ناصعا بعملية استجواب الإرهابيين.

فإذا كانت مصادر الحصول على المعلومات الخاصة بالتنظيمات والشبكات والقيادات الإرهابية تتعدد وتتفاوت في مصداقيتها وثباتها وغزارتها ودرجة الاعتماد عليها، فإن أهمها هو استجواب من يتم القبض عليهم من الإرهابيين، وإخضاعهم للتحقيق لدى الشرطة والقضاء. وتلك وسيلة مهمة من دون شك، لأنها تجلب المعلومة من مصادرها الأصلية، لكنها، مع هذا، تبدو قاصرة في مساعدتنا على تخيل السيناريوهات المستقبلية للإرهابيين، أو الطريقة التي سينفذون بها عملياتهم القادمة، وذلك لثلاثة أسباب هي:

1 - قد ينكر الإرهابي بعض الوقائع، ويخفي معلومات عن مستجوبيه، إما من منطلق ولائه للتنظيم الإرهابي وأفكاره، خصوصا إن كان مدربا على التمويه والخداع، أو بغية تبرئة النفس؛ لأن معلومات حقيقية إن قيلت ستؤدي إلى إدانته، وتمهد لسجنه أو إعدامه.

2 - حتى لو اعترف الإرهابي بكل شيء عن التنظيم، من حيث قياداته وأفراده ومصادر تمويله وما يحوزه من إمكانات في التسليح والتدريب، فإن هذه معلومات عن الماضي، أو الأيام الفائتة التي كان فيها الإرهابي شاهدا على هذه المعلومات أو مشاركا في صناعتها، وليست عن اللحظة الراهنة، أو المستقبل. ومن ثم لا يجب التعامل مع ما يدلي به الإرهابي من اعترافات باعتبارها وسيلة سهلة لتحديد الآتي في التعامل مع الإرهابيين من دون بذل أدنى جهد، سواء بتحليل المعلومات المتوافرة من تلك الاعترافات وتوظيفها في تخيل سيناريوهات المستقبل، أو بتعزيز عملية التخيل تلك بمعلومات من مصادر أخرى.

3 - يجب ألا نتصور أن الإرهابيين أناس سذج ومن ثم سينفذون الخطط نفسها، من دون أي تعديل، بعد عملية القبض على عناصر منهم اطلعت على هذه الخطط أو شاركت في صناعتها؛ ففي الواقع لا يعطي التنظيم الإرهابي أسراره لكل أعضائه، بل يضعها في يد حلقة ضيقة، ولا يمنح العناصر العاديين

أو الهامشيين إلا معلومات في حدود المهمات الجزئية المكلفين بها. كما أن بعض التنظيمات تأخذ الشكل العنقودي، فتتوزع إلى مجموعات صغيرة، لا تتعدى همزة الوصل بين كل منها والأخرى شخصا واحدا، وقد تتحرك همزات الوصل تلك بأسماء حركية مستعارة.

وحال القبض على بعض عناصر التنظيم فإن قادته يراجعون على الفور كل ما كان بحوزة المقبوض عليهم من خطط وتدابير ومعلومات، ويقومون على الفور بإلغائها أو تعديلها، ومعاودة الانتشار والاختباء في أماكن أخرى، وتجهيز خطط جديدة، وبالتالي تتحول المعلومات التي اعترف بها الإرهابيون المقبوض عليهم إلى مصدر لتضليل الأجهزة المعنية بمحاربة الإرهاب أو للتمويه عليها، خصوصا إن تعامل معها بلا تدقيق أو خيال.

لكل هذا لا تغني المعلومات المباشرة، مهما كانت درجة صدقها، عن ضرورة استعمال الخيال في تحليل ما يتوافر من بيانات ومعلومات، فبه فقط يمكن أن نحقق هدفين في وقت واحد: الأول هو الاقتراب من تحديد ما أخفاه المعترفون من معلومات. والثاني هو تحويل ما حُصل عليه من اعترافات من سبيل إلى تضليل الأجهزة المناط بها تعقب الإرهابيين إلى وسيلة للإيقاع بالإرهابيين الطلقاء، أو إحباط مخططاتهم، حال تخيل السيناريوهات الأخرى التي سيضعها قادة التنظيم الإرهابي بدلا من تلك التي كُشفت بعد القبض على بعض العناصر.

ومع تصاعد الإرهاب في العالم العربي، إلى حد غير مسبوق، بات من الضروري أن نعمل خيالنا العلمي لصياغة مؤشر علمي لقياسه؛ لنعرف درجاته واتجاهاته ومستوياته، بما يفتح الباب لتحديد رؤى نظرية وخطط عملية لمواجهته. ويمكن أن يكون هذا المؤشر مكونا من عشر نقاط، قابلة للزيادة، هي:

(1) المدى الزمني: أي المدة الفاصلة بين العملية الإرهابية وأختها، فكلما زادت هذه المدة نقول «الإرهاب يتراجع» والعكس صحيح.

(2) الشدة: وهذه النقطة تكمل السابقة، فيمكن أن يكون المدى الزمني بين العملية الإرهابية ولاحقتها كبيرا، لكنها عمليات شديدة في إزهاق الأرواح وتدمير المنشآت. وكلما كانت العمليات شديدة أو «نوعية» نكون أمام إرهاب متزايد بغض النظر عن التباعد الزمني. وعلى النقيض، إن كانت عمليات خفيفة لا تخلف قتلى وجرحى كثيرين وتدميرا واسع النطاق، نكون أمام تراجع لمستوى الإرهاب.

(3) النمطية: أي معرفة ما إذا كانت العمليات الإرهابية تسير على وتيرة واحدة، حيث لا يتبع الإرهابيون أساليب جديدة ومبتكرة ومغايرة في جرائمهم، أم أنهم يجددون فيها فلا تشبه عملية إرهابية أختها، وهذا دليل على مستوى التخطيط والذكاء الإجرامي من عدمه.

(4) التوزع الجغرافي: فإذا كانت العمليات الإرهابية محصورة في بقعة جغرافية ضيقة، نكون أمام عمليات محدودة تمكن السيطرة عليها، والعكس صحيح؛ إن كان الإرهابيون يوزعون عملياتهم على نطاق جغرافي واسع، بما يؤدي إلى تشتت قوى الأمن، ويزيد من التأثير السياسي والاقتصادي لإرهابهم.

(5) مدى تحقيق الأهداف: فيمكن أن تتكرر العمليات الإرهابية لكنها لا تحقق الأهداف السياسية والاقتصادية والأمنية التي يسعى إليها الإرهابيون، ويمكن أن يحدث العكس؛ فالإرهاب لا يُرتَكب لذاته إنما لأهداف يقصدها الإرهابيون، وتقييمنا لقوة الإرهاب من ضعفه يجب أن يضع في الاعتبار مدى تحقيق مثل هذه الأهداف التي حددها منفذو الإرهاب أو من يمولهم ويقف وراءهم وأعلنوها، أو تلك التي نستشفها من قراءة أفكارهم وبياناتهم وتصريحاتهم وطبيعة عملياتهم.

(6) التجنيد والتكاثر: والمقصود هنا أن تكون جماعات قد دخلت على خط الأحداث وتبنت عمليات إرهابية، أم أن جماعات بعينها ثابتة وتتكرر هي التي تتبناها. فلو وجدنا أن هناك جماعات أخرى تدخل إلى ساحة الإرهاب نقول «الإرهاب يتزايد» والعكس صحيح، شريطة أن ندقق في هذا الشأن؛ لأن بعض الجماعات الإرهابية الكبرى تنتحل أسماء جماعات ليس لها وجود، وتعلن باسمها مسؤوليتها عن العمليات الإرهابية لتضليل الأمن، وخداع الرأي العام. كما يجب أن نأخذ في الاعتبار مدى قدرة الجماعات الموجودة بالفعل على تجنيد عناصر جديدة من عدمه.

(7) الإجراءات الوقائية: وهي التصورات والخطط التي تضعها الدولة في سبيل مكافحة الإرهاب، سواء على المديين القريب والمتوسط أو البعيد، وتبدأ بجمع المعلومات ثم الدخول في حرب استباقية ضد الإرهابيين، ويتزامن هذا مع استراتيجية لتطويق الإرهاب وتبديده لها جوانب فكرية واقتصادية واجتماعية وقانونية وأمنية.

(8) موقف القاعدة الشعبية: إن وقوف الشعب طرفا في الحرب على الإرهاب

مسألة مهمة، فليس بوسع الإرهاب أن يهزم سلطة أو دولة يلتف شعبها حول تصورات وإجراءات لمكافحة الإرهابيين. ومن الخطر أن يقف الشعب على الحياد في المعركة ضد الإرهاب، ولذا من الضروري أن تفعل السلطة دوما ما يرضي الشعب عنها، ويجعل العلاقة بينها وبينه عامرة.

(9) الحاضن الاجتماعي: فالإرهاب ليس في وسعه الاستمرار إن كانت البيئة الاجتماعية تلفظه، والعكس صحيح، ولذا علينا أن نقف بدقة على الفروق بين البيئات الحاضنة للإرهاب والمنتجة والموظفة له.

وتركيب أو تعبير أو حتى مصطلح «البيئة الحاضنة» صار الأكثر تداولا واستعمالا بعد أن بلغ الإرهاب مداه، وانتقل من «الكر والفر» تحت جناح من السرية والكتمان إلى الإعلان الظاهر عن نفسه، والمباهاة الصاخبة بما يفعل من قتل وتدمير، وتطور وتحور من جماعات وتنظيمات موزعة على أرض دولة واحدة، أو داخل إقليم واحد منها إلى أخرى عابرة للحدود وموجودة في بلدان عدة، وانتقل من تنظيمات تكتفي بـ «إزعاج» السلطة إلى أخرى تطلب السلطة السياسية وتحصل عليها، مثل حالة «داعش» الذي اقتطع أجزاء من أراضي العراق وسورية وأعلن قيام دولة عليها، معتبرا إياها نواة لـ «خلافة»، أو بمعنى أدق «إمبراطورية» تمتد من غانا في غرب أفريقيا إلى فرغانة في آسيا الوسطى.

وهذا الاصطلاح مستمد من علم «البيولوجيا» الذي يسهب في الحديث عن علاقة الطبيعة بالكائنات الحية، نباتا وحيوانا وبشرا، ليفصل بين بيئة مناسبة لعيش كائن معين ونموه وترعرعه، وأخرى غير مناسبة على الإطلاق. وقياسا على هذا يصبح في وسعنا أن نتحدث عن بيئة اجتماعية، أو سياق اجتماعي، يسهم أو يسهل تفاعل وانتشار أفكار وتصرفات معينة. فإن كان الأمر يتعلق بالإرهاب نجد أن وسطا اجتماعيا يكون أكثر تقبلا واحتضانا له، كفكر منحرف وممارسات مدمرة، من وسط اجتماعي آخر، يستهجنه ويلفظه.

لكن علينا أن نفرق في هذا المضمار بين ثلاثة مستويات على النحو التالي:

- البيئة المنتجة للإرهاب: حيث يتفشى الجهل والفقر، ويضعف وجود الدولة في مختلف مؤسساتها وخدماتها، ويندر أو ينعدم وجود تنظيمات أو أحزاب تعتنق أفكارا مدنية، يسارية أو يمينية، بينما يشتد وجود أنصار الجماعات الدينية المتطرفة

التي تنفرد بالناس، وتكون هي وسيلتهم الوحيدة لتلبية الطلب على المعلومات والمعرفة الدينية، وبالتالي يسهل عليها أن تقوم بعملية «غسل مخ» لكثير من الأفراد، يتم تجميعهم أو تكتيلهم حول الأهداف التي حددها قادة الجماعات المتطرفة، الذين يتخذون من أعمال العنف - وعلى رأسها الإرهاب - وسيلة لتحقيق أهدافهم. وحدث هذا في مناطق داخل باكستان، خصوصا بيشاور، وداخل أفغانستان، لاسيما قندهار وما حولها، وتم في مناطق معزولة في صعيد مصر، خلال ثمانينيات القرن العشرين، بالنسبة إلى تنظيم «الجماعة الإسلامية»، وكذلك في الجزائر والصومال، وبعض الأحياء المهمشة والمنسية في المدن الضخمة. ويمكن هنا أن نضرب مثلا بما جرى في حي «إمبابة» بالقاهرة، في مطلع تسعينيات القرن العشرين، حين زاد تمكن المتطرفين إلى درجة أن قائدهم قال: «أصبحنا دولة داخل الدولة»، لكن هذه الدولة زالت في ساعات حين زحف إليها آلاف من قوات الأمن.

- البيئة المنسجمة مع الإرهاب: وهي بيئة لا تنتج الإرهاب، لكن إن جاء إليها إرهابيون يجدونها مهيأة للتعاطف معهم أو مساعدتهم في مواجهة الدولة، من دون التزام بتبني أفكارهم أو حتى الانضمام إلى صفوفهم. ويحدث هذا في المناطق الطرفية المهمشة التي أهملتها الدولة، خصوصا أن التنظيمات الإرهابية يروق لها أن تنشط في المناطق أو الأطراف البعيدة عن قبضة الدولة، والتي هي في الأغلب الأعم بعيدة عن المركز. والمثل الصارخ لذلك في بعض مناطق شبه جزيرة سيناء المصرية، والمناطق الجبلية في اليمن، وصحراء الجزائر ومالي.

- البيئة الموظِّفة للإرهاب: وهي بيئة لا تنتج الإرهاب ولا تنسجم معه بالضرورة إنما توظفه لخدمة سياسات معينة. ومن هنا يمكن لأصحاب المصلحة أن يصنعوا إرهابيين أو حالة إرهابية يستعملونها فزاعة للداخل، بغية تأجيل المطالبة بالإصلاح، أو للخارج الذي يعلن حربا لا هوادة فيها على الإرهابيين. وهذا الوضع امتد من أنظمة مستبدة أو شمولية لدول صغيرة، مثلما فعل الرئيس اليمني علي عبدالله صالح حين كان يستحضر «القاعدة» ليستدر تعاون القوى الدولية. ومثلما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، حين وظفت طاقة «الجهاد» ضد الاتحاد السوفييتي السابق، على أرض أفغانستان، في إنهاء الحرب الباردة وتركيع موسكو، وكما توظف الآن «الطاقة المدمرة» لتنظيم داعش في خدمة أهدافها في الشرق الأوسط.

هذه البيئات الثلاث في تدرجها تشكل ما يطلق عليه «البيئة الحاضنة» للإرهاب، مثلما يطرح كل من يتصدى لهذه المسألة، لكن التفرقة بين تلك الدرجات مهمة في وضع خطط مواجهة الإرهابيين، سواء بالمبادأة والهجوم أو التمترس والدفاع، وقبل كل ذلك الرؤى الفكرية البديلة التي تنظر إلى الإرهاب باعتباره عملية تبدأ من الأذهان.

(10) المواقف الدولية: أي مدى تعاطف الدول الخارجية مع الدولة التي تواجه الإرهاب، وتفهمها للإجراءات التي تتخذها في سبيل مكافحة الإرهاب وتأييدها لها.

(هـ) مواجهة الفساد

يدفع الإرهاب الدولة إلى شحذ طاقاتها في مواجهته، أما الفساد فيدمر هذه الطاقات أصلا. وإذا كنا نتحدث عن حرب ضد الإرهاب، والأمر فعلا كذلك، فالحرب، كما يقول الفيلسوف الألماني هيغل، تكون في بعض الأحوال «الحجر الذي يلقى في البحيرة الراكدة فيمنعها من التعفن»، أما الفساد - في نظري - فهو بمنزلة ماء آسن يزيد هذه البحيرة ركودا وتعفنا.

لا يعني هذا - بأي حال من الأحوال - التقليل من خطورة الإرهاب، لاسيما في موجته الخامسة(*) المدعومة بأموال طائلة، والمدفوعة بنوايا أكثر خبثا، والموظفة لخدمة أهداف أطراف لا تريد خيرا، لكنه يعني أننا يجب أن نحارب الفساد بالقوة ذاتها التي نحارب بها الإرهاب، وربما بقوة أشد.

فمما لا شك فيه أن «محاربة الفساد أمر مهم لأسباب عديدة، والسبب البديهي الأول هو أن تداعيات الفساد تؤدي إلى موت أشخاص أبرياء، وخسارات اقتصادية ضخمة... فالفساد يزيد من كلفة الأنشطة الاقتصادية، ويخرب قوانين المنافسة، ويلغي إمكانات تمكن الزبون من اختيار الحل المناسب لمشكلته»[26].

وعلينا أن نعمل خيالنا حيال ثلاثة أمور ونحن ننظر في العلاقة بين الفساد والإرهاب، سواء في تأثير كل منهما في الآخر، أو في ترتيب أولوياتنا، ألا وهي:

(*) الموجة الخامسة من الإرهاب، أو «الإرهاب العشائري»، وفقا للأكاديمي الأمريكي جيفري كابلان (م. 1954 Jeffrey Kaplan، تتخذ طابعا انعزاليا محليا مرتبطا بالعلاقات الاجتماعية والدوائر الأولية أكثر من ارتباطه بالعقيدة الدينية أو السياسية بوصفها محفزا للإرهاب. والموجة الخامسة تتبع الموجات الأربع التي حددها ديفيد سي. رابورت (م. 1929)، وهو أحد مؤسسي دراسات الإرهاب، بالتالي: الإرهاب الفوضوي، الإرهاب الموجه ضد الاستعمار، الإرهاب الاشتراكي، والإرهاب الديني الذي ظهر وتصاعد في تسعينيات القرن العشرين. [المحررة].

أولا: لا يمكن تأجيل المعركة ضد المفسدين بدعوى أننا نحارب الإرهاب، فمثل هذا الوضع يؤدي تباعا إلى إضعاف قدرة الدولة على المواجهة الشاملة للإرهابيين.

ثانيا: لا يمكن أن نربح المعركة ضد الإرهابيين إن استعنا بالمفسدين في وسط رجال المال والأعمال وجهاز الأمن وبيروقراطية الدولة والإعلاميين والمثقفين، فولاء مثل هؤلاء يكون لأنفسهم، واستعدادهم لبذل الجهد والتضحية يكاد ينعدم أو هو ضئيل، مما يجعل مساهمتهم في مواجهة الإرهاب مظهرية وعابرة ومترددة.

ثالثا: إن الإرهاب يسعى إلى توظيف الفساد وما يحدثه من إنهاك لقوة الدولة في تبرير ما يفعله القتلة والمخربون، وخلق دوائر من المتعاطفين، أو على الأقل دفع الشعب إلى الوقوف على الحياد أو أقرب إليه في المعركة ضد الإرهاب، وهذا وضع غاية في الخطورة لا يفيد سوى من يقتلون ويدمرون.

على وجه العموم هناك أمران أساسيان يجب أن يقالا في تشخيص الفساد أو وصفه هما:

1 - يتدرج الفساد من الصغير الذي نلمسه في دهاليز الجهازين البيروقراطي والأمني وساحات القضاء والتعليم والتطبيب، وصولا إلى العمليات الاقتصادية الضخمة التي تقدر قيمتها بالمليارات، وبالتتابع يتزايد حجمه، وتتسع دائرته، وتتشابك حلقاته، وتترابط آلياته؛ فممارسة الفساد، من رشوة ومحسوبية ووساطة، لم تعد مقصورة على الكبار فقط، بل امتدت إلى الصغار أو الفقراء، بفعل سياسات الإفقار، وتفاوت الدخول، والارتفاع المستمر للأسعار، وغياب القدوة في قمة هرم السلطة والمجتمع، وتآكل دور أجهزة الرقابة على قطاعات الخدمات الحكومية وغير الحكومية[27].

2 - لا يقتصر الفساد على الجانب المالي، إنما يمتد إلى الفساد الإداري والسياسي. فالأول على بشاعته هو الأقل ضررا، لأن بعض الفاسدين يعيدون تدوير ما حصّلوه من أموال في عجلة الاقتصاد الوطني. أما الثاني فهو مهلكة، لأنه يجعل الأردأ يصعد والأكفأ يهبط، فتُحرَم الدولة من عطاء العقول المبدعة، وتتحلل قواها تدريجيا. ولعل المثل الذي يذكر دوما في هذا المضمار هو العميل الذي جندته الولايات المتحدة الأمريكية في الاتحاد السوفييتي الذي انهار، وطلبت منه فقط أن يختار الأقل كفاءة إذا عرضت أمامه أسماء من سيتولون المناصب القيادية في البلاد. والفساد السياسي

له أضرار جمة مميتة، ولا نبالغ إن قلنا إنه أس الفساد والبلاء، وقد يكون جانبا لا يستهان به من النوع الأخير من الفساد مرده إلى فقر الخيال السياسي، الذي يجعل مَنْ بيدهم مقاليد الأمور يعتقدون أن في وسعهم أن يفعلوا ما يشاءون باستمرار ومن دون تحسب، وأنهم في كل الأوقات والأحوال سيمرون بسلام.

ووفق هذا التداخل والتواشج بين أشكال الفساد تلك فإنه «عادة ما يحدث الفساد الكبير على المستويين السياسي والبيروقراطي، مع ملاحظة أن الأول يمكن أن يكون مستقلا، بدرجة أو بأخرى، عن الثاني، أو يمكن أن يكون بينهما درجة عالية من التداخل والتشابك، إذ عادة ما يرتبط الفساد السياسي بتفصيل قوانين الانتخابات، وتمويل الحملات الانتخابية، وعدم سن التشريعات التي تضمن غياب تضارب المصالح المالية لدى النواب والوزراء وكبار الموظفين، حتى لا تتحول الوظائف الإدارية العليا إلى أدوات للإثراء الشخصي المتصاعد»[28].

وقد تنبه ابن خلدون في «المقدمة» إلى إفساد السلطة بالمال، فتحدث عن الجاه المفيد للمال، فالمال في نظره بات تابعا للجاه، مع اختلاط التجارة بالإمارة، وهنا يقول: «اعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية، وإدرارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال، والنظر إليهم بذلك، فبذلك تنبسط آمالهم، وتنشرح صدورهم للأخذ في تثمير الأموال وتنميتها، فتعظم منها جباية السلطان، وأما غير ذلك من تجارة أو فلاحة فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا، وفساد للجباية، ونقص للعمارة، وقد تنتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاءون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن، وهذا أشد من الأولى، وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم»[29].

ويمكن توضيح تقسيمات الفساد بالتفصيل في النقاط التالية[30]:

أ - **الفساد السياسي**، ويقوم على إحداث انحراف في التوجهات وصنع الأهداف الخاصة بالمنظومة، سواء كانت الدولة أو مؤسسة كبرى أو حزبا سياسيا أو جمعية أهلية، بما يخلق مناخا يسمح بالنفع الخاص على حساب المصلحة العامة، ويراكم الفوائد غير المشروعة.

ب - **الفساد الإداري**، ويعني عطب عمليات إخضاع تسيير الأعمال من حيث التعيين والتقييم واختيار القيادات لما يتماشى مع ما تقتضيه المصالح الخاصة، بما يؤدي إلى تراجع كفاءة المنظومة.

ج - **الفساد المالي**، ويظهر في شكل احتكارات وسرقات ورشى وعمولات، ويمتد إلى تخصيص أراضي الدولة لأفراد محددين وحرمان الأغلبية الكاسحة منها، والمحاباة والمحسوبية، وإعادة تدوير المعونات الأجنبية، وقروض المجاملة، وعمولات عقود البنية التحتية، وصفقات السلاح، والعمولات والإتاوات التي يجري الحصول عليها بحكم المنصب أو الوظيفة العامة[31].

وهناك من يقسم الفساد الإداري والمالي معا إلى صنفين: «نشط» و«سلبي»، وقد فصل قانون العقوبات الفرنسي مثلا في هذا طويلا، فعرّف الأول بأنه سعي الموظف الحكومي بنشاط من أجل الحصول على هدية أو منفعة أو رشوة قبل تقديمه الخدمة أو منح العقد، أما الثاني فقد عرّفه بأنه «قبول المسؤول هدية أو مكافأة أخرى بعد منح العقد أو تقديم الخدمة»[32].

والفساد ظاهرة مركبة، متعددة الأوجه والأساليب والتوجهات، فهو يمكن أن يولد ويترعرع ويتمدد رأسيا وأفقيا داخل كيان مجتمعي من دون أن نشعر به أو نلمسه، في البداية على الأقل، وهذا ما يسمى «الفساد الصامت». ويمكنه أيضا أن يمارس نوعا من الخداع المزدوج، فتبدو المؤسسات الفاسدة في البداية كفؤة وناجحة في نظر الناس، وقد تظل هذه الصورة قائمة لمدة، إلى أن يجري اكتشاف الأمر وفضحه. ويمتلك الفساد قدرة على الانتشار الذاتي، فيتنقل كوباء ذي وضع خاص من بيئة إلى أخرى بالعدوى، فنظرا إلى ازدياد عدد الفاسدين في الأوساط الاجتماعية المحيطة بالفرد النزيه والمؤسسة النزيهة، يمكن أن يفسد هذا، وتفسد تلك، بانتقال عدوى الفساد إليه وإليها. كما يمكن للفساد أن يتصاعد حلزونيا في المجتمع بمصاحبة انتهاك الأمانة، حيث يبرر الفاسد لنفسه خروجه على مقتضيات الأمانة، أو يقع تحت ضغط ما يدفعه إلى هذا دفعا، أو يجد فرصة مواتية لارتكاب الفساد وهو موقن أن في وسعه أن يفلت من العقاب.

ويختلط الفساد أحيانا بالحافز الفردي لدى بعض الشركات والمؤسسات، ويسعى المفسدون والفاسدون إلى صناعة وإحكام ترتيبات وإجراءات تكفل استمرار عملية الفساد وحمايتها بأقل تكاليف ممكنة. ويستفيد الفساد من أجواء الاستبداد، إذ إن

المساءلة والرقابة اللتين يتسم بهما النظام الديموقراطي تعملان معا على تقويض أركان الفساد وملاحقة المفسدين[33].

وللفساد عواقب وخيمة، منها: تآكل الرأسمال البشري، وتداعي إمكانات المجتمع وقدرته على الفعل الإيجابي، وإفساد ثقافة المؤسسات، وانتهاك الأمن الإنساني، وسرقة الدولة بعد تضمين المسروق والمنهوب في التكاليف، وبالتالي تراجع قدرتها على التنمية وتقديم الخدمات لمواطنيها.

وفي ظل التفاوت الطبقي، والتهميش الاجتماعي، ووجود خلل في السوق يظهر انحدار في القيم الإنسانية وتدهور في الأخلاق، وفقدان الإحساس بالمصلحة العامة، أو الشعور بالأمان حيال المستقبل، حيث ما يمكن أن نسميه «تدوير الفساد وتعويمه»، حيث يسعى كل فرد إلى تحصيل ما يسد رمقه وذويه بأي طريقة، وفي صورة مفرطة في الأنانية، ومن دون أي اهتمام بما يفرضه القانون من واجبات، وما يجرمه من تصرفات، ومن دون توقف أمام أي سلبيات تنجم عن الرشاوى والاختلاسات، والتربح من المناصب والمواقع الإدارية العامة، حتى لو كانت من الدرجات البيروقراطية الدنيا. ويتم هذا في حالة من التبجح واللامبالاة، في ظل الاقتناع العام بأن التعفف يعني الوقوع في فخ الهلاك، وقت أن يعجز الناس عن ملء بطونهم.

وبذا بدأ كثيرون يخرجون على المفهوم التقليدي للفساد الذي تبنته «منظمة الشفافية الدولية»، والذي اقتصر على الفساد في معاملات الأعمال، وكذلك التعريف الأوسع الذي يعرِّف الفساد بأنه «اتخاذ القرارات في الشأن العام، فيما يتصل بتخصيص الموارد الاقتصادية وتوزيع العائد الاقتصادي، وفق اعتبارات المصلحة الخاصة، وليس وفق المصلحة العامة، أو بالتضاد معها»، ليصبح الفساد هو «الاكتساب غير المشروع، أو من دون وجه حق، لعنصري القوة في المجتمع، السلطة السياسية والثروة»[34].

وحين يصل الفرد إلى المستوى الذي تتساوى عنده كل الاحتمالات، مع الشعور العام بوصول الفساد إلى النخاع، تتصاعد المخاطرة في شقها الرديء والإجرامي عند أعداد غفيرة، فيقدمون على تحصيل الأرزاق عبر وسائل غير مشروعة، بأعصاب باردة، وضمائر ميتة، ويسعون إلى انتزاع أي موقع في الزحام، بأي طريقة، خوفا من أن تدهسهم أقدام الصاعدين سريعا إلى قمة المجتمع، ممن يتحكمون في الجزء الأكبر من حركة السوق، ويرسمون معالم الاقتصاد الوطني فوق تلال هاوية.

وهذا السلوك لا يقتصر على المنخرطين في صفوف الجهاز البيروقراطي، بل يمتد ليطوق حتى أصحاب المهن الحرة بمختلف ألوانها، والأعمال الهامشية والموسمية، في ظل حركة عشوائية غير صحية وغير صحيحة لإحداث أي قدر من التوازن أو الترميم الطبقي، حتى لو كان طفيفا.

وهنا يصطف أفراد المجتمع، كل وفق موقعه في السلم البيروقراطي، أو نوع المهنة التي يحترفها، في طابور طويل، ليضع كل فرد يده في جيب من يقف أمامه، ويترك جيبه لمن يليه، في استمراء للسرقة الجماعية[35].

بالطبع هناك استثناءات، لكن المبتعدين عن التردي في السرقة العامة، لتعفف أو بعض ضمير ووطنية، في ظل خوف من الله سبحانه وتعالى أو تهيب للقانون، قد يتقلصون بمرور الأيام، مع استمرار فشل السياسات الاقتصادية، وارتخاء الدولة، وتآكل قدراتها على سد احتياجات الشعب، وانكسار مكانة القانون بعدم تنفيذ الأحكام والنفاذ من الثغرات التي تعيبه.

ويفتح هذا الوضع الباب على مصراعيه أمام تساؤلات لا تنتهي عن الهوة الواسعة بين النصوص القانونية والدينية والواقع الذي ينحيها جانبا، وبقسوة، ليفرض شرائعه الخاصة، المشبعة بالفساد، والقادرة على الإفساد.

لهذا فإن محاربة الفساد يجب ألا تتوقف عند الطرق التقليدية التي امتلك الفاسدون قدرات عجيبة في التحايل عليها وتفريغها من مضمونها، وتحديها السافر بالتصرف كأنها غير موجودة، أو الإفلات منها إن اكتُشِف فسادهم وقدموا إلى المحاكمة. وفي حال وصول هذا الفساد إلى مستوى واسع وعميق في الدولة والمجتمع، يكون على من يكافحونه مسؤولية أشد في البحث عن طرق مبتكرة للتصدي له بشكل حقيقي وليس مظهريا، كما يحدث في كثير من الحالات التي يتحدث فيها مسؤولون عن جهود تبذلها مؤسسات مكافحة الفساد، بينما يشعر المواطن العادي بأن الأمور تقف عند حالها القديمة، إن لم تكن تتدهور.

إن الفاسد يستجمع كل قدرته على التخيل، وهو يخطط لسلب المال العام، أو التهرب من الضرائب، أو الاتجار في سلع منتهية الصلاحية، أو تشييد مبان غير مطابقة للمواصفات المطلوبة... إلخ، ومن ثم فإن من يواجهه يجب أن يتمتع بقدرة أكبر على التخيل في الاتجاه المضاد.

وهذا الخيال يبدأ بالقوانين التي تقي المؤسسات والهيئات والأفراد الوقوع في الفساد، فالقانون يجب أن يكون سابقا وليس لاحقا على المسائل التي يعالجها، والسبق ليس في الزمن فحسب، بل في تخيل المشرع حالات عدة من الخروج على القانون، أو السلوكيات التي تظهر في المستقبل، والثغرات التي يمكن أن تنشأ من عدم دقة في الصياغة.

لكن هذا يتطلب توافر إرادة سياسية حقيقية تضمن توسيع المشاركة المجتمعية في القضايا المتعلقة بالسياسات العامة. ويتطلب توافر برامج لمكافحة الفساد، وتوفير ميزانيات تضمن استمرار تلك البرامج. كما يجب وضع نظام عقوبات فاعل ومستمر لدعم أهداف الإصلاح، وكذلك العمل على بناء نظام حكم رشيد يقوم على الشفافية، والمساءلة، وسيادة القانون، وفعالية التشريعات، والفصل بين السلطات، والمواطنة، وإشراك الأطراف الفاعلة في صياغة السياسات والإجراءات والتدابير العامة الرامية إلى مكافحة الفساد، وتوظيف تكنولوجيا المعلومات في إقامة الحكومة الإلكترونية، ليس فقط للحصول على الخدمة، إنما أيضا لتقليل مستوى احتكاك طالب الخدمة بالموظف العمومي، بما يقلل من الفساد[36].

فمواجهة الفساد هي عملية إدارية سياسية، هي حزمة من العمليات الفكرية والعملية والفنية، ومن دون إدراك هذه الأبعاد، وتقسيم هذه المواجهة وفق خطط قصيرة المدى وبعيدة المدى، فمن الصعب أن تنجح. يتطلب الأمر كذلك أن تكون المواجهة واسعة وعميقة، بل حادة، فالتدرج في محاربة الفساد من أسفل إلى أعلى، سيعطي من دون شك فرصة للفاسدين الكبار كي يهربوا، ولهذا يجب قطع الطريق على مجموعات وتوازنات الفساد بحصرها وتحديد أفرادها بقدر الإمكان، وكشف خطوط وخلفيات التواصل بينهم[37].

وهناك من يفضل أن تبدأ محاربة الفساد من أعلى، اتكاء على الحكمة المتداولة التي تؤمن بأن «السمكة تفسد من رأسها»، وهنا يقول أمادو توماني توري، الجنرال الذي أطاح برئيس مالي موسى تراوري من الحكم في العام 1991، وسلم السلطة في العام 1992 إلى حكومة مدنية منتخبة: «عند تنظيف المنزل، على المرء أن يبدأ من الطوابق العليا، وأن يرمي بالنفايات إلى الطابق الأرضي، هكذا تماما تكون الحرب على الفساد، بالبدء من أعلى مستوى في الدولة».

إن مكافحي الفساد يجب أن يطلقوا خيالهم كي يصلوا إلى طرق ناجعة بغية تحقيق هذه الغاية، وأولاها أن يجعلوا الفساد عملية تنطوي على أقصى مخاطرة وأدنى عائد، وأن يفكوا الارتباط بين الفساد وبين العمليات الأخرى التي يعتمد عليها، فهو أقرب إلى النبات الطفيلي الذي لا بد من أن يلتصق بنبات آخر يقتات على زاده، وأن يجرسوا المفسدين، بما يردع غيرهم الآن وفي المستقبل، وعدم التهاون مع أي فساد صغير، حتى لو كان يبلغ حدا كبيرا من الضآلة، ولعل المثل الشعبي المتداول الذي يقول: «من يسرق بيضة يسرق جملا» أشمل وأقرب تعبير إلى الذهن بهذا الخصوص. كما يجب ألا تترك مهمة مكافحة الفساد للهيئات الحكومية فقط، وفي الوقت نفسه يجب ألا تقتصر هذه المهمة على القطاعين العام والحكومي، بل تمتد إلى القطاع الخاص أيضا.

لكن كل ما سبق يخص الطرق «الدفاعية» التي تبدأ بعد وقوع الفساد، بيد أن الأفضل هو «المبادرة» التي تعني وجود سياسات عامة وتشريعات تشكل جدارا عازلا أمام الفساد، بدءا من التعليم الجيد، وتوافر الحريات العامة، وإزالة الاحتكارات، ومنع هيمنة طبقة أو شريحة أو فئة أو أتباع مهنة على الوظائف العليا في الدولة، والمراجعة الدائمة لنظام الرواتب والأجور والحوافز، وكذلك نظام الضرائب، بما يحفظ العدالة الدائمة، والأهم هو وجود قضاء مستقل[38].

(و) الحس الأمني

ويعني أن يمتلك الفرد إحساسا يجعله يستشعر الجرائم قبل وقوعها بغية منعها، سواء كان عبر المبادأة بضبط من يعتزمون ارتكابها، أو من خلال الدفاع والتصدي لهم، وهو في كل الأحوال عامل مساعد على أداء الواجبات الشُرَطية في ظل المخاطر الأمنية، من أجل حماية الأمن العام، وضمان تحقيق السكينة العامة، والسلامة، والآداب العامة، وتمكين رجل الأمن من القيام بمهمات الضبط الإداري، والضبط الجنائي، على أفضل وجه ممكن.

وهذه القضية على الرغم من خطورتها لم تحظ عند البعض بالاهتمام الكافي في معرض الحديث عن رفع كفاءة الجهاز الأمني، على رغم انطوائها على أهمية قصوى[39]، نظرا إلى أن جل هذا الحديث ينصرف إلى علاقة الأمن بقضايا سياسية، منها الإرهاب والقمع والتدخل في مختلف المؤسسات، وليس بالأمن العام، أو الأمن المجتمعي، على ما له من أولوية لدى القطاع الأعرض من الناس.

ويعتمد الحس الأمني على عنصرين[40]: الأول وجداني، حيث يتولد لدى الفرد شعور أو انطباع داخلي بأن شخصا ما أو تدابير ما ستؤدي إلى حدوث جريمة، وتعتمد تلك العناصر الذاتية أو الوجدانية أو الشعورية على مجموعة من المُكنات والملكات الداخلية أو القدرات الخاصة التي غالبا ما تتوافر في الإنسان بسبب طبيعة خلقته أو جيناته واستعداداته، ومن ثم يختلف فيها كل فرد عن الآخر بحكم الفروق الفردية بين الأشخاص، المستمدة من عوامل فطرية ومكتسبة.

وتتحقق تلك العناصر الذاتية عبر الإحساس بأن هناك شيئا غير عادي في تصرف فرد ما، والشعور بالخوف حيال خطر سيأتي من مصدر ما، والتشكك في أمر مريب على وشك الوقوع أو ممكن وقوعه، والانتباه وجدانيا إلى تصرف غير طبيعي، والشعور بالقلق إزاء موقف ما أو شخص معين.

أما الثاني فهو عنصر موضوعي أو عقلاني، يعتمد على الوعي والخبرة، التي تبدأ عطاءها بعد الومضة الداخلية، أو الإشراقة، التي يوفرها العنصر الأول، حيث يبني فرد الأمن على شعوره الأولي أسبابا عقلية تبرره، وتعززه، وتدفع هذا الفرد إلى التصرف السريع.

ويزيد الحس الأمني من قدرة رجل الأمن على الإبداع والابتكار في أداء مهمته، بعد أن يساعده في التوصل إلى نتائج إيجابية، والسيطرة على المواقف. وهنا تبدأ مهمة التخيل والخيال، إذ إن المراقبة والتأمل والتحليل السريع والقدرة على التنبؤ بالأخطار، فضلا عن دقة الملاحظة وسرعة البديهة، ومهارة الربط بين نقاط مبعثرة للحصول على صورة كاملة، لا يمكن لها أن تقوم على الوجه السليم في ظل فقر الخيال.

كما يساعد خيال رجل الأمن في بناء الحس الذي يعينه، بمستوى هائل أحيانا، حين تضعف الأدلة أو تتضارب. وإلى جانب الخيال لا بد من التعليم والتدريب الميداني، والممارسة والتوجيه المستمر، والنقد الذاتي، الذي يتم في ظل الإحساس بالمسؤولية، والاستجابة لأي تحديات يفرضها غموض الجريمة، أو سرعة ارتكابها، أو ذكاء المجرمين في التمويه والتخفي.

وهناك أمثلة عديدة تضرب لتبيان حالات معينة للحس الأمني الناتج عن تفاعل الحدس والخبرة والوعي والخيال.

فمن الطبيعي أن يرتاب رجل الأمن، مثلا، في سيارة تقل رجلين وامرأة، تذهب وتعود إلى منطقة سكنية محددة، من دون أن تتوقف، بينما ينظر الركاب الثلاثة في اتجاه واحد عند مكان معين من الشارع كل مرة، أو في سيارة نقل توزع المرطبات مساء في منطقة سكنية، وتتوقف من وقت إلى آخر، أو في سيارة متوقفة في جانب الشارع، وبجوارها سائقها يقف صامتا لساعات، بينما الغطاء الأمامي لها مرفوع. إن شكوك رجل الأمن لا بد من أن تثار هنا، وتدفعه إلى العمل سريعا لضبط جريمة أو منع وقوعها.

وقد تزداد هذه الشكوك إن كانت السيارة محملة بمواد ثقيلة، ويتركها سائقها بالقرب من محطة وقود، ويترجل ليمضي في طريقه، أو يركب سيارة أخرى ويذهب، أو كانت السيارة تتدلى من أرضيتها أسلاك كهربائية إلى الجانب الخلفي منها، أو أن أرقام اللوحة المعدنية غير واضحة، مغبرة أو مشطوبة، أو أُضِيفت إليها خطوط تغير حقيقتها، أو أن زجاجها معتم، أو أن سيارة توصيل مأكولات مكتوب عليها اسم مطعم ومحملة بأسطوانات غاز ومتوقفة لفترة طويلة في مكان ليس به مطعم.

ولو أن أشخاصا يخرجون من مسجد عند العاشرة مساء، من دون مناسبة تبرر وجودهم فيه، أو عمالا يشذبون الأشجار والزروع النابتة في الشوارع وعلى جوانب الطرق، بينما هم يلبسون ملابس لا تناسب هذا العمل، أو أن صبية يجلسون في مكان معين من الشارع في أوقات منتظمة، أو يمرون بمنطقة غير مرة وهم ليسوا من أهلها، أو امرأة تسير في أحد الأحياء الراقية وتتلفت حولها دوما، ولا يبدو على سمتها أنها من سكانه، فإن هذا كفيل بلفت انتباه رجال الأمن.

وإذا رأى رجل الأمن في المطار أحد الأشخاص يتلفت حوله مرتبكا، أو يراقب ضابط الجوازات باهتمام شديد، ثم يتحرك من صف إلى آخر، أو رأى شخصا يرتدي معطفا ثقيلا في الصيف، أو يخفي شيئا تحت إبطه، أو يشير بيده أو يغمز بعينيه إلى آخر، فهذا يسترعي انتباهه، وعليه أن يتعامل معه على محمل الجد.

إن كل هذه الأمثلة تبين أن خيال رجل الأمن فضيلة مهمة لحفظ الأمن العام، الذي هو جزء لا يتجزأ من السياق الاجتماعي - السياسي، لهذا فإن هذا النوع من الخيالات هو حدس سياسي، حتى لو كان يجري بطريقة غير مباشرة.

(ز) تقدير الموقف

هو عملية مركبة تقوم على جمع وتحليل وربط بيانات جُمعت بعناية، ووفق طريقة علمية، لتتشكل في صياغات متعددة الأبعاد تسهم في إمدادنا بالقدرة على اتخاذ القرار السليم حيال القضية أو المشكلة أو الموقف الذي نحن بصدده.

وهذه العملية تحتاج إلى خيال، على الرغم من الخطوات العلمية الصارمة التي تمر بها، والتي تحتاج في بعض الأحيان إلى تحليل كمي. فإن كان لدى مقدري الموقف تفكير إبداعي، وحدس سليم، وبصيرة نيِّرة، فإن النتائج التي يتوصلون إليها تكون بالقطع أفضل بكثير مما لو كانوا يفتقرون إلى هذه الملكات العقلية والوجدانية.

وقد نبت مفهوم «تقدير الموقف»، الذي تتداخل فيه عدة أنساق، في العلوم العسكرية، وامتد منها إلى مختلف مجالات الحياة، السياسية والاجتماعية والأمنية والنفسية والثقافية، وبذا فهو عملية مهمة يحتاج إليها الساسة ورجال الإدارة والمال والمحاربون ورجال المخابرات والإعلاميون والقائمون بتعبئة المقاتلين أو الجمهور في أوقات الانتخابات والاحتجاجات، بل يحتاج إليها كل إنسان لديه دراية بأهمية تخطيط مسار حياته.

وقد صار «تقدير الموقف» نهجا معتمدا كنقطة انطلاق إلى مستوى ممتد من التفكير والتدبير يبدأ بكتابة دراسات ومقالات تنطوي على ألوان من التنبؤ بالمستقبل، وينتهي عند إطلاق تصريحات في اتجاه عموم الناس أو الجمهور، مرورا بامتلاك القدرة على التحاور والتخاطب الفعال.

وهناك عدة شروط يجب توافرها لتكون عملية «تقدير الموقف» سليمة، ونتائجها مضمونة إلى حد بعيد، وهذه الشروط هي:

1 - جمع بالمعلومات الكافية: فلا يمكن تقدير الموقف من دون الإلمام بكل المعلومات المرتبطة بالقضية أو المشكلة التي يُنظر فيها. والمعلومات تكون مكتبية، تجود بها الكتب، وميدانية تجمع من أفواه الجمهور المرتبط بالقضية التي ندرسها ونستشرفها. ويجب أن يُبذَل أقصى جهد ممكن في سبيل استكمال المعلومات، وألا يتم التعجل في هذا الإجراء؛ فالمعلومات الناقصة نقيصة، ولن يكون في مقدورها أن توجد الحالة الملائمة لاتخاذ القرار الصائب.

2 - العقلانية: وتعني هنا اتباع المنهج العلمي في التفكير ابتداء، ثم تحديد التصورات بما يتناسب مع الإمكانات المتوافرة لدى مقدري الموقف، وما يتماشى مع الواقع، الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار أنه في حال من التغير المستمر، وأن ما نقدره الآن قد يطرأ عليه تغير غدا.

3 - الاستمرار: فتغير الواقع يفرض ضرورة الاستمرار في تقدير الموقف، وبذا لا تصلح التقديرات القديمة في فهم وضع جديد، إنما لا بد من أن تلاحق التقديرات التي نعدها الأوضاع التي تتبدل بلا هوادة، ولذا فإن القائمين على هذه العملية يضعون في مخططهم دوما خانات فارغة يخطون فيها كل مستجد، ويعيدون التقييم بناء عليه.

4 - التمسك بالرشد: وهذه قيمة مهمة في تقدير الموقف، فالخطل والنزق والتسرع والعشوائية ستقود إلى مسار آخر بعيدا عما نصبو إليه، أو نستهدفه، وبالتالي لن نتمكن من وضع أيدينا على حلول ناجعة للمشكلات التي تعترض طريقنا.

5 - الإلمام بالبيئة المحيطة: فعملية تقدير الموقف يجب ألا تتم بمعزل عما يجري في المجتمع من وقائع وأحداث يقوم بها الأفراد في تفاعلاتهم مع التنظيمات والمؤسسات والأفكار السائدة، والمصالح والمنافع المادية، وكذلك ما يتعلق بالهيبة والكرامة وتقدير الذات.

6 - المرونة، فهي ليست عملية جامدة، تتم وفق تصورات ثابتة، بل يمكن لكل فرد أو مؤسسة تقوم بها أن تدخل عليها التعديلات التي تعن لها، مادامت أنها تخدم الهدف، وتتسم بالانضباط العلمي. ولهذا تختلف المقالات والدراسات التي تقدر المواقف من حالة إلى أخرى، ومن فريق عمل إلى آخر.

وكل هذه الخطوات على تكاملها تعد ناقصة إن تمت عملية تقدير الموقف بشكل ميكانيكي، متكئة على تحليل الأرقام، على جفافها وجفائها، أو استعراض المعلومات الغزيرة التي جُمعت من مصادر مختلفة، متناسية أو مهملة، عن جهل أو غفلة، ضرورة إعطاء مكان للخيال كي ينطلق، وللتفكير الإبداعي أن يمارس دوره في استنطاق البيانات بشكل أفضل، ومنحها طاقة خلاقة.

(ح) تفادي سلبيات الديموغرافيا السياسية

على الرغم من أن حقل الديموغرافيا السياسية[41]، الذي يُعنى بدراسة حجم السكان وتركيبتهم وتوزيعهم وعلاقة ذلك بالحكم والسياسة، لم يحظ باهتمام كاف

من علماء السياسة، يليق بأهميته وحيويته، فإنه يعد من أبرز المسارات العلمية والحياتية التي تستوجب إعمال الخيال السياسي العلمي، لاسيما أن هذا الحقل يتحدث في جانب مهم منه عما سيأتي، وليس فقط عن الوضع الراهن، بدءا من المحليات وانتهاء بترتيبات النظامين الإقليمي والدولي.

فاليوم تكاد الديموغرافيا تسيطر على أي نقاش تقريبا يتعلق بالتوجهات بعيدة المدى على المستوى المالي أو الوضع الاقتصادي أو السياسة الخارجية التي ينبغي أن تنتهجها الدول المتقدمة.

وقد أمضى جيرار فرانسوا دومون، وهو أستاذ في جامعة السوربون ومدير لحلقة بحث عن «الجيوسياسات» في معهد الدفاع التابع لقيادة أركان الجيوش الفرنسية، ومدير مجلة «السكان والمستقبل»، أمضى قرابة ربع قرن من الزمن وهو يبحث عن الإجابة عن السؤال التالي: «هل يمكن للديموغرافيا أن تمنح قوانينها لعلم السياسة»؟ ثم جاء علماء سياسة أمريكيون، في مقدمتهم جاك غولدستون وإريك كوفمان ومونيكا توفت، لينشغلوا بالإجابة عن سؤال مفاده: كيف تعيد التغيرات السكانية تشكيل الأمن الدولي والسياسة الوطنية؟

والأولى بالخبراء والباحثين والكتاب العرب أن ينشغلوا بالإجابة عن مثل هذه الأسئلة، وأن يكون الخيال حاضرا في أسئلتهم وإجاباتهم، وينطلقوا من طرح رؤية عامة حول السكان والسياسة، ليناقشوا أهمية دراسة الديموغرافيا السياسية، ويشرحوا الوضع السكاني الراهن عبر مسح عام لتكوينهم، ولمسألة الهوية الدينية والتركيبة السكانية من زاوية الطوائف والمذاهب وأنماط التدين، ثم الثقافة والسكان والسياسة، وبصمات تنوع معارف المجتمع وقيمه على التوجهات السياسية، والسكان كعنصر من عناصر قوة الدولة من حيث الكم والكيف، والقوانين والتشريعات والخطط والسياسات التي تتعامل مع طبيعة السكان، وعلاقة النمو السكاني بالتطور الحضري، وتوسع المدن، والتجنيد الإلزامي، وقضايا الهجرة والنزوح، ومطالب الجيل الجديد من الشباب، وصعود دور النساء في العمل والتعليم والحياة الاجتماعية، ووضع الشيخوخة بين رعائية الدولة وتوريث التقاليد، والصحة الإنجابية وبناء الجيل القادم، وتأثير الديموغرافيا في الجغرافيا السياسية، والسياسات المالية، والصراعات الإثنية والدينية، وأنماط الاقتراع، ثم مستقبل الدولة

القومية، وتأثير حجم السكان والبنية العمرية في ميزان القوى العالمي، ومستقبل الحروب - بعد أن ثبت أن بوسع جيوش كثيفة العدد ومتخلفة تقنيا أن تهزم جيوشا قليلة العدد مزودة بأحدث الأسلحة والمعدات والعتاد - وكذلك وضع ما يسمى «حرب الأرحام»، والتي تبدو ظاهرة في حالة فلسطين وأيرلندا الشمالية، حيث تؤدي سيطرة البنى العمرية الفتية على الميل إلى العنف، والعكس صحيح.

وبذا تبدو الديموغرافيا مكونا بالغ الأهمية في صياغة العملية السياسية، وتأثيرها يمكن أن يكون مباشرا أو غير مباشر، وقد تحتل المرتبة الأولى أو الثانية أو الثالثة، وهي ضرورية لكنها نادرا ما تكون كافية، ويمكن أن تعمل بوصفها عاملا مسببا أو شرطيا. على أنه بصرف النظر عن طريقة عمل الديموغرافيا، فإنها بكل أوجهها تحتاج بصوة ماسة إلى أن تُدرَج في الاتجاه السائد للعلوم السياسية. ولا يمكن لدراسة الأمن الدولي والسياسة العالمية أن تمضي قدما من دون استيعاب الكيفية التي تؤثر فيها المفاهيم والبيانات الرئيسة المتعلقة بالتغيرات السكانية في هذه القضايا.

وإعمال الخيال في قضايا الديموغرافيا يسير في اتجاهين على النحو التالي:

1 - عدم النظر إلى الديموغرافيا باعتبارها قدرا حتميا، بما يؤدي إلى مقاومة آثارها السلبية، خصوصا تلك التي تتعلق برؤية توماس مالتوس الذي رأى أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية، بينما الموارد تزيد بمتوالية حسابية[42]، بما يقود إلى خلل شديد يحتاج إلى تدخل عوامل خارجية بغية إعادة التوازن بين نمو السكان ونمو المواد الغذائية، مثل الحروب والمجاعات والأوبئة والأمراض؛ فالتقدم العلمي والتقني عالج - بمرور الوقت - بعض هذه الآثار السلبية، لاسيما من خلال التقدم في البايوتكنولوجي والهندسة الوراثية.

2 - تخيل ما يحدثه التطور الديموغرافي من تأثيرات في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية، ووضع الخطط والاستراتيجيات التي تساعد في تقليل الآثار السلبية للنمو السكاني غير المتوازن، كما وكيفا، على المستويين المحلي والدولي، وتحويل السكان من عبء إلى ميزة.

وتبدو قضية استيعاب الشباب وإرضائه والاستفادة من طاقته الخلاقة هي المجال الأكثر إلحاحا الآن، إن كنا نفكر في تفادي سلبيات الديموغرافيا السياسية.

وقد ذاع صيت مفهوم «تمكين الشباب» أخيرا، لاسيما في مجتمعات أوصدت الأبواب طويلا أمام تقدم جيل جديد ليشغل مواقعه في مؤسسات الدولة السياسية

والبيروقراطية في سلاسة، علاوة على ترجمة أشواقه إلى التقدم والتحرر والعدالة إلى سياسات وإجراءات وقرارات، وذلك في وقت لم يعد فيه «تمكين الشباب» مسألة ترفيه أو منة، أو حتى خيارا، إنما ضرورة ملحة وفريضة واجبة، مع دراسات سكانية تخبرنا كل يوم بأن نسبة من هم في سن الشباب إلى السكان جميعا في تصاعد مستمر، وأن ثورة تطلعات الشباب قد صاحبت الحراك الذي شهدته بعض الدول العربية في السنوات الأخيرة، ولذا فمن الكياسة والحصافة والسياسة أن تُحول كتلتهم الكبيرة من عبء إلى ميزة، ومن غرم إلى غنم.

وللتمكين محفزات لا يمكن نكرانها، وهي تلح في سبيل تحقيقه إلحاحا ظاهرا، ولها أبعاد نفسية عميقة لا يجب تجاهلها، وهي في مجموعها تشكل مستويات متوالية ومتداخلة من الرغبات، مثل الرغبة في النشاط، والرغبة في الملكية، والرغبة في السلطة، والرغبة في الهيبة أو المكانة الاجتماعية، والسعي إلى الإنجاز، والعمل على تحصيل الاحترام، وتحقيق الانتماء، وحيازة السلطة؛ فالتمكين لا يطلب لذاته إنما لتلبية هذه الرغبات التي يتسبب وجودها وتفاقمها، من دون أن تلقى استجابة بغية تحقيقها، في توتر الفرد، ومن ثم توتر الشريحة العمرية أو الاجتماعية غير المُمَكَنة، أو المُهمَشة والمستبعَدة، ويقود هذا في النهاية إلى توتر المجتمع بأسره.

ومفهوم التمكين توزع على السياسي فارتبط بإسهام الشباب في صنع القرار واتخاذه، والاقتصادي وتعلق بالحصول على فرص عمل مناسبة، والاجتماعي وتمثل في حيازة المكانة، من خلال أدوات طبيعية وشفافة للحراك الاجتماعي وعلى رأسها التعليم.

لكن مفهوم «تمكين الشباب» اختلط بمفاهيم أخرى أصابته بميوعة أو أفقدته قيمته وفرغته من مضمونه، بل إن بعضها حل محله، أو حاول هذا، في خطاب السلطة وممارساتها. ويمكن ذكر هذه المتشابهات مع «التمكين» على النحو التالي:

- **التدجين**: ويعني إخضاع الشباب لما يحقق مصلحة السلطة السياسية، أو احتواءه عبر أيديولوجيات وسياسات وبرامج تثقيف، أو من خلال إيجاد منافع تربط ممثلين له بمسؤولين في الحكم ومؤسساته، وتستعملهم في استمالة البقية نحو الخيارات التي تتبناها السلطة.
- التسكين: وهو تثبيت ممثلين للشباب في وظائف عليا في الجهاز التنفيذي

أو التشريعي للدولة، وتوظيف هذا في خلق صورة ذهنية عن إيجابية علاقة نظام الحكم بالشباب، وتسويقها على أوسع نطاق لدى الجيل الجديد.

● التوثين: ويعني هنا النظر إلى عملية التمكين باعتبارها شيئا مقدسا في حد ذاته، بغض النظر عن توافر الشروط التي تجعل من تصعيد الشباب في المجالات الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية عملية مفيدة للمجتمع والدولة، وليس عبئا على كل هذا.

● الاستحواذ: إذ ينظر بعض المتعجلين من الشباب إلى عملية التمكين على أنها فرصة سانحة لاقتناص الفرص في كل المجالات، والسيطرة التامة عليها، وحرمان الكهول والشيوخ منها، بدعوى أنهم قد حصلوا على فرصتهم من قبل، أو أنهم ليس لديهم ما يقدمونه.

● الاستعلاء: وهنا يقع الشبان في آفة الزهو على الآخرين لمجرد أنهم أقل عمرا، بما يعني امتداد سنوات عطائهم أكثر، واستطاعة أعلى على تحقيق الأهداف.

وهذه المتشابهات الخمسة تجعل من الضروري التفرقة بين التمكين كإدارة وسياسة وبينه كدعاية، ففي الثاني تكون السلطة متلاعبة خادعة، وفي الأول تكون جادة في تصعيد الشباب ليأخذ مكانه في الهيئات والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأمنية والحقوقية... إلخ، وفق تصور متكامل يعني بالنسبة إلى الشباب ما يلي:

● تعزيز القدرات: فلا تمكين حقيقيا من دون أن يمتلك الشباب القدرة التي تجعل منه إضافة إلى قوة الدولة وليس خصما لها، وذلك عبر إطلاق المواهب، وامتلاك روح المبادرة.

● توسيع الخيارات: لا تمكين من دون أن تتوافر أمام الشباب بدائل متعددة يمكنه أن يختار من بينها، وليس طريقا واحدا يُفرض عليه أن يمضي فيه حتى لو كان غير مقتنع.

● تحمل المسؤوليات: لا تمكين من دون أن يقوم الشباب بما عليه من مسؤوليات، بعد أن يتم تعيينه في الوظائف القيادية، أو تفويضه بصلاحيات واسعة.

● تحسين الخبرات: وذلك عبر عملية تدريب مستمرة تساعد في صقل المهارات، والإلمام بكل جديد، بما يؤهل الشباب لمواكبة التطور في كل المجالات.

● دعم الحريات: إذ من اللازم أن يكون الشباب حرا في التفكير والتعبير والتدبير. والحرية هي التي تعزز القدرة على الإبداع والابتكار، وهي التي تصون عملية التمكين إن بدأت، وتمنع التوقف عنها أو سحبها أو تقليصها.

● تعميق المشاركات: وتعني هنا مساهمة الشباب في وضع الخطط والأهداف، وفي الوقت ذاته، توافر المشاركة السياسية التي تضمن طوال الوقت أن يكون رقما كبيرا في معادلة الحكم.

● توافر المتابعات: وهي امتلاك الشباب آليات لرقابة السياسات ومتابعتها، وتقييم نتائجها، وتقويمها إن دعت الضرورة إلى ذلك.

● التولي والتخلي: وهي تسلم الشباب المسؤوليات في الحكم والإدارة، وتخلي القيادة والإدارة العليا عن الانشغال بالتفاصيل، وترك هذا لمن تم تعيينهم وتفويضهم من الشباب، ليجربوا ويخطئوا ويصححوا أخطاءهم فيتعلموا.

والسؤال الذي يفرض نفسه دوما في هذا المضمار هو: متى يُمكَّن الشباب؟ ووفق أي مبدأ أو تصور؟ وهنا يمكن تصور ثلاثة مسارات، هي:

الأول: مثالي، ويرى أن عملية تمكين الشباب لا يمكن لها أن تتم إلا ضمن تمكين المجتمع كله بكل فئاته وطبقاته وشرائحه ومكوناته المتنوعة.

والثاني: واقعي، وينطلق من افتراض مفاده أن المشكلات التي تعترض طريق الشباب تختلف عن تلك التي تواجه المجتمع بأسره، ومن ثم يكون من العبث أن ننتظر حل مشكلات المجتمع حتى تحل مشكلات الشباب، إنما يجب النظر إلى هذه الشريحة على حدة، وبذل الجهد في سبيل تمكينها، لأنها الأولى بالرعاية، وقضيتها الأجلى عدلا، وغضبها الأعلى تأثيرا، وتوظيفها الأكثر نفعا.

والثالث: تبادلي، ويرى أن التغيير يجب أن يكون شرطا واضحا للتمكين؛ فإذا أراد الشباب أن يُمَكَّن فعليه أولا أن يتغير إلى الأفضل، بما يجعل من تمكينه ميزة وليست عبئا.

والمسار الثالث يعني أن للتمكين متطلبات لا يمكنه أن يتم من دونها، أولها القيادة. فالمُمكَّن يكون في وسعه أن يتقدم في الوظائف والمواقع إلى أن يحوز الصدارة. وثانيها هو الالتزام، ويعني أن يكون لدى الشباب الذي مُكن القدرة على الاستجابة للتحديات المطروحة أمامه، والتعهد بتحقيق الأهداف التي يصبو إليها

المجتمع ومؤسساته الإدارية والسياسية. وثالثها يتمثل في المهارة، إذ يحتاج الشباب دوما إلى امتلاك المهارات اللازمة لأداء المهمات الموكلة إليه. ورابعها يتعلق بوضوح الهدف، ويتم هذا عبر الاتفاق على الأهداف بعد مناقشتها، ثم إخبار الناس بها، وتحديد الفترة الزمنية لتحقيقها.

وحتى نضمن أن تكون آليات التمكين قنوات جيدة ومتينة ومفتوحة في طريق الهدف، لا بد من توافر عدة قيم أساسية، تشكل إطارا أو تسهم في صناعة مرجعية لهذه العملية التي باتت ضرورية، وهي:

- المساواة في الفرص: وهي غير المساواة الحسابية التي تجعل الجميع في منزلة واحدة رغم تفاوت الذكاء والجهد والدأب والإصرار. فهنا يجب أن نحقق تكافؤ الفرص بين كل الشباب، رغم تفاوت الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يتحدرون منها أو ينتمون إليها، بما يحقق منافسة شريفة بينهم، تعلي من قدر الأكثر موهبة ودأبا.
- إعلاء مبدأ الاستحقاق والجدارة: وهو مرتبط بما سبق، ويعني غياب أو تغييب ظاهرة «الفرز العكسي» التي تعني ترقية الموالين أو أهل الثقة من الشباب على حساب أهل الخبرة.
- التجدد: أي إيمان المجتمع أو الإدارة السياسية أو كتلة معتبرة فاعلة من الناس بأن تجديد النخبة ضرورة، وفتح الباب أمام أجيال جديدة لتتقدم الصفوف واجب.
- التقدم: وهو يقوم على العمل المستمر في سبيل تحسين شروط العيش، من منطلق الاعتقاد في ضرورة أن يكون الغد أفضل من اليوم بالنسبة إلى المجتمع.
- الاستدامة: بما يجعل من «تمكين الشباب» مسألة دائمة، وليست موسمية، تطرح أحيانا من قبيل الدعاية السياسية، ومن ثم تظهر وتختفي وتعود كلما كانت لها مناسبة. وهذه الاستدامة هي التي تخلق تراكم الخبرات والآليات والقيم لعملية التمكين تلك، وتدفعها إلى الأمام، وتوسع من دوائر المقتنعين بها، والعاملين في سبيلها.
- الأمان: والذي يقوم على التعامل مع الدولة على أنها حامية وراعية وليست جابية أو باطشة.

● العدالة: وهي تعني غياب الظلم في توزيع المزايا والأعباء بين الشباب، وهو وضع خطير فاسد تخلقه المحسوبية والمحاباة وتفشي الرشى، مما يفرغ عملية التمكين من مضمونها.

ولا يمكن فصل عملية «تمكين الشباب» عن السياق السياسي والاجتماعي، فهي توجد وتزدهر أكثر في ظل الحكم الرشيد الذي يقوم على سيادة القانون، والمحاسبة والشفافية، والمشاركة المجتمعية، بينما تتراجع في النظم المستبدة والطغمائية والشمولية.

ولتمكين الشباب ثمار طيبة للمجتمع، حيث إنها تطلق الطاقات الإبداعية لأفراد المجتمع من الجيل الجديد، وتحقق الرضا الاجتماعي، وهو مسألة جوهرية في تعزيز شرعية السلطة الحاكمة، وتعمق الثقة والاقتدار عن المحكومية بما يسهم في توسيع المشاركة السياسية، والإقبال على الأعمال العمومية، والحرص على المال العام، كما تقود إلى تجدد المجتمع، مما يكسبه حيوية مستمرة، ويحافظ على حدوث الحراك الاجتماعي بانتظام، بما يفرغ الطاقة الغضبية بطريقة سلسة وطوعية، ومن ثم يعزز تماسك المجتمع وترابطه، وهذه مسألة باتت ضرورية بالنسبة إلى الدول العربية في أيامنا الراهنة.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: ألا يوجد إجراء بوسعه أن يحقق ولو جانبا من تمكين الشباب بعد أن طال أمد تغييبهم عن المشهد العام، وحرمانهم من أن ينالوا فرص تعلم إدارة الدولة؟

إن المشكلة في الإجابة عن هذا السؤال هي أن الشباب أنفسهم يجيبون بشكل ينحرف أحيانا عن جوهر عملية التمكين. ويمكن أن نضرب مثلا ناصعا هنا بما يجري في مصر، التي وجدت هذه القضية على قمة أولوياتها مع تصاعد نسبة تمثيل الشباب من المجتمع إلى ما يربو على 60 في المائة، علاوة على أن الحراك الثوري الذي بدأ في 25 يناير 2011 مثّل الشباب طليعته وأغلبية الفاعلين فيه، وبالتالي فالنموذج المصري يبدو معبرا في هذا المضمار، ويفيد في نظر ودراسة نماذج في بلدان أخرى.

فالمبادرات التي قدمها بعض الشباب المصري انصبت في الأساس على الاستفادة من طاقاتهم في تطوير العمل المؤسسي داخل مؤسسات الدولة التنفيذية، من وزارات وهيئات مختلفة تتدرج حتى تصل إلى مؤسسة الرئاسة، عبر دمج عدد

كبير من الشباب، بمختلف تخصصاتهم، داخل هذه المؤسسات، وفق برنامج تدريبي محدد معد بالتعاون بين عدة وزارات، ينفذه أساتذة متخصصون من مختلف الجامعات الحكومية في فنون السياسة والإدارة والحكم المحلي وإدارة المؤسسات وتطويرها.

إن الهدف من مبادرات على هذا النحو هو خلق جيل جديد شاب من المسؤولين التنفيذيين لأجهزة الدولة المختلفة، عبر تصعيد أو إدخال مجموعة من الشباب داخل الوزارات والهيئات المختلفة، مدربين وفقا للبرامج السالف ذكرها، لنرى جيلا جديدا من نواب في البرلمان ومساعدي وزراء ومحافظين ووكلاء وزارات ومديري الهيئات ورؤساء المدن والأحياء والمراكز والقرى، حتى نصل إلى أصغر هيئة حكومية ينتشر بها هؤلاء النواب والمساعدون الجدد يتعلمون ويطبقون ما درسوه.

وهناك عدة خطوات وضعت لتنفيذ مثل هذه المبادرات، تبدأ بتحديد الفئة العمرية للشباب المستهدف، وتنظيم مسابقة ترعاها الدولة، ويتقدم إليها الشباب بأوراق توضح مؤهلاتهم وخبراتهم ورغباتهم، بعد أن تُوضَع معايير متساوية للاختيار تتواءم مع المناصب المراد تولي الشباب لها، ثم تدريب من يقع عليهم الاختيار على أيدي مختصين يجهزونهم لأداء هذه المهمة.

وهناك مبادرة أكثر تماسكا وشمولا قدمها مركز «تواصل لدراسات وبحوث الشباب» في مصر تحت عنوان «نحو خارطة مستقبل لتمكين شباب مصر بعد ثورة يونيو»، ووضعت لهذا عدة خطوات وشروط هي:

1 - تعيين نائب للرئيس أو نائب لرئيس مجلس الوزراء من الشباب تحت سن أربعين سنة؛ يكون مسؤولا عن إصدار سياسة وطنية للشباب في مدة لا تتجاوز سنة من تاريخه، وإجراء تغيير كلي وشامل في البيئة المؤسسية والقانونية المنظمة للعمل الشبابي، وعدم الاكتفاء بالتغييرات القطاعية أو إعادة تصحيح الأولويات، وتنظيم مصالحة حقيقية بين كل شباب الوطن، بالمشاركة مع مؤسسات الدولة المختلفة، وأهمها الأزهر الشريف ووزارات الشباب والتربية والتعليم والتعليم العالي والإعلام والأوقاف والثقافة... إلخ، والتنسيق بين عمل الوزارات والأجهزة المختصة بالعمل الشبابي.

2 - اختيار شخص مستقل غير حزبي لتولي حقيبة الشباب، وذلك لتلافي سيطرة اتجاه أيديولوجي أو حزبي على الوزارة التي تشرف على إعداد شباب مصر وتنشئته وتمكينه في جميع المجالات.

3 - تعيين الشباب مساعدين للوزراء والمحافظين ورؤساء المدن والأجهزة التنفيذية المختلفة، ومنحهم الصلاحيات التي تمكنهم من أداء أعمالهم، وذلك بناء على اعتبارات الجدارة والكفاءة، وبما يتيح الفرصة أمام الشباب غير المسيس لتقدم صفوف العمل التنفيذي.

4 - وضع الشباب في موقع متقدم في القوائم الحزبية في قانون انتخابات مجلس النواب القادم وفي غيره من قوانين الانتخاب، وذلك بما يضمن تمثيلا برلمانيا يتلاءم مع عدد الشباب ودورهم في المجتمع.

5 - الالتزام بخفض سن الترشح للشباب إلى 21 سنة عند إجراء انتخابات المجالس المحلية؛ وفقا لما نصت عليه المادة 188 من دستور 2012 المعطل.

6 - وضع قانون جديد للشباب يكون بديلا لقانون الهيئات الشبابية والرياضية الرقم 77 لسنة 1975، وذلك بما يتيح فرصة أكبر للشباب في إدارة جميع الهيئات الشبابية، ووضع إطار منظم لعمل الحركات والائتلافات والمبادرات الشبابية الموجودة في الشارع.

7 - مراجعة كل القوانين واللوائح التمييزية ضد الشباب، خصوصا في المجال الاقتصادي، ويشمل ذلك بصورة عاجلة تغيير اللوائح المنظمة لعمل الصندوق الاجتماعي للتنمية، بما يتيح استحداث نطاق تمويلي خاص بالشباب يختلف عن مثيله المخصص لجميع المقترضين.

8 - زيادة التمويل المخصص للأنشطة الشبابية، ووضع إطار تمويلي واحد يتم الصرف منه على البرامج المشتركة، بما يقضي على ازدواجية الصرف وإهدار المال العام.

9 - الاتجاه نحو مزيد من اللامركزية في تخطيط الأنشطة الشبابية وتنفيذها.

10 - إشراك القطاع الخاص ومنظمات المجتمع المدني في تمويل الأنشطة الشبابية.

11 - دعم قدرات العاملين في مجال الشباب؛ لأن عدم وضوح أهداف السياسات المنفذة مع الشباب يؤدي إلى الخلط بين الأهداف والوسائل، بل ربما اعتبار البرامج والمشروعات غايات في حد ذاتها.

وكما نرى فإن المبادرة الأولى، اختزلت قضية التمكين في تولي الوظائف، أما الثانية فقد وضعت مبادئ وشروطا أساسية لكنها لم تقدم لنا رؤية إبداعية لحل هذه المعضلة، وهنا يأتي دور «الخيال السياسي» ليعين على إيجاد حل من الجذور أو القواعد الشعبية وليس من أعلى، كأن يتحدث رئيس الجمهورية عن إشراك الشباب، ويتخير بعضهم في مواقع، أو يقوم وزير بإحاطة نفسه ببعضهم، أو يعين محافظ بعضهم في مكتبه كمساعدين... إلخ.

إن الدولة، أي دولة، لن يكون في وسعها أن تجد مناصب لكل الشباب الغاضبين أو الحانقين، عن حق أو عن وهم، ولذا فإن المسار الأفضل هو ذلك الذي يشعر الشباب بأنهم مشاركون في صناعة المستقبل، بل هم، بالدرجة الأساسية، الذين يخطَطون له.

وسأحاول هنا أن أطرح فكرة مغايرة تتبنى أساسا على شباب تم اختيارهم وفق مبدأ «الاستحقاق والجدارة»، بعيدا عن اختيارات الأجهزة الأمنية والبيروقراطية، وتتوالى في عدة خطوات: الأولى هي أن يحدد كل محافظ شهرا لشباب كل مركز من مراكز المحافظة، بعد أن يجري اختيار ثلاثة شبان ممثلين عن كل قرية من قرى المركز، يشترط فيهم التعليم الجيد والخبرة والكفاءة، ويجتمع هؤلاء يوميا في مقر «المجلس المحلي»، ومعهم ممثلون عن أحياء المدينة التي تمثل عاصمة المركز، ويطلب منهم جميعا أن يقدموا اقتراحات تصب في ثلاثة اتجاهات: الأول حول تنمية المركز. والثاني يتعلق بتنمية المحافظة. والثالث يرتبط بتنمية الدولة بأسرها، وهي التنمية الشاملة التي تتوزع على الاقتصاد والسياسة والثقافة والتعليم والقوانين والمجتمع المدني والتقدم العلمي. وتُجمَّع الأوراق وتُناقَش باستفاضة، وبعدها تُختار لجنة لصياغة الرؤية النهائية في الاتجاهات الثلاثة.

وتتم هذه الاجتماعات أو تلك المناقشات على التوازي في كل مركز (القرى والمدينة)، وفي نهايتها ينتخب الشباب ثلاثة ممثلين عن المركز ليحضروا اجتماع المحافظة العام لجميع مراكزها، وفيه تُستعرَض كل الاقتراحات وتُناقش مرة أخرى في روية وأناة مع لجنة علمية من أساتذة الجامعة في كل محافظة، بحيث يمثلون كل التخصصات المطلوبة، ويُختارون أيضا وفق المبادئ ذاتها التي اختير على أساسها الشباب. وتبلور هذه اللجنة رؤية علمية متكاملة عن المحافظة بمراكزها، وكذلك تصور شباب المحافظة حول تنمية شاملة للدولة.

ويتم هذا في كل محافظات الجمهورية على التوازي، ثم يُختَار ممثلون عن المحافظة لاجتماعات ومناقشات تالية بشأن الرؤى الخاصة بتنمية الدولة، ويحضرها خبراء أكفاء في التخصصات كافة، ويستفيضون في النقاش، ليصيغوا في النهاية «وثيقة الشباب» ويجري نشرها في كتاب، ويتولى الإعلام المقروء والمسموع والمرئي الترويج له، ثم يترجمه البرلمان المقبل في تشريعات وقوانين، وتترجمه الحكومة في خطط وبرامج، ويترجمه الرئيس في قرارات، ويشارك الشباب في التنفيذ من خلال تولية أكفاء منهم مواقع ومناصب إدارية.

إن هذه الطريقة قد تبدو أكثر ملاءمة لاستيعاب الجيل الجديد، بعد أن أدت الطرق التي تجعل التمكين مجرد فرصة عمل إلى إغضاب الشباب أكثر من إرضائه، لأنه في النهاية «رغيف واحد وجوعى كثيرون»؛ فالوظائف القيادية ليس في وسعها أن تستوعب جميع الشباب، حتى لو شغلوا كل الوظائف، إنما إشراك الشباب في صناعة القرار بوسعه أن يطمئنهم أكثر إلى أن النظام السياسي يترجم تصوراتهم وآمالهم إلى خطط وبرامج ومشروعات واستراتيجيات.

في كل الأحوال، يبدو تقديم اجتهاد أو اقتراح بشأن مشاركة حقيقية للشباب، من أسفل إلى أعلى، أفضل بكثير من تضييع الوقت في تجريب ما ثبت فشله أو استمراء لعبة «الحرث في الماء» التي رأيناها كثيرا، ويبدو في الوقت نفسه متجاوزا لتفكير يفتقر إلى الخيال تنتهجه سلطة سياسية تميل بالغريزة والمصلحة إلى الشخصيات والأفكار القديمة، رغم الحديث المتكرر عن ضرورة أن يكون الشباب حاضرا في كل شيء، والنداء المتواصل لهم بأن يشمروا عن سواعدهم وينخرطوا في العمل.

إننا في سبيل تجاوز هذه المعضلة الديموغرافية، وما لها من انعكاسات سياسية واجتماعية خطيرة، يجب أن نحاول إشعال شمعة بدلا من لعن الظلام، لعلها تنير ولو مسربا ضيقا نحو معرفة الصواب، أو تهز رؤوس أولئك الذين استمرأوا الإنصات لقديم وغث تنطق به ألسنة أناس يفتقرون كثيرا إلى الخيال.

(ط) البحث عن «الكمال الاجتماعي» والمثل العليا

وهي «الأشياء أو الأحوال التي يرغب الناس فيها، وتنطوي على تعديل للقانون أو الحكم أو تعديل في الأوضاع القائمة فيما يرتبط بالعلاقة بين الجماعات»[43]. والمثل الأعلى هو «الفكرة التي تتكون عما يشبع حاجة يحس بها أناس كثيرون بعد

أن يتأثر كل منهم بغيره». ولذا يجب أن نستبعد هنا «كل الحاجات العابرة التي تنشأ عنها مثل عليا موقوتة، وكل التخيلات الشاعرية عن الأشياء المرموقة مادام الناس لم يحسوا بها أو يفهموها كقوى دافعة إلى إعادة تنظيم أي وضع قائم»[44].

وفي أي مجتمع، وأيا كانت الظروف، زاخرة أو بائسة، هناك من لا يتنازل عن التمسك بالمثل العليا، أو لا يكل ولا يمل السعي إلى بلوغ الوضع الأفضل، أو المثالي، فيبشر به، وينتقد السائد، ويتخيل سمات المجتمع الإنساني الأرقى، أو «المدينة الفاضلة»، مؤمنا بأن بلوغها ليس مستحيلا؛ فيما يرى الأديب الإنجليزي كلايف بل في كتابه «المدنية»، وإن لم يغب عن أذهاننا أن مدنية كاملة لم تنشأ في التاريخ، ألا نفقد الأمل في تحصيلها، إن كف الإنسان عن السير وراء غرائزه، ويقول «المدنية وليدة التأمل والتربية، إنها مصطنعة»[45].

والسياسة عموما تتناول تنظيم المجتمع بغية الوصول إلى حياة كريمة، و«اهتمام المفكر السياسي ينحصر في المحافظة على الحياة المتحضرة وتنميتها من دون أن يكون سنده الرئيس أو الوحيد في ذلك مجرد توفير الحاجات المادية التي تتوقف عليها الحضارة بأكملها»[46]، بل هناك من المفكرين من حذّر من طغيان المادة، ورفض «تشيؤ» الإنسان، وقاوم التوحش الرأسمالي.

ولهذا تخيل المفكرون دوما المجتمع المثالي أو «المدينة الفاضلة»، فوجدنا يوتوبيات الإغريق وعصر النهضة والثورة الإنجليزية وعصر التنوير في أوروبا، ويوتوبيات القرن التاسع عشر، ثم اليوتوبيات الحديثة[47]. وسيطر على الفكر اليوتوبي عبر العصور اتجاهان رئيسيان: الأول يسعى وراء سعادة البشر عبر توفير قدر كبير من الرفاه المادي وتذويب فردية الإنسان في الجماعة ومجد الدولة، والثاني يطلب حدا مناسبا من المادية لكنه يعتبر أن السعادة الحقيقية تنجم عن التعبير الحر عن شخصية الإنسان، والتي يجب ألا يضحي بها لأجل قانون استبدادي أو مصلحة الدولة. وهنا تقول ماريا لويزا برنيري، بعد استعراض كل اليوتوبيات عبر التاريخ الإنساني: «سوف نشعر بالضعة عندما نقرأ عن الدول والمدن المثالية، لأننا سنتحقق من تواضع طموحاتنا، وفقر رؤانا. لقد دافع زينون عن النزعة العالمية، وعرف أفلاطون المساواة بين الرجال والنساء، ورأى توماس مور، بوضوح، العلاقة التي ينكرها الناس حتى اليوم بين الفقر والجريمة، وتبنى كامبانيلا، في بداية القرن

السابع عشر، الدفاع عن نظام العمل اليومي المكون من أربع ساعات، وتحدث الألماني أندريا عن العمل الجذاب، واقترح نظاما للتعليم مازال من الممكن أن يعد اليوم نموذجا يؤخذ به»[48].

وتنقل لويزا عن الأديب الفرنسي الشهير أناتول فرانس قوله المعبر والمؤثر عن فضل اليوتوبيا على البشرية، حيث يرى أنه: «لولا يوتوبيات العصور الأخرى، لظل الناس يعيشون في الكهوف عرايا بؤساء. إن اليوتوبيات هي التي رسمت خطوط المدينة الأولى، ومن الأحلام السخية تأتي الوقائع النافعة. إن اليوتوبيا هي مبدأ كل تقدم، وهي محاولة بلوغ مستقبل أفضل». وبالتالي تبقى اليوتوبيا درجة عالية من الخيال السياسي، ويبقى الأخير سبيلنا إلى رسم معالمها على الورق، ثم العمل من أجل تحققها في واقعنا، كي نظفر ولو بالقليل من محاسنها.

وفي درجة أدنى من انتظار «المدينة الفاضلة» يقودنا البحث عن المثل العليا إلى تبني نوع من «الرومانسية السياسية»، وهي صنف من التفكير والتدبير السياسي يستلزم خيالا خصبا بقدر احتياجه إلى عاطفة جياشة نبيلة. ولا يقتصر وجود هذا التفكير على اتجاه سياسي أو أيديولوجيا واحدة، ففي إيطاليا كان الرومانسيون في أغلب الأحيان من الليبراليين، في حين أن الرومانسية ارتبطت في ألمانيا، بوجه عام، بالتيار المحافظ، بينما سلك الرومانسيون الإنجليز سبلا متناقضة، فهناك من دافع عن الموروث، وهناك من كان يحرض على الحرب في سبيل الدفاع عما يراها الحداثة والتنوير والاستقلال[49].

والرومانسية السياسية تتصف بعدة سمات[50]، الأولى: المعنى المسرحي الذي يقوم على البطولة والتضحية والعظمة والدم المسفوح المرتبط بالثورات الرامية إلى إنهاء بؤس الأوضاع القائمة. والثانية: الشفقة على البسطاء والانشغال بهمومهم الاجتماعية والنفسية، حيث تتجلى المطالبة الدائمة بعدالة توزيع الثروات، وتطبيب العوز، ومقاومة الفقر، والشفقة على الشعوب المغلوبة والانحياز إليها إن كانت تكافح في سبيل التحرر من الاستعمار، أو تقاوم الطغيان، أو تواجه كوارث كبرى. والثالثة: وجود تصور عاطفي للسياسة، بما يجعل النظرة إليها تختلف عن تلك التي تتعامل معها على أنها «فن الممكن»؛ لتصبح دعوة إلى التمسك بالمثل العليا، وتهتم بالخطاب المفعم بالبلاغة، لأنها تؤمن بقوة الكلمة. والرابعة: هي النظرة الكلية

إلى الأمور، بما يؤدي إلى عدم الاكتفاء بجدولة المشكلات إنما طرحها بكل ضخامتها، ومدها عبر أرجاء الكون والتاريخ.

ولعل إريك فروم[51]، كان أيضا يبحث عن المثل العليا حين كان ينشد «المجتمع السليم»، في كتاب يحمل هذا العنوان، ناقش فيه مشكلة الإنسان الحديث الذي يعاني في مجتمع يضع كل همه في الإنتاج الاقتصادي، ولا يعبأ بتنمية العلاقات الإنسانية الصحيحة بين أفراده، ولذا يسقط في خلل نفسي وعقلي في ظل غياب الاستجابة للحاجة إلى الاتصال والترابط الحميم والتفرد والتعقل، ومع الخضوع لتحكم التقنية والتنظيم اللذين جعلا الإنسان عبدا لهما.

ويبني فروم حجته هنا على فشل النظامين الرأسمالي والاشتراكي في رد المجتمع إلى صوابه، والفرد إلى طمأنينته، ثم يبشرنا بأن حل الأزمة الإنسانية التي نعيشها يكمن في «اشتراكية اجتماعية» جديدة تكفل للمجتمع سلامة العقل، وتحمي الفرد من أن يكون مطية لتحقيق أغراض غيره من الناس، وتدفعه ليكون منتجا ومسؤولا، عبر الانشغال بالجوانب الإنسانية، وإخضاع النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية لغاية واحدة هي «تنمية الإنسان».

ويقول فروم «إننا في الوقت الحاضر نقدس أوثانا كثيرة ونعبدها، ولو آمنا بالله لحطمنا هذه الأصنام. فنحن نؤله الدولة، ونؤله في الدول الدكتاتورية القوة، ونؤله الآلة، ونؤله فكرة النجاح في الحياة. وفي سبيل ذلك ينفصل نشاطنا عن احتياجات نفوسنا، ونضعف في الإنسان صفاته الروحانية، ومهما يكن من أمر، فواجب الإنسان الحر أن يستنكر عبادة هذه الأوثان، سواء كان من المؤمنين بوحدانية الله أو من دعاة دين جديد، وواجبنا أن نهتم بالجوهر دون العرض، وباللباب دون القشور، وبالخبرة دون اللفظ، وبالإنسان دون النظم، وبهذا الإجماع على استنكار عبادة الأوثان الجديدة تتألف القلوب حول عقيدة مشتركة أساسها المحبة والتواضع، والإيمان بالعالمية، والتعاليم الإنسانية في الديانات العظمى في الشرق والغرب، والنظر إلى الأمور بعين العقل، والاهتمام بالحياة نفسها لا بالمعتقدات والمذاهب. وبهذا الاتجاه الجديد تنشأ طقوس جديدة، وتعبيرات فنية جديدة، تؤدي إلى احترام الحياة، وتماسك الناس»[52].

وتطرق فروم أيضا إلى هذا الأمر، مطلقا العنان لخياله السياسي بحثا عن المثال، في كتابه «الإنسان بين الجوهر والمظهر»؛ محاولا أن يجد ائتلافا وتناغما بين بنية

الشخصية الاجتماعية للإنسان العادي من جانب، والبنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الذي يعيش فيه من جانب آخر. وهو يراهن على تغيير الشخصية الإنسانية عبر عدة شروط مثل المعاناة مع الوعي بهذا وكشف أصوله، والإيمان بأن هناك مخرجا من هذه الحالة، وأن هناك ضرورة لتغيير الممارسات الحياتية الراهنة في جوانبها الاجتماعية والاقتصادية التي ولدت في إطار الرأسمالية، حتى يمكن أن نصل إلى «الإنسان الجديد» المستعد لنبذ التملك كي يحقق كينونته كاملة، ويشعر بالأمان والحرية والثقة والانتماء واستقلال الذات والتفكير النقدي غير الانفعالي واحترام الحقيقة، والشغف بالعالم والتكافل مع الآخرين، ومحبة الحياة واحترامها في مظاهرها وتجلياتها كافة، في ظل الإيمان بأنه لا قداسة للأشياء ولا السلطة، وكل ما لا روح فيه ولا حياة، ومع الحد من الشراهة والكراهية والأوهام وخداع الآخرين والنزوع إلى التدمير، وباتباع طرق لتنمية خيال الإنسان لا كوسيلة للهروب من الظروف المحتملة، وإنما عبر استشراف المستقبل دون القفز على الواقع[53].

ويبدو أن الرؤية التي بثها فروم وغيره في الفضاء الأكاديمي والاجتماعي الغربي قد لاقت آذانا صاغية، أو ربما جاء من يفكر في الطريقة ذاتها، ويعمل خياله السياسي على نطاق واسع، حتى لو لم يكن قد سمع بما صرخ به فروم أو من جاءوا قبله وتعلم منهم، ومن جاءوا بعده وتعلموا منه. فقد عكف فريق بحثي من «مركز البحوث للتنمية الدولية» على دراسة مستفيضة استهدفت وضع الإطار النظري الذي يمكن أن يقام عليه مجتمع جديد في أمريكا اللاتينية بصفة خاصة[54]. وهذا المجتمع ليس استهلاكيا على الصورة التي نراها اليوم في البلدان المتقدمة والغنية، بل هو مجتمع منتج، والإنتاج فيه تحدده الحاجات الطبيعية الضرورية إلى كل إنسان، لا الربح الذي يجيء أو لا يجيء. ونظرا إلى اختلاف الحاجات الضرورية تلك من ثقافة إلى أخرى، اقترح الباحثون ألا يترك تحديد هذه الحاجات إلى أفراد يقرونه وفق هواهم أو مصالحهم الضيقة، إنما لا بد أن يتم هذا بمشاركة أفراد الشعب عن طريق القنوات المشروعة.

وهذه التصورات التي تنطوي على خيال خيِّر، إن صح التعبير، تحتاج في جانب منها إلى تعديل السلوك الإنساني، بعد أن ثبت أننا في حاجة ماسة إلى تغييرات واسعة في هذا المضمار، وهذا لن يأتي بمساعدة الفيزياء أو البيولوجيا فقط، مهما حاولنا،

فهناك انهيار في التعليم وسخط الجيل الصاعد ونقمته، ولا صلة للفيزياء والبيولوجيا بهذا، ولا يكفي في الوقت ذاته أن نكرس التكنولوجيا في خدمة احتياجات الإنسان الروحية، و«ما نحتاج إليه حقا هو تكنولوجيا للسلوك، فحينئذ يمكننا أن نحل مشكلاتنا بسرعة معقولة، إذا ما استطعنا ضبط نمو سكان العالم بالدقة نفسها التي نضبط بها مسار سفينة فضاء، أو تحسين الزراعة والصناعة بشيء من الثقة التي نسرع بها ذرات الطاقة العالية، أو السير نحو عالم ينعم بالسلام بشيء شبيه بالتقدم المطرد التي تقترب بها الفيزياء من الصفر المطلق، على الرغم أن كليهما، السلام والصفر المطلق، افتراضان بعيدا المنال»[55].

لكن ما وصلنا إليه حقا الآن في الرومانسية السياسية لا يبلغ ما ارتقاه خيال كانط في البحث عن «السلام الدائم» وفقا لما سيُشرح لاحقا، لكنه يقف عند حد مقبول من الناحية النظرية، وما ينقص حقا هو تفعيل هذه المبادئ الخيِّرة، التي تقوم على إرساء التواضع والرأفة والرضا والحب والتسامح والتعايش والإيمان بقدرة الإنسان على تجاوز الصراعات وتحقيق السلم، وسعيه الدائم إلى معرفة الحقيقة، وتحليه بالمسؤولية حيال الآخرين، وتضامنه معهم من منطلق الإيمان بوحدة المصير الإنساني، وبحثه عن القيم المشتركة، وإرساء أخلاقية كونية تعمل على خدمة الإنسان والإنسانية[56].

وقد دعا عالم اللاهوت الألماني هانز كونغ إلى إنشاء «إعلان عالمي للأخلاق» على غرار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، يقوم على ثلاث ركائز(57):

أ - لا يمكن للإنسانية أن تعيش وتبقى من دون أخلاق عالمية.

ب - لن يكون هناك سلام عالمي من دون سلام بين الأديان.

ج - لن يكون هناك سلام بين الأديان إلا إذا تحاورت.

وقد التقت شخصيات حازت جائزة نوبل للسلام بمناسبة إحياء الذكرى الخمسين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وصاغت بيانا حول «ثقافة السلام»، دعا كل فرد إلى أن يحترم الحياة، ويرفض العنف، ويتعامل بسخاء، وينصت من أجل التفاهم، ويكتشف قيمة التضامن، ويحافظ على كوكب الأرض[58].

ويمثل توماس هـ. غرين (1836 – 1882) في إنجلترا وبنديتو كروتشي (1866 – 1952) في إيطاليا، مرحلة جديدة في «المثالية» لما بعد كانط[59]، حيث أسسا

مثالية وثيقة الصلة بالليبرالية. فكان للأول مثالية متكاملة مع فلسفته، تسعى إلى إيجاد بديل للنفعية المباشرة، متماشية مع ما تطلبه الديانة المسيحية، حيث ترى أن تحقيق الذات لدى كل فرد يحقق الوحدة للمجتمع ككل، وتعتبر هذا فضيلة أخلاقية وغاية مشروعة، بدلا من التصور النفعي للحرية الذي يدفع الفرد إلى إشباع رغباته من دون حد ولا قيد.

ونادى غرين بحرية إيجابية، تعمل على تحرير جميع الناس بالتساوي من أجل المساهمة في المصلحة العامة، وبذا تبقى حرية الفرد مطلبا مشروعا للمجتمع والدولة، ورأى أن الدولة المثلى هي التي تهتم بتهيئة الظروف الضرورية لتمكين الفرد من تحقيق ذاته، عن طريق حماية حقه وواجبه، وتدرك أنها ليست أعلى شأنا، ولا أرفع مكانة، من الشعب الذي تخدمه.

وقد ألهم غرين جيلا كاملا من الشباب بفلسفته تلك فانخرطوا في أعمال خيرية وتعليمية، وتعلمت منه الليبرالية الجديدة في بريطانيا كيف تتخلى عن المبادئ الجامدة حول التجارة الحرة والحرية السلبية في تشجيع تدخل الدولة كي تدعم الأخلاق والرفاه.

أما الثاني، كروتشي، فقد قاوم الفاشية، وسعى إلى استنباط الحكمة العامة من التاريخ الذي ولع بدراسته، وعمل على تعزيز كل ما هو نافع وحقيقي وجميل وصالح، وحاول أن يفرض إطارا أخلاقيا للممارسة السياسية، لتصبح السياسة مجالا للأخلاق في النهاية.

وكان طلب «المثل العليا» قد بلغ مدى واسعا وعميقا لدى الفيلسوف الألماني الشهير إيمانويل كانط (1724 - 1804)، فطرح مشروعا للسلام الدائم، وشرح بأسلوب دال وبليغ ما دفعه إلى هذا، حين قال: «ليس من شأننا أن نتساءل عما قصد إليه صاحب فندق هولندي، حين رسم على ناصية فندقه مقبرة كتب فوقها عبارة: إلى السلام الدائم»، ترى هل أراد بذلك الشعار الساخر أن يوجه اللوم إلى البشر عامة، أم خص به رؤساء الدول المتعطشين إلى الحروب، أم قصره على الفلاسفة الذين يراودهم هذا الحلم اللذيذ؟! لكننا نود أن نضع الشرط التالي: مادام أصحاب السياسة العملية ينظرون إلى أصحاب السياسة النظرية بأَنَفة واستكبار، ويعدونهم حكماء لا خطر منهم على الدولة التي يجب أن تستمد مبادئها من التجربة،

وماداموا ينظرون إليهم نظرهم إلى لاعبين غير مدربين يمكن التغلب عليهم بشيء من المهارة، فينبغي على السياسي الخبير أن يكون منطقيا مع نفسه حين تصطدم آراؤه بآراء الفيلسوف فلا يستنكرها ولا يجد فيها على الدولة خطرا: هذا شرط وقائي يحاول المؤلف به أن يدرأ عن نفسه كل تأويل يسيء الظن به أو يتجنى عليه»[60].

وانطلق كانط في رؤيته تلك من ثلاثة مبادئ: الأول عقلي يقوم على أن أكبر الشرور التي أصابت الشعوب المتمدينة جاءت بسبب الحروب، أو الاستعداد لها. والثاني أخلاقي، يتأسس على عدم الخلاف بين الأخلاق والسياسة. والثالث سياسي يرتبط بتمكين الشعوب من القرار، وانقضاء الاستبداد، فحين تصبح سياسة العالم أخلاقية، ويوم أن يكون لكل دولة دستور ديموقراطي ينص على عدم إعلان الحرب إلا بتصويت المواطنين جميعا، ويوم ينتهي الطغيان، وتحترم كرامة كل مواطن في بلده، ستصبح الحروب شيئا من الماضي البغيض.

وينطوي مشروع كانط على ست مواد أساسية، أو تمهيدية، أشبه بالمحظورات أو النواهي، هي[61]:

1 - لا تعد معاهدة سلام معاهدة بالمعنى الحقيقي إذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه إثارة الحرب مجددا، نظرا إلى أن مثل هذه النية الخبيثة تجعل من المعاهدة مجرد هدنة.

2 - لا يجوز لدولة أن تملك بطريق الميراث أو التبادل أو الشراء أو الهبة دولة أخرى، صغيرة كانت أو كبيرة، فالدولة يجب أن تكون كالفرد، له وحده حق التصرف في نفسه.

3 - يجب ألا تشكل جيوش دائمة، لأن وجودها يشكل تهديدا للسلم، وقوانينها تتعامل مع الجندي على أنه آلة قتل وليس إنسانا.

4 - يجب على الدول ألا تقترض من أجل النزاعات، فهذا من شأنه أن يشجع على اندلاع المعارك، ويودي بالدول إلى الإفلاس.

5 - يحظر على أي دولة أن تدس أنفها أو تتدخل بالقوة في شؤون دولة أخرى، فالدول كالأشخاص لها حرمتها، ولها وحدها حق التصرف في شؤونها.

6 - لا يسمح لأي دولة في حال حرب ضد غيرها أن ترتكب أعمالا عدائية كالقتل والتسميم ونقض شروط التسليم والتحريض على الخيانة.

ووضع كانط ثلاث مواد نهائية على هذه النواهي، أولاها أن تكون السلطة التشريعية التي تقرر الحرب صادرة عن إرادة الشعب، فمثل هذا يضمن منع الحرب، إذ إن الحكام المستبدين يستهينون بأرواح الناس ومصائرهم، ومن ثم فهم أكثر جرأة على شن الحروب. والثانية هي قيام اتحاد بين الدول الحرة، بما يقلل من الهمجية أو الانحطاط البهيمي لدول تعتقد أن الحق ينبع من القوة، وأن الحرب هي الملجأ الوحيد لتحقيق النصر. والثالثة تخص إكرام أي أجنبي يحل في بلد ما، وعدم معاملته على أنه عدو[62].

إن مثل هذا الطرح، الذي أُهمِل طويلا، حتى بعث من النسيان في القرن العشرين، لا يمكن أن يتأتى إلا لشخص يملك خيالا سياسيا ممزوجا بحلم نبيل وتفاؤل مفرط وإيمان راسخ بـ «العقل الخالص» الذي يفترض أن يقود الإنسان في النهاية إلى الاعتقاد الجازم بأن الحرب عمل أخرق، ويقود العالم برمته إلى النظر في التقارب المتواصل حتى يصل إلى «تحالف أممي» أو «اتحاد عالمي». وكان كانط، بكل تأكيد، يستعمل خياله هذا في سبيل خدمة مثل عليا، أو مثل لا يعلو عليها شيء.

وهناك رؤية عربية حاولت تكريس الجهد على تعديل السلوك الإنساني عبر الأخلاق والعقل، أبدعها قسطنطين زريق في كتابه «ما العمل: حديث إلى الأجيال العربية الطالعة» وسماها «العقلانية - الخلقية» مؤسسا إياها على اقتناع بأن الأيديولوجيات السائدة في العالم العربي «لم تفلح في إزالة الأوضاع السيئة أو تخفيف شرورها»[63]، ويحصر هذه الأوضاع في مشكلات الفساد، والتسلط، وتعثر التنمية، وتغليب الكم على الكيف في حياتنا، إلى جانب ما أسماه القصور الوطني والقومي[64].

وعرض زريق خريطة بمواقف الأفراد والجماعات في العالم العربي من هذه الأوضاع «المضطربة والضاغطة»، مقسما إياها إلى نوعين[65]: الأول يشمل من وصفهم بالمهزومين، وهم أولئك الذين تغلب الأوضاع المأساوية عليهم، فينهزمون أمامها، ولا يحاولون تغييرها. ويتوزع هؤلاء على «الغائبين» الذين يمثلون، في نظره، الكثرة المطلقة من الجماهير العربية، المنشغلة بأعباء الحياة اليومية، حيث السعي الدائب وراء لقمة العيش، ومكافحة مختلف الأمراض، والمعاناة من وطأة ظلم الحكام، وبذل الجهد في سبيل الحفاظ على البقاء، ومن ثم لا يبقى لديهم ما

يكفي من الوقت والجهد للشعور بضرورة تغيير الأوضاع، أو على الأقل اكتساب القدرة على ذلك، و«القدريين»، الذين يشعرون بوطأة الحاضر ومشكلاته المعقدة، فيستسلمون لها، ويعتقدون أن ما يجري ليس من صنع أيديهم، ولا يمكنهم تغييره، وأن أي محاولة يقومون بها في هذا الاتجاه مآلها الفشل. ومن بين هؤلاء من يحملون فهما خاطئا للدين، وهم كثر في عالمنا العربي؛ و«الهاربين» الذين يفرون من هذه الأوضاع، سعيا وراء الرزق أو الأمن، إما إلى الخارج (هجرة العقول العربية)، وإما إلى الداخل، حين تأنف النخب من الأحوال الجارية في «المراكز» وتخشاها، فتهاجر إلى الهوامش أو الأطراف الجغرافية، لتنأى بنفسها عن أي مشكلات مع السلطة، وتنعزل عن المجرى الرئيس لحركة الحياة. وهناك «الندابون واللوامون والمستهزئون»، وهم إما ينوحون على مصيرهم القاسي وحظهم العاثر، أو ينحون باللائمة على هذا أو ذاك من الحكام والزعماء والمتزعمين، وإما يسخرون من أي بارقة أمل في إصلاح الأحوال. وأخيرا هناك «المستغلون»، الذين يجدون في استشراء الفساد فرصة سانحة للقفز على المناصب، وجمع الثروات.

أما النوع الثاني فيشمل «الملتزمين»، وهم في رأي زريق، أولئك الذين اختاروا مذهبا أو أيديولوجية، فاعتنقوها، وسعوا إلى تطبيقها في الواقع، الأمر الذي أدخلهم في علاقات ما مع السلطة والمجتمع. وهؤلاء يتوزعون على التيارات السياسية الرئيسة في العالم العربي، وهي القومية، والإسلام السياسي، واليسار بمختلف ألوانه بدءا من الاشتراكية الاعتدالية إلى الشيوعية. لكن جهود هؤلاء لم تثمر المأمول من بذلها، ولم تترك أيديولوجياتهم، في نظره، أثرا إيجابيا يذكر، يمكنها من تغيير الأوضاع السائدة، ومن ثم إخراج العرب من وهدتهم الراهنة.

وأمام هذه المشكلات المعقدة، والبشر الموزعين على مشارب ومواقف عدة، تفتق الخيال السياسي لزريق عن أن الحل يكمن في تحويل السكوني إلى حركي، والقلق السلبي إلى قلق إيجابي، والانتقال من العجز إلى القدرة، ثم إلى التحرر. ولن يتم هذا، في رأيه، إلا عبر مبدأين أساسيين هما العقلانية والخلقية[66]. والعقلانية تقوم على «إخضاع كل شأن من شؤوننا، وكل قضية من قضايانا لأحكام العقل المتفتح، الضابط، الساعي إلى التمييز بين الصواب والخطأ، والمعرفة والجهل، والخير والشر»(67). وترتكز العقلانية إلى عدة أسس، أولها الموضوعية، التي تعني دراسة

الأمور بشكل مجرد، بالاعتماد كليا عليها ذاتها، والاستقلال عن أي وهم أو شهوة أو اعتبار لدينا. وثانيها الخضوع للنقد، أي فتح أبواب النقد الذاتي على مصاريعها، في ظل جو من الحرية والمسؤولية. وثالثها العزم والجَلَد، فنحن لا نصل إلى الحقيقة دفعة واحدة، ولا نقفز إليها مرة واحدة، ولكن عبر جهد طويل في ظل إرادة حية وسعي مستمر ومتراكم، من أجل اكتشافها، ومن ثم ممارستها. ويجب أن نكون مستعدين لتحمل أي صعاب تواجهنا، مهما كانت قاسية، في رحلة بحثنا عن الحقيقة. أما الخلقية، فتقوم، في رؤية زريق، على قاعدة أولية تتضمن الاهتمام بالآخر قبل الاهتمام بالذات. وهذا الآخر قد يكون فردا، وقد يكون مجموعة، تصل إلى حد الوطن، والإنسانية برمتها.

ولا يقدم زريق هذين المبدأين، اللذين اشترط توافرهما حتى يمكننا بناء إطار فاعل للحركة السياسية العربية، وهما في حالة انفصال أو سكون، بل في حالة تفاعل، أو تأثير متبادل، فالعقلانية هي في الوقت نفسه مزية أخلاقية، والعقلانية لا تتم، ولا يمكن تحصيلها بالتخلي عن الخلق، بل بالاستناد إليه.

(ي) الجماعات المتخيلة[68]

ويقصد بها «القوميات» القائمة على أساس العرق أو الدين أو اللغة أو الجهة أو الظرف التاريخي والمصلحة المشتركة، حيث يتخيل أفراد كل قومية منها حدودهم الجغرافية وحدودهم السياسية والإدارية، أو يتخيلون سيادتها، وقد يخترعون لها أساطير وحكايات، بل قد يمتد الاختراع هذا إلى ميلاد دول بأكملها باعتبارها «دولة مخترعة»، مثل تركيا التي أقامها مصطفى كمال أتاتورك على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، ومن بقايا كل الأجناس التي انحسر عنهم سلطانها الذي امتد نحو خمسة قرون.

إن الدولة العثمانية، التي يعود نسبها إلى عثمان بن أرطغرل زعيم إحدى قبائل وسط آسيا، هي مثل واضح في هذا المضمار، فهي حين صارت دولة مرهوبة الجانب عند منتصف القرن الخامس عشر، ثم صارت إمبراطورية واسعة الأرجاء بقوة الغزو، راحت تصنع تاريخا لها، وتخترع تراثا، زعمت بمقتضاه أن أصل مؤسسيها يعود إلى سيدنا نوح عليه السلام[69].

وإذا كانت الدولة هي التجسيد السياسي الأبرز في عالمنا المعاصر، بعد أن ترسخت أقدام «الدولة القومية» التي نشأت في أوروبا خلال القرن السابع عشر، فإن كيانا

اجتماعيا ينشأ على أرض وله سلطة يعد بدوره مرحلة مرتفعة من الخيال السياسي. فلو أن القادة التاريخيين أو المجموعات النشطة التي أقامت هذه الدول لم تكن تمتلك خيالا سياسيا واسعا ما كان في وسعها أن تعلن قيام دولة، سواء على أنقاض الاستعمار، أو بعد انتهاء زمن الإمبراطوريات التي تعاقبت على التحكم في العالم القديم والأوسط والحديث.

هناك بلدان كثيرة صنعت فيها الدولة الأمة، التي تقوم على حقائق اقتصادية واجتماعية وإقليمية، لكن هذا تم عبر إجراءات شمولية نفذتها إدارات اقتصادية وضريبية وتعليمية إلى جانب التوظيف والتجنيد ووسائل الإعلام والمنظمات الثقافية. وكل ذلك جعل الأمة حقيقة أو أمرا واقعا يفرض نفسه على إدراك وتخيل أعضائها، لكنه لم يفرض بالضرورة شعورا بالتضامن أو الولاء بين الأشتات التي تشكل هذه الأمة[70].

وقد ينطبق هذا الأمر على الآباء الأوائل الذين أعلنوا قيام الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب أهلية ضروس، أو على القادة المؤسسين في دول عديدة، الذين تحمسوا لدمج مجموعات بشرية مختلفة في بعض الخصائص، كالدين أو المذهب أو العرق أو اللغة، لتكون دولة مستقلة لها علم ونشيد، ولها دستور يشكل الإطار العام والأساس الذي يحكم العلاقة بين مواطنيها. وينطبق هذا أيضا على التجارب الوحدوية في بلدان عدة.

ويمتد تخيل تاريخ الجماعات البشرية إلى حد قيامها باختراع تراث لها، فكثيرا يكون «ما نتصوره ثقافة أصيلة يجب المحافظة عليها أو عدم الخروج عليها ما هي إلا ثقافة مخترعة أو مستحدثة أو مبتدعة أو مستزرعة نشأت في ظروف معينة»[71].

ولا يقف اختراع التراث أو اختلاق تاريخ الجماعات على الغزاة والمستعمرين، بل يقصد بعض الأفراد والجماعات التي لا تاريخ لها - يستحق الذكر - إلى تخيل تاريخ وأصول تتفق مع ما آلت إليه أحوالهم من ثروة وجاه ونفوذ.

إن في وسعنا هنا أن نتحدث عن «التقاليد المبتدعة»، أو التراث المتخيل، بمعنى واسع، «يشمل تلك التي ابتُدِعت فعلا، وتلك التي أُنشئت وأخذت شكلا مؤسسيا، وتلك التي تنشأ بطريقة يتعذر تتبع مسارها خلال مرحلة زمنية قصيرة يمكن تحديد تاريخها، والتي تثبت نفسها وترسخ قواعدها بسرعة بالغة»[72].

لقد اخترع سكان المرتفعات في أسكتلندا تقاليد لهم سبكوها لتصير طقسا لاحتفالهم بشخصيتهم الوطنية، التي سعوا إلى أن يكون لها طابع مميز عن جميع الجزر البريطانية، على رغم أن سكان المرتفعات الأسكتلنديين لم يشكلوا في أي حقبة تاريخية شعبا مميزا، على الأقل قبل السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر، بل كانوا ببساطة يمثلون الزائد من التدفق السكاني الوافد من إيرلندا، ليجعلهم البحر، مثل جميع البريطانيين، مدفوعين إلى التوحد، ومع هذا اختاروا الفرقة والتميز، ولم يكن هذا ممكنا إلا باختراع تاريخ اجتماعي وفولكلور مختلف[73].

وأعاد الدارسون والوطنيون في ويلز اكتشاف تقاليدهم التاريخية واللغوية والأدبية الغابرة، بعد أن كانت شخصيتهم الاجتماعية تكاد تُطمس تماما تحت سطوة العادات الإنجليزية، وتفقد جاذبيتها المعروفة. وعندما وجد هؤلاء أن التقاليد التي عملوا على إحيائها ليست كافية، راحوا يتخيلون ماضيا لبلادهم غارقا في الرومانسية والأساطير الجاذبة، لم يكن له وجود في واقعهم البعيد[74].

وأعاد البريطانيون أنفسهم اختراع طقوس حافلة بالأبهة والفخامة ليربطوها بالملكية، ويحافظوا عليها، على رغم تعاقب القرون، وهي طقوس تعود إلى أكثر من ألف عام، وقت أن كان هناك تنافس دولي حاد، وكان الانتصار يستحق كل هذه الأبهة. وبينما كانت الملكية تغور في بعض بلدان أوروبا وتأخذ معها تقاليدها القديمة، كانت الملكية في بريطانيا تنتعش، وتنتعش معها «التقاليد المبتدعة»، من استعراض التيجان والأوسمة والمفاتيح الذهبية والعصي والصولجانات البيضاء، والقصبات السوداء، والفراء الأبيض الناعم، وباروكات الشعر... إلخ[75].

وعمد الاستعمار الأوروبي لأفريقيا إلى اختراع تقاليد وثقافات راحت ترسخ جذورها بمرور الزمن، وصارت طيعة بين أيدي المؤرخين والسياسيين ودعاة القومية وجامعي الموروث الشعبي ودارسيه، وقد توزعت في سبيلين: الأول مستجلب من أوروبا ذاتها، وبات له نفوذ على الطبقة الحاكمة في البلدان الأفريقية، على رغم أنها موروثات تراجعت وبُلي بعضها في الثقافات الأوروبية، بل صارت مصدر فخر لهذه الطبقة، التي تحرص طوال الوقت على أن يبقى الحبل السري بينها وبين المستعمرين، خصوصا من تبقى منهم مقيمين في البلدان الأفريقية، غليظا ومتينا. أما الثاني فيتمثل في الثقافات الأفريقية المحلية الذي أسهم في اختراعها وتكريسها

موظفو الإدارات الحكومية الاستعمارية، والمبشرون، والتراثيون التقدميون من أبناء البلاد، وكبار السن، وعلماء الأنثربولوجيا[76].

ك - توظيف «الصناعات الإبداعية» في خلق التماسك الاجتماعي/ السياسي

تنبع فكرة الصناعات الإبداعية من تقارب نظري وعملي بين الفنون الإبداعية بوصفها نتاج الموهبة الفردية والصناعات الثقافية باعتبارها منتجا جمعيا أو جماهيريا. ويتم هذا التقارب في ظل تقنيات إعلامية جديدة داخل اقتصاد معرفي، ينتج سلعة مختلفة أو «بضائع رمزية» عبارة عن أفكار وصور وتجارب يستهلكها مواطنون متفاعلون بدرجات متفاوتة مع هذا المنتج[77].

فالمعرفة والأفكار تقود عملية تكوين الثروة والتحديث، حيث تشكل العولمة والتقنيات الجديدة قوام الحياة والخبرة اليومية، في ظل الاعتقاد الجازم بأن الإبداع هو الذي سيقود التغير الاجتماعي والاقتصادي خلال القرن الحالي، وأن الصناعات الإبداعية ستكون عنصرا مهما في تكوين الاقتصادات المتقدمة، وستنشأ طبقة اقتصادية جديدة أفرادها ليسوا من أصحاب الياقات البيضاء ولا الزرقاء مثلما هي الحال بالنسبة إلى طبقتي العمال والموظفين اللتين تقدمان الخدمات في الاقتصاد التقليدي، ولن تكون لهم ساعات عمل محددة، ولا يمكن إجبارهم على العمل، وإن كانوا لا ينقطعون عن العمل أبدا، وستنتقل هذه الطبقة من الهامش إلى قلب التيار الاقتصادي السائد، وستسقط الطرق الهرمية التقليدية للتوجيه التي تعتمد عليها الإدارة في الوقت الحالي، لتحل محلها أشكال من الإدارة الذاتية، أو التوجيه الناعم، الذي يصاحبه إقرار المساواة والعمل السريع الناجز، وطرق حقيقية من التحفيز[78].

وبذا تحتاج الصناعات الإبداعية إلى ابتكار ومغامرة وقدرة فائقة على إطلاق مشروعات مختلفة وجديدة، وأصول غير ملموسة، وتطبيقات خلاقة للتقنيات الجديدة، ويتم هذا في إطار مؤسسي قد يكون «مدنا إبداعية» أو «مناطق إبداعية»[79].

ويمكن لهذه المشروعات أن تذهب في طريق تحقيق عوائد اقتصادية جمة، ويمكنها أن توظف في سبيل تحقيق غايات اجتماعية وسياسية مهمة. ففي الشق الأول مثلا انتبهت الدول المتقدمة صناعيا في أواخر القرن العشرين إلى الأهمية الاقتصادية البحتة للصناعات الإبداعية، ولم يكد القرن الجديد يبدأ حتى أخذت

تجني ثمار انتباهها، فقد قُدر صافي عائدات صناعة حقوق النشر الأمريكية بنحو 791.2 مليار دولار أمريكي في العام 2001، وهو ما عادل وقتها نحو 8 في المائة من إجمالي الناتج القومي، وهي صناعة يعمل بها 8 ملايين عامل، ويبلغ إسهامها في الصادرات الأجنبية نحو 89 مليار دولار، وهو ما يفوق إسهام الصناعات الكيميائية، والسيارات، والطائرات، وقطاع الزراعة، والقطع الإلكترونية، والكمبيوتر. وفي بريطانيا، قُدرت عوائد الصناعات الإبداعية في العام نفسه بنحو 122.5 مليار إسترليني ويعمل بها 1.3 مليون شخص، وتسهم بـ 10.3 مليار جنيه من الصادرات، وتشكل 5 في المائة من الناتج القومي الإجمالي[80].

أما بالنسبة إلى الشق الثاني، فإن المستثمرين الثقافيين في وسعهم أن يؤدوا دورا حاسما في تعزيز التماسك الاجتماعي، وتقوية الشعور بالانتماء. فالفن والثقافة والرياضة في وسعها أن توفر ملتقيات راسخة وفسيحة لأشخاص يعيشون في مجتمع يزداد تباينا وانقساما وتفاوتا مزريا، وقد كانت تلك ملتقيات يوفرها فيما مضى العمل أو الدين أو النقابات[81]. وليس معنى هذا أن تلك المسارات الثقافية تشكل بديلا للملتقيات التقليدية تلك، بل يمكن أن تعمل إلى جانبها وتعزز دورها، وتخدم معها عملية تعميق الانتماء للدولة الوطنية والقيم والرموز الاجتماعية السائدة والتي تعمل على صهر الجماعة الوطنية في بوتقة مكينة ومتينة.

من هنا فإن صناع السياسة يجب أن يمتلكوا القدرة على تخيل ما للصناعات الإبداعية من دور في تعزيز السياق الذي يغذي المدنية والديموقراطية والدولة الوطنية، أو يستعينوا بمن لديهم هذه القدرة على التخيل، بحثا عن مسارات وشبكات وأدوات جديدة تساعد الدولة على أداء وظائفها وتعطي النظام السياسي قدرة فائقة على تبرير وجوده واستمراره.

ليس معنى هذا أن تستخدم الصناعات الإبداعية كجزء من عملية تدجين وتنميط للمجتمع، وتكون أشبه بحالات التثقيف التي تقوم عليها النظم الشمولية والمستبدة والمؤدلجة، بل يتم الحوار مع القائمين على هذه الصناعات بحيث تعمل في الاتجاه الإيجابي، ليس فقط فيما تدره من عائد اقتصادي، بل فيما توجده من قيم وتصورات تعمل في اتجاه الخيرية والتماسك والتنوير وتحسين شروط المعيشة بما يؤدي إلى التقدم في الحياة.

(ل) صناعة دور دولي

لا يغلق زحام التنافس الشديد بين الدول الكبرى في العالم على المكانة السياسية والاقتصادية والعسكرية الطريق تماما أمام أي دولة راغبة في أن تنحت لها دورا، سواء على المستويين الإقليمي أو الدولي، لكن على النخبة السياسية في هذه الدولة أن تجلس قليلا أو كثيرا لتتخيل هذا الدور، وتوظف إمكاناتها المادية والبشرية والعلمية في تحقيقه.

وهذا الأمر ينطبق على العالم العربي، الذي سأطبق هذه النقطة في وظيفة الخيال السياسي عليه لحاجته الماسة إليها أكثر من أي نقاط سبق ذكرها. فالعرب خاضوا معارك التحرير في منتصف القرن العشرين ضد الاستعمار ليجدوا أنفسهم الآن منهكين بفعل تعثر الثورات والانتفاضات، وتوحش التيارات الدينية المتطرفة، بعد أن عانوا طويلا فسادا واستبدادا صاحبا مرحلة ما بعد الاستقلال، التي أخفقت في تحقيق التكامل الوطني والانصهار الاجتماعي الطوعي عبر الديموقراطية والتنمية والعدل الاجتماعي وحقوق المواطنة، وتركت الدول هشة في مواجهة أي تقلبات تهز أركانها الاجتماعية على أساس طائفي أو عرقي أو جهوي أو طبقي أو أيديولوجي.

وبمرور السنين تغيرت موازين القوى، وتراجعت قدرات العرب، الذين كان يقال إنهم القوة السادسة في العالم عسكريا قبل خمسة عقود فقط، لتصبح إمكاناتهم مجتمعة في التسليح أقل من إسرائيل، وفي الاقتصاد أضعف من إسبانيا، وفي عالم الترجمة والنشر أدنى من دولة أوروبية صغيرة فقيرة هي اليونان، أي أنهم فقدوا، إلى حين، القدرة على أن يجعلوا من أنفسهم رقما ذا بال في المعادلة الدولية.

وكان هناك منطقان لإيجاد هذا الرقم، الأول هو انتظار مشروع عربي كبير وشامل، طرح تارة في إطار الوحدة وأخرى في الاكتفاء بتنسيق السياسات وتعزيز العلاقات في مختلف المجالات؛ أما الثاني فكان يحتاج إلى خيال لم يتأت حتى الآن، يدفع في اتجاه الانتقال من إدارة المعارك الكبرى في عالم الحرب والمال، إلى الصغير من المعارك، لجني فوائد سريعة ترمم بعض الشروخ التي مزقت البنيان العربي على مدار العقدين الأخيرين، وتخلق أفقا جديدا أمام كتلة بشرية وجغرافية ولسانية ودينية، صار ينظر إليها غالبا، حتى من بين أبنائها، بأنها بلا مستقبل.

فبدلا من انتظار لحظة تاريخية فارقة يستعيد فيها العرب جزءا من مجدهم الضائع وحضاراتهم العظيمة التي أهدت الدنيا عطايا مادية لا تنسى، ونفحات روحية لاتزال متوهجة، على العرب أن يعملوا بجد واجتهاد في سبيل تحسين أوضاعهم الراهنة بالقدر الذي يسمح لنظامهم الإقليمي بالبقاء على قيد الحياة، أو على أقل تقدير الحيلولة دون تدهور أوضاعهم إلى الحد الذي يخرجهم تماما من «زمام التاريخ»، أو يؤدي إلى «إعلان وفاتهم» وفقا لما قاله الشاعر الشهير نزار قباني ذات يوم في قصيدة بكائية أبدعها في لحظة يأس جارف، تصور فيها أن الغد سيكون، بالضرورة، أسوأ من اليوم، وأن العروبة تسير، لا محالة، إلى ذهاب أبدي.

إن معطيات التاريخ تهدي إلينا حكمة عميقة وناصعة عن أمم لم تقعدها الهزائم الكبرى، أو النكسات الشاملة، أو الوهن العام الذي تمكن منها حتى النخاع، عن محاولة كسب النزال المحدود والاشتباك المحدد مع وقائع حياتية جانبية، نراها صغيرة وهي من عظائم الأمور، حتى خرجت من ضيق إخفاقها إلى براح الإنجازات العريضة التي دفعتها إلى مقدمة الصفوف، بعد أن كانت قبل عقود في عداد الأمم المغيبة عن التدفق الرئيس لحركة العلاقات الدولية.

ولعل ما مرت به الصين والهند، مثلا لا حصرا، يدلل على هذا الأمر بجلاء لا يشوبه غموض، ووضوح لا يصيبه لبس، ولم يكن في وسع هاتين الدولتين الكبيرتين أن تنطلقا إلى مصاف القوى العظمى في العالم لولا امتلاك نخبة الحكم والقوة الفاعلة قدرة هائلة على تخيل أدوار من عدم، ثم الانتقال من هذا الخيال الإيجابي الخصب إلى وضع استراتيجيات للتقدم في الحياة.

فالصين ما ظن أحد أنها ستفيق من حرب الأفيون، وتسترد وعيها، وتطلق طاقتها في اتجاه المزاوجة بين ما في القيم التقليدية الكنفوشيوسية من جوانب أخلاقية إيجابية وما في ثورتها الحمراء من اتجاه صارم وقوي إلى تهيئة المجتمع لحياة عملية مختلفة، ثم تقرر، بعد الدخول في جدل عميق حول الملامح النهائية للأيديولوجيا وحدود التفاعل المرن مع العالم، أن تخط لنفسها بثقة طريقا مستقيمة، جنت منها ثروة طائلة، وحققت لبكين وجودا اقتصاديا، ومن ثم ثقافيا وسياسيا أحيانا، في كل مكان على سطح الأرض.

ولم تشأ الصين أن تستمر في مناطحة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق في عالم التسلح الرهيب، بل امتلكت فقط في هذه الناحية ما يكفي للدفاع عن سيادتها

الوطنية، ولم تجارِ القطبين الكبيرين إبان الحرب الباردة في بلوغ أجواز الفضاء الرحيب، بل قررت أن تبدأ من مجال هامشي ضئيل في عالم المال والقوة، لكنه بالغ التأثير في دنيا الحضور الثقافي والرمزي، ثم الاقتصادي فيما بعد، وهو صناعة «لعب الأطفال»، التي لم تلبث أن اتسعت لتطوق مجالات صناعية تلبي الاحتياجات اليومية البسيطة للفرد والأسرة في أرجاء العالم جميعا، من ملبس وأدوات كتابية وزينة وهدايا... إلخ، وأنجزت في هذه الناحية إلى الدرجة التي تثير حنق وحقد الولايات المتحدة.

أما الهند، التي اختارت العصيان المدني طريقا للمقاومة في أداء عبقري قاده رمزها العظيم المهاتما غاندي، فإن توصلها إلى السلاح النووي لردع غريمتها التاريخية باكستان لم يدفعها إلى التلويح بهذه «القوة الخشنة» طريقا لحيازة مكانة دولية، بل التفتت إلى إدارة معركة صغيرة كان انتصارها فيها مظفرا، بكل المقاييس، إلى درجة أن الدولة التي كانت تحتلها، بريطانيا، باتت في حاجة ماسة إلى الاستفادة من مظاهر هذا النجاح الهندي.

والمعركة التي اختارتها الهند بدأت بالسينما والموسيقى ووصلت الآن إلى عالم الاتصالات والبرمجيات. فإذا كانت الموسيقى الهندية قد اكتسبت شهرة عالمية بتفردها وسحرها وعذوبتها وخصوصيتها التي تنبت من ذائقة الهنود ووجدانهم، فإن سينما الهند خطت طريقها باقتدار، وفرضت أسواقها، ونافست السينما الأمريكية في آسيا وأفريقيا، على وجه الخصوص، وباتت تشكل مصدرا مهما من روافد الدخل القومي للبلاد، في وقت يزيد فيه الطلب يوما إثر يوم على مهندسي ومبرمجي الكمبيوتر الهنود للعمل في أرفع المؤسسات الاقتصادية والعلمية الأوروبية.

على النقيض من ذلك، يقع الخطاب السياسي والثقافي العربي، على اختلاف المناهل الفكرية والأيديولوجية التي ينبع منها، في فخ الينبغيات العريضة، فهو يطالب بمشروع نهضة كاملة وتمكن واسع ينتج مكانة وقوة دولية بارزة، دفعة واحدة، وفي سرعة فائقة، حتى بعد انهيار بعض الدول العربية ودخولها في نفق الصراع السياسي والمذهبي. وهذا الطرح لا يعبر عن طموح بقدر ما يشي بتجاهل حركة الواقع وسنن التاريخ، وجهل في قراءة الإمكانات الراهنة للعرب، فتكون نتيجته إما الاستسلام للبقاء في الظل واستمراء الضعف والهوان والتفكك بعد تكرار الفشل في تحقيق نجاح كاسح دفعة واحدة، أو الميل إلى التفسير التآمري لكل شيء،

وكأن العالم لا شغل له سوى الكيد لنا، وهذا يتم تحت وطأة خيال كسيح، لاسيما أن القادرين على التخيل مستبعدون من صناعة القرار في أي مجال ولأي اتجاه.

وقد يكون العرب معذورين جزئيا في استعجالهم وإحساسهم بأن هناك ما يدبر ضدهم في الخفاء، في ظل التحيز الأمريكي الجلي لإسرائيل، ومع احتلال العراق تحت ذرائع واهية، في الوقت الذي تتمسك فيه الولايات المتحدة بالخيار السلمي طريقة لحل المشكلتين الكورية الشمالية والإيرانية، وفي ظل همزات الوصل بين أجهزة استخبارات غربية وجماعات وتنظيمات إرهابية تعمل على تفكيك الدول العربية، وكذلك في ظل توظيف قوة مدنية داخلية مرتبطة بالغرب في تعميق الاستتباع العربي للولايات المتحدة وحلفائها.

لكن العيب أن يُضخَّم هذا العذر، ليصبح بمنزلة مرض نفسي عضال، يكرس حالة الهروب من مواجهة التفاصيل اليومية العربية، أو تجاهل مسائل مهمة صغيرة، وصغرها ليس طبعا ولا طبيعة أصيلة فيها بل نتاج قيامنا بتهميشها بإرادتنا، وانحيازنا في الوقت نفسه لحساب «الكليات» الكبيرة، التي هي بنت الأيديولوجيا أكثر من كونها الإفراز الطوعي للواقع الذي يتبدل باستمرار.

لقد حان الوقت للعرب، الشعوب قبل الأنظمة والناس قبل الحكام، أن يلتفتوا إلى المعارك الصغيرة فيخوضوها بثقة واقتدار، بدءا من معركة تغيير الصورة النمطية المغلوطة عنهم، التي تطفح بها مناهج التعليم ووسائل الإعلام الغربية، وانتهاء بتقديم إسهام ولو بسيط في حركة الحياة المائجة، قد يكون في تلبية احتياجات الباحثين عن «الامتلاء الروحي»، وما أكثرهم على سطح الأرض، وما أحوجهم إلى بساطة ومنطقية وسلاسة العقيدة الإسلامية بتبنيها التوحيد، شرط أن نخلص نحن الإسلام من الحمولات الثقيلة لتاريخ المسلمين. وقد يكون فرض احترام الموسيقى الشرقية الخالصة، التي تتفرد باكتمال لحني لا يتوافر لنظيرتها الغربية، وقد يكون التخصص في سلعة خارجة من رحم البيئة العربية، أو غير ذلك من مجالات حياتية تبدو، على قوتها وأهميتها، بسيطة في نظر المتعجلين، الذين لا يرون الإنجاز إلا من خلال دق طبول الحرب.

إن هناك مجالات عدة يمكن للعرب الإسهام فيها في الحضارة الإنسانية المعاصرة، لكن عليهم أن يجلسوا أولا لتخيل هذا الدور ومفرداته، ثم تخيل كيفية دفعه في أوصال العالم من شرقه إلى غربه.

6

نماذج للتخيل السياسي

«بقدر عظم التحديات التي نجابهها، وبقدر اتساع دائرة الطموحات التي تؤرقنا، تكون هناك حاجة ماسة وملحة إلى الدرس والتأمل والبحث على أسس رحبة، وبحيث يجري استبيان العوامل والمتغيرات والقوى المؤثرة والتيارات الفاعلة في حركة المستقبل العربي»

هناك نماذج عديدة جزئية وكلية لمحاولة إطلاق العنان للخيال السياسي بغية الخروج من ضيق الواقع إلى رحاب الآتي، سواء على المستوى النظري أو التطبيقي العملي.

فعلى المستوى النظري حاول رايت ميلز أن يخط معالم الخيال الاجتماعي في كتاب يوصف بأنه يمثل: «مقدمة رائعة وملخصا للنزعة الإنسانية الكامنة وراء علم الاجتماع كعلم.. يربط بين الأبعاد الاجتماعية والشخصية والتاريخية لحياتنا، ويتخذ موقفا نقديا من النزعة الإمبريقية المجردة والنظريات الكبرى في آن». وهذا الاصطلاح يعني «رؤية اجتماعية وأسلوبا للنظر إلى العام يمكن أن يدرك الارتباطات بين المشكلات الفردية التي تبدو شخصية في الظاهر والقضايا الاجتماعية المهمة»[1].

أما على المستوى التطبيقي فقد توزعت معالمه على ما هو عام، وما ينصرف إلى حالات بعينها. ومن الحالات العامة تلك المحاولة التي قام بها غاريث ستيدمان وإيرا كاتزنيلسون[2]، حيث تخيلا تأثير التفكير الديني والعلمنة في الحالة السياسية في المستقبل، بعد أن فحصاها جيدا في الماضي، وتحديدا منذ بداية القرن السادس عشر، ليوفرا وسائل جديدة للتفكير في إلحاح المسائل الدينية على عالمنا المعاصر، وعلى ما سيأتي فيما بعد.

وتوجد رؤية أخرى سعت إلى قراءة «الفدرالية» في الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها مثالا ناصعا للحلم السياسي، وكيف يمنحنا «الخيال المستيقظ» أو الحاضر دوما قدرة على تشكيل السلطة العامة والحفاظ عليها عبر الزمن، وكيف يهبنا إمكانية وضع استراتيجيات لتعزيز ولاء المواطن للحكومة الاتحادية وليس على مستوى الولايات المحلية فقط، وكيف يجعلنا نتلافى أي عيوب تظهر في النظام الديموقراطي[3]. وهي محاولة لتقديم نموذج طالما ألهب بعض خيال المفكرين السياسيين، بل وممارسي السياسة، في البلدان التي تعاني مشكلات عرقية وطائفية وجهوية.

وهناك مثل تطبيقي بالغ الدلالة، قدمته المعارضة السياسية في بولندا، حين تخيلت خلال حكم نظام شيوعي مستبد أنها تعيش في مجتمع حر، ووسعت من هامش الحريات الضيق، بعد سنوات من قرارها الانفصال عن النظام الرسمي والعمل بشكل مستقل، وإيجاد حياة عامة بديلة، حيث خرجت من تحت الأرض، ونشر المعارضون أسماءهم وعناوينهم وأرقام هواتفهم، ووزعوا منشورات على الناس، فكسبوا أرضا جديدة، وقفوا عليها ليسقطوا النظام فيما بعد[4]. وهم هنا لم يكتفوا بالإغراق في حلم التغيير، بل صنعوا هذا الحلم، وحولوا «الافتراضي» إلى «واقع»، وما «ينبغي أن يكون» إلى «كائن». فقد تجاهلوا السياق السياسي - الاجتماعي المقبض، الجاثم على صدورهم، وتصرفوا كأنهم يعيشون في دولة ديموقراطية، فكسروا حاجز الخوف، وتعدوا الخطوط الحمراء التي كانت قد رسمتها السلطة المستبدة أمام أقدامهم، فحققوا بالخيال ما أرادوه.

لكن هذه الخطوة الشجاعة المتكئة على خيال سياسي جارف بُنيت على خطوة سابقة لا تخلو أيضا من خيال، قام بها البابا يوحنا بولس الثاني، بابا الفاتيكان، حين

زار بولندا الشيوعية وخرج الملايين لمقابلته، حيث خاطب البولنديين: «لا تخافوا، تصرفوا كأحرار، وغيروا وجه بلدكم». وقد اعترف الرئيس البولندي ليخ فالينسا، الزعيم الأسطوري لمنظمة التضامن التي ناضلت سنوات ضد النظام الشيوعي، بأن البابا قد لعب الدور الرئيس في إسقاط الشيوعية في بلاده.

وقال إنه لم يتمكن في فترة السبعينيات من تجميع عشرة أشخاص كانوا على استعداد لمقارعة النظام الشيوعي لأنه لم يكن أحد يصدق أن هذا النظام يمكن أن يُهزم، وفجأة يصبح مواطن بولندي بابا للفاتيكان، وبعد عام من ذلك يزور بلده، ويخرج الملايين لملاقاته، وعلى إثرها يتخلى الناس عن خوفهم، وبعد أن كان فالينسا غير قادر على تنظيم عشرة، بات قادرا على تحريك عشرة ملايين، وهو أمر لم يكن ممكنا قبل زيارة البابا التي جعلت الناس تفيق وتنهض، لتنطلق الاحتجاجات والإضرابات[5].

وتوجد نماذج جزئية، فردية أو مؤسسية، على الخيال السياسي، منها ما قدمه بريجنسكي في كتابه «الاختيار»، والذي يصفه بأنه «تنبؤي من جهة وتوجيهي من جهة أخرى»[6]، فيما يصف صموئيل هنتنغتون الكتاب بأنه «تحليل ألمعي موجز، ولكن ثاقب البصيرة للسياسة العالمية المعاصرة والدور الأمريكي فيها»، ويقول كوفي أنان، الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة، إن بريجنسكي «يقدم حجة بارعة لمصلحة التعددية بتفكيره الواضح المألوف، وسعة بصيرته، ويكشف لماذا يجب أن نسعى إلى بناء مجتمع عالمي ذي مصالح مشتركة، وكيف يمكن أن تساعد الولايات المتحدة في قيادة هذا المسعى».

حاول بريجنسكي في كتابه هذا أن يجيب عن أسئلة من قبيل: ما هي التهديدات الرئيسة التي تواجه أمريكا؟ وكيف تتصدى لها؟ وهل يحق لها أن تكون الأمة الأكثر أمانا في العالم، وهل في وسعها أن تدير بكفاءة علاقاتها الاستراتيجية مع العالم الإسلامي الذي ينظر إليها غالبا بوصفها عدوا؟ وهل بمكنتها أن تحسم الصراع العربي - الإسرائيلي؟ وما يلزمها لجلب الاستقرار إلى بلاد البلقان؟ وهل بمقدورها أن تؤسس شراكة حقيقية مع أوروبا؟ وهل يمكن ضم روسيا إلى إطار أطلسي تقوده واشنطن؟ وما الدور الذي يمكن أن تمارسه أمريكا في الشرق الأقصى؟ وما احتمال أن تؤدي العولمة إلى إيجاد مذهب مخالف أو تحالف مضاد لأمريكا؟ وما هو حجم تهديد الزيادة السكانية والهجرة للاستقرار العالمي؟ وهل تتواءم الثقافة الأمريكية

مع المسؤولية الإمبريالية بالضرورة؟ وهل تتوافق ديموقراطيتها مع دور الهيمنة السياسية؟ وكيف تتفاعل واشنطن مع التفاوت في القضايا الإنسانية[7]؟

أما المحاولات المؤسسية الخاصة، فمنها تلك التي أخذها على عاتقه أحد الناشرين في بريطانيا خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث تبنى مشروعا طموحا لاستكشاف المستقبل، فطلب من مائة عالم وخبير وباحث وأديب، أن ينتجوا عدة كتب، كل في تخصصه، يتصورون فيها حياة الناس بعد نصف قرن. وحين جاءت سنة 1970، أخذ البعض يقارن بين ما تنبأ به هؤلاء وما تحقق بالفعل في الواقع المعيش، فوجدوا أنه على الرغم مما وقع في تقديرات المؤلفين من أخطاء، فإنهم قد بلغوا من دقة الحساب حدا يلفت النظر، فأحدهم تنبأ بهبوط الإنسان على سطح القمر، وكاد التاريخ الذي حدده لذلك يطابق ما جرى في الواقع. وكانت هناك أيضا نبوءات في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وهذا ليس مجاله هنا. أما النبوءات التي ترتبط بهذا المقام فمن بينها تلك النبوءة التي توقعت انهيار الاقتصاد البريطاني وأفول الإمبراطورية التي لم تكن تغرب عنها الشمس. وهناك باحث تنبأ بقيام إسرائيل، ثم توقع سرعة تفككها وانهيارها معللا هذا بزوال عقدة الاضطهاد التي كانت سببا في نشأة هذه الدولة[8]، وهي النبوءة التي لايزال كثيرون ينسجون على منوالها في وقتنا الراهن.

وقام مركز دراسات الوحدة العربية خلال النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي بتنفيذ مشروع حول «استشراف مستقبل الوطن العربي»[9]، انطلق من خلال دراسة إرث الماضي للتعلم منه، بتفادي السلبيات وتعزيز الإيجابيات، إلى الحاضر بمعطياته، ليضع ثلاثة سيناريوهات للمستقبل استنادا إلى الواقع المعيش، على النحو التالي:

1 - مشهد التجزئة، حيث دُرس النسق العالمي والإقليمي، والتطورات الاقتصادية، والتفاعلات الاجتماعية، وحال المجتمع والدولة، وحصيلة السياسات بمختلف أنواعها، والسياسات الممكنة التي تحكم الصراع من أجل البقاء.

2 - مشهد التنسيق، وهنا دُرست الملامح العامة للمشهد الراهن، والتحديات المطروحة والاستجابة الفعالة، والقوى الدافعة للتعاون العربي، والتطورات الاقتصادية، والسياق الإقليمي والعالمي، والتداعيات الاجتماعية وحصيلتها، ثم السياسات والآليات.

3 - مشهد الوحدة العربية، حيث النزوع إلى الكيانات الكبيرة، وهنا دُرس التحول الديموقراطي، وتلاحم المجتمع العربي، وأنساق القيم الجديدة، وشكل الدولة وطبيعتها، وقضية المواجهة مع الخارج، سواء الدول الكبرى أو إسرائيل. وهنا توزعت الدراسات على ثلاثة محاور: محور العرب والعالم، ومحور المجتمع والدولة، ومحور التنمية العربية. وأعد الباحثون المنفذون للمشروع «نموذجا» يساعد في المقارنة بين هذه المحاور، وقياس متطلبات ونتائج كل منها.

وعلى الرغم من أن استشراف المشروع انتهى إلى توقع خيار «التجزئة» فإنه دعا، كخطوة وقائية، إلى إطلاق مشروع نهضوي عربي يقوم بغية تحقيق ستة أهداف: الوحدة العربية، والديموقراطية، والعدالة الاجتماعية، والتنمية المستقلة، والاستقلال الوطني والعدل، والتجدد الحضاري.

وفي مطلع ثمانينيات القرن العشرين أيضا شجعت جامعة الأمم المتحدة باحثين وطنيين في أقاليم مختلفة من العالم الثالث على استشراف مستقبل بلادهم، كان في مطلعها العالم العربي، حيث اشتغل باحثون في مشروع يحمل اسم «المستقبلات العربية البديلة»، والذي ركز على الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية التي يحتمل أن تؤدي إلى خلق مسارات لتنمية بديلة، وقد صدرت حصيلة هذا الجهد في كتاب تحت عنوان «صور المستقبل العربي»[10]، شارك في تأليفه عدد من الباحثين والخبراء الاقتصاديين المرموقين، وهم إبراهيم سعد الدين، وإسماعيل صبري عبد الله، وعلي نصار، ومحمود الفضيل، وساعدهم خبراء آخرون.

وانطلق القائمون على هذا المشروع من اقتناع بأن التفكير في المستقبل العربي بات ضرورة، إذ قالوا في مستهل عملهم اللافت: «في ضوء كل صعوبات التقدير والاختيار والتأثير في حركة الأوضاع المستقبلية، تبرز أهمية التفكير والتأمل العلمي الشامل من خلال نشاط ذهني متسع ومتصل.. فبقدر عظم التحديات التي نجابهها، وبقدر اتساع دائرة الطموحات التي تؤرقنا، تكون هناك حاجة ماسة وملحة إلى الدرس والتأمل والبحث على أسس رحبة، وبحيث يجري استبيان العوامل والمتغيرات والقوى المؤثرة والتيارات الفاعلة في حركة المستقبل العربي، حتى يمكن استشراف أبعاد صور المستقبل العربي كافة بما تحوي من مشاكل وتحديات وبما تنطوي عليه من طاقات وإمكانات، فالأمور قد تطيب أو تخبث

بالنسبة إلى المشاهد الاحتمالية للمستقبل العربي بقدر ما تنجح من الآن، ومن دون إبطاء، في إعداد العدة للمستقبل عن طريق حسن الدرس والتقدير، وحسن التدبير معا، وذلك حتى لا تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»[11].

بدأ المشروع بوضع «المستقبل العربي» في إطار مقارن مع النماذج العالمية المتداولة، والتي اختُبِرت في مناطق وأقاليم ودول أخرى في العالم، ليحدد ملامح المستقبل العربي في بعض الوثائق الخاصة بالاستراتيجيات العربية في مجال الأمن الغذائي، والتنمية الصناعية الرامية إلى الوفاء بالحاجات الأساسية إلى المواطنين العرب، والأنماط البديلة للتنمية وأساليب الحياة، وتوفير الطاقة، وتطوير التعليم والتربية، وتطرق المشروع إلى نقاط تفصيلية أكثر شمولا من قبيل العلاقة بين البنى الاجتماعية السياسية والتنمية، وعملية صنع القرار، والديموقراطية والاتصال الجماهيري والمشاركة الشعبية، والاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وآليات التبعية، والعلاقة مع النظام العالمي المتغير، والآثار غير المدروسة للثروة النفطية، والموارد البشرية وسبل تنميتها، وموارد واستخدامات العلم والتكنولوجيا، والفنون والآداب، والإطار المؤسسي للتكامل العربي، والتوحد العربي وقضايا الأقليات.

وانتهى القائمون على المشروع بآمال عريضة علقوها على إمكانية أن تؤدي مثل هذه الدراسات العلمية إلى تحسين شروط الحياة في العالم العربي من الخليج إلى المحيط، إذ قالوا في ختام ما قدموه: «والأمل كل الأمل أن تساعد هذه الدراسات والحوارات جميعا في إلقاء مزيد من الضوء على العوامل الحاكمة لصناعة المستقبل العربي، وأن تساعد بالتالي على تحديد ماهية الافتراضات التي يمكن الاستناد إليها، وماهية طبيعة القيود التي لا بد من أخذها في الحسبان عند محاولة رسم الصورة التجميعية للتطورات العربية المحتملة، سواء اتخذت هذه المحاولات شكلا كميا أو تأمليا»[12].

وهناك محاولة قام بها مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية مع مطلع القرن الحادي والعشرين، حيث وجه دعوة إلى نخبة متميزة من المفكرين والباحثين ذوي المكانة العلمية الرفيعة، كل في مجال تخصصه، بغية استقراء بعض ملامح المستقبل، وتقديم رؤية عميقة ومدروسة تسهم في إجلاء غموض ما سيأتي وتحديد معالمه بصورة دقيقة. وفي ركاب هذا قدم المؤرخ المعروف بول كندي إجابة

عن سؤال محوري عن التحديات التي تواجه البشرية في القرن الحادي والعشرين، وعرض المفكر ألفن توفلر صورة ناصعة لموجات التغيير التي لحقت بمختلف الثقافات وتأثيرها في الفرد والأسرة والمجتمع، ودرس جيرمي ريفكن دراسة عن الآثار التي تخلقها هندسة الجينات على البشر، وشرح زبغنيو بريجنسكي محددات النظام الدولي في القرن الحالي، وبين كينيشي أوماي ما يتصوره عن طبيعة الدولة في القرن نفسه، وقدم إيرل تيلفورد ما يتوقعه عن شكل الحروب في المستقبل، وقدم آخرون تصوراتهم عن نظم الصحة والتعليم والإعلام والاتصال والمعلومات، والصيغة التي ستأخذها المنافسة الاقتصادية وحركة الأسواق[13].

وتوجد محاولات قامت بها مؤسسات عامة في دول أو عبر منظومة دولية، منها تلك التي جرت في الولايات المتحدة الأمريكية في العام 1975 بمناسبة مرور قرنين على استقلال البلاد، حيث أعد اثنان من علماء الفيزياء هما هيرمان كان ووليام براون ومعهما ليون مارتل، دراسة بعنوان «العالم بعد مائتي عام» محاولين أن يقفوا على معالم الثورة العلمية والتقنية خلال القرنين المقبلين، ومنطلقين من مقولة مفادها: «نحن في زمن ذاعت وراجت فيه دراسات تشير إلى أن مستقبل البشرية مظلم وكئيب»، لتبدأ الأسئلة: ما العمل؟ وما هو المصير؟ وهل تنتظر البشرية كارثة محققة؟ وكيف يمكن أن نتفادى هذا؟ ثم قدموا رؤية حول المنظور الصحيح للنمو وسبل البحث عن طاقة بديلة ومتجددة ومستقبل المواد الخام، وحجم الطلب على الغذاء، ووضع البيئة، ومشكلات الانتقال إلى مجتمع ما بعد التصنيع. وصارت هذه الرؤية نواة لسلسلة من الدراسات المستقبلية ظهرت في العقود اللاحقة لتستشرف ما سيكون عليه العالم[14].

وهناك الجهد الذي تقوم به «جمعية مستقبل العالم»، واحدة من أهم رواد المستقبليات، وهي تجمع علمي وتربوي غير حزبي غير هادف للربح، يضم خمسة وعشرين ألفا من المهتمين بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية والتقنية التي تؤثر في المستقبل. وتتخذ الجمعية، التي تأسست في العام 1966، من الولايات المتحدة الأمريكية مقرا لها، ويتوزع أعضاؤها على عدد من أقطار العالم، وتصدر عددا من المجلات والدوريات العلمية، علاوة على نشرة إخبارية على شبكة الإنترنت، وتعقد مؤتمرات في مختلف الموضوعات التي تناقش المستقبل.

ويمكن هنا أن نشير إلى المؤتمر الذي عقدته الجمعية في العام 2005 بمدينة شيكاغو بالولايات المتحدة، وشارك فيه ستة وثلاثون باحثا ينتمون إلى ثمانية بلدان، ونشرت أوراقه في كتاب حوى ثمانية أقسام[15]، الأول عرض منظورا شاملا للاتجاهات حول التجديد والأثر، من العام إلى الخاص، بما في ذلك بحوث عن الهندسة الجينية والطب النانوي؛ والثاني دار حول العلم والروح والجسد والعقل، حيث تتبع الأفكار حول دوري العلم والدين في التاريخ الإنساني، وتأثيرهما في مستقبل البشر؛ والثالث يستقصي القضايا العالمية مثل استخدام الموارد وإهدارها، وسبل الوصول إلى التنمية المستدامة. والرابع يتطرق إلى الابتكارات والاستراتيجيات التي تطبقها المنظمات والشركات التجارية والحكومات.

أما القسم الخامس فيعرض أفكارا جديدة ترمي إلى تقدم البحوث المستقبلية، والطرق التي يعمل بها الباحثون في مجال المستقبليات، والسادس يعرض دراسات حالة في المستقبليات، ليصور تطبيقات عملية لتوظيف الاستبصار في وضع حلول لمشاكل معينة، والسابع عن التعلم لعالم الغد، والذي لا يقتصر على تناول مسألة وضع التفكير في المستقبل ضمن برامج التربية والتدريب. وأخيرا، يعرض الجزء الثامن الدروس المستفادة من الماضي، والقيم والأفكار التي يصنعها الذين سبقونا، وكيف يمكن أن ترشدنا إلى مستقبل أكثر حكمة.

وهناك المحاولة التي قامت بها المؤسسة الفنلندية للبحث والتنمية في العام 1991 تحت إشراف رئيس وزراء البلاد لاستشراف توجهات التطور العالمي، والوقوف على القوى الرئيسة التي ستحرك الأحداث، وقد انتهت إلى وضع خمسة سيناريوهات محتملة:[16] أولها أسمته «المخطط الكبير» Master Plan ويرى أن الاندماج العالمي سيقود إلى تناغم اقتصادي وسياسي، وتنمية مستدامة، في كنف التعاون الدولي وتقوية المؤسسات العالمية؛ وثانيها هو سيناريو المال والتكنولوجيا Money Tech، وهو يتوقع دخول العالم في مرحلة انتقالية اقتصاديا وسياسيا بفعل التطور الصناعي الذي تغذيه الشركات متعددة الجنسيات يصاحبها نمو غير عادل، وتفكك البنى الاجتماعية؛ أما ثالثها فسيناريو عالم الاختلافات Worlds of Difference، حيث يعود الصراع الأيديولوجي الذي كان سائدا في سنوات الحرب الباردة، لكنه هذه المرة بين الحضارات الإنسانية الكبرى في العالم المعاصر.

ورابعها يسمى سيناريو ما بعد السقوط After the Fall، حيث تتراكم المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية التي يعاني منها العالم، فتنجم عنها اضطرابات تحتم مراجعة جذرية لمفهوم «التطور الاجتماعي» وتدفع في اتجاه إعادة تشكيل النظم الاجتماعية والسياسات الاقتصادية؛ والأخير هو سيناريو المراكز والمحيطات Centers and Peripheries، إذ تقود الصراعات الحادة بغية الهيمنة إلى بروز مراكز عالمية جديدة للسلطة.

وفي العام 1994 عكف أكثر من مائتين وخمسين باحثا خبيرا فنيا من كبار المهنيين من المكاتب والشركات الهندسية والمتخصصة والأكاديميين من كل الجامعات في إسرائيل وممثلين لعشر وزارات، وممثلين عن الوكالة اليهودية وسلطة المياه ودائرة أراضي إسرائيل، على الإجابة عن سؤال مفاده: كيف ترى إسرائيل نفسها في العام 2020؟[17] وقادهم خيالهم إلى التفكير في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الخاصة بصورة إسرائيل كدولة يمكن أن تكون في مصاف الدول الصناعية الأولى، وعلاقتها بـ «الشعب اليهودي» في مختلف أنحاء العالم، وموقف إسرائيل من الدول العربية التي تطوقها. وقد بينت الدراسة، التي صدرت في عدة مجلدات، أن هدف إسرائيل هو التوسع الجغرافي والاقتصادي على حساب الدول العربية لحل معضلة الانفجار السكاني، لاسيما مع استهداف ربط إسرائيل بكل يهود العالم، باعتبارها مركزا لقوتهم العسكرية والاقتصادية والحضارية.

وعلى مستوى المنظومة الدولية بأسرها، هناك محاولة قامت بها الأمم المتحدة، حين شكلت لجنة عالمية للبيئة والتنمية برئاسة رئيسة وزراء النرويج آنذاك، وطلبت منها أن تعد، بمساعدة فريق من الباحثين والخبراء، دراسة عن مشكلات البيئة والتنمية فوق كوكب الأرض، وكيف يمكن استخدامها من دون الجور على مقدرات الأجيال القادمة. بل وصل الأمر إلى مساهمة الآلاف في هذه الدراسة، وهو ما عبرت عنه رئيسة اللجنة بقولها: «لقد أسهم الآلاف من الناس من جميع أنحاء العالم في عمل اللجنة بالوسائل الفكرية والمالية، وبمشاركتنا في تجاربهم بواسطة التعبير عن حاجاتهم ومطالبهم». وقد وجهت اللجنة نتائج عملها إلى الحكومات ومنظمات المجتمع المدني والقطاعات الخاصة عبر العالم كله، ودعت الجميع إلى

التضافر من أجل مواجهة التحديات التي تجابه البيئة والتنمية[18]. وهناك دول استفادت من نتائج هذه الدراسة، وأخرى لم تلق لها بالا.

وبالقطع فإن ما عُرض سابقا ليس كل المحاولات التي سعت إلى إعمال الخيال بغية التنبؤ بما سيأتي، فالعلماء والأدباء في كل مكان، وفي أزمنة متعاقبة، كانوا مشغولين دوما بالسؤال عن المستقبل، وعارفين لأهمية التخيل في كشف المجهول وإجلاء الغامض، وأنتجوا في هذا الشأن تصورات ورؤى عديدة، لا تخلو أمة ولا زمن منها أبدا.

ومع مطلع تسعينيات القرن العشرين، وفي إطار الأمم المتحدة، اجتمعت لجنة «إدارة شؤون المجتمع الدولي» والمكونة من ثمان وعشرين شخصية عالمية، متنوعة الخبرات والاهتمامات والمسؤوليات، لدراسة الأساليب التي من شأنها أن تساعد المجتمع الدولي على إدارة قضاياه، ومواجهة تحدياته، وحل مشكلاته، على أفضل وجه ممكن.

واعتقدت هذه اللجنة، التي لم تكن تعني قط إقامة حكومة عالمية أو عالم لا نظم فيه ولا قواعد، أن وجودها هو جزء من تطور الجهود الإنسانية لتنظيم الحياة على كوكب الأرض، ورأت أنها لا تقدم برنامج عمل يصلح لكل العصور، لكنها رأت أن الوقت قد حان كي ينطلق العالم من مخططات تراكمت وتطورت على مر القرون حتى وصلت إلى الأمم المتحدة، التي عليها أن تجدد أدواتها في سبيل مساعدة العالم على عيش أفضل.

واستهدفت اللجنة إقامة «عالم جديد»، منطلقة من أن «قدرة الناس الجماعية على تشكيل المستقبل هي أكبر الآن من أي وقت مضى، كما أن الحاجة إلى ممارستها أصبحت الآن أكثر إلحاحا، والتحدي الرئيس الذي يجابه هذا الجيل هو حشد تلك القدرة من أجل جعل الحياة في القرن الحادي والعشرين أكثر ديموقراطية، وأكثر أمنا واستمرارية، والعالم في حاجة إلى رؤية جديدة يمكن أن تحرك البشر في كل مكان لتحقيق مستويات أعلى من التعاون في المجالات ذات الاهتمام المشترك، والمصير المشترك»[19].

وحوى التقرير الذي أصدرته اللجنة دراسة للظواهر والحالات والمشكلات التي يمر بها العالم مثل العولمة، وسباق التسلح، وتصاعد النزاعات المدنية

والعنف واسع النطاق، والفقر، ومستقبل القطاع الخاص، وأوضاع السكان، وموارد الأرض، ووسائل الإعلام، والتغير الذي طرأ على المجتمع المدني، وكيفية تمكين الشعوب، وإيجاد القيادة المستنيرة. وبعدها طرح التقرير عدة قيم من شأنها أن تزيد من متانة الجيرة في العالم بأسره بمعالجة أسباب التوتر وفرض أخلاقيات للجوار. وحُددت هذه القيم في احترام الحياة والحرية والعدل والمساواة والاحترام المتبادل ومراعاة الغير والنزاهة، ثم طرح عدة معايير لإقامة نظام أخلاقي مدني عالمي مثل الحقوق العامة، والمد الديموقراطي، ومكافحة الفساد، وإقامة الديموقراطية، وتعزيز الشرعية، وواءم بينها وبين المعايير القديمة مثل السيادة وحق تقرير المصير.

ونظر التقرير في إمكانية تعزيز الأمن الإنساني عبر إجراءات لتجنب الحروب والعنف والفوضى، والإنذار المبكر، وإرسال بعثات تقصي الحقائق، والتسوية السلمية للمنازعات، وخلق أدوار جديدة لحفظ السلم، وتحمل نفقاته، وتفعيل العمل بالفصل السابع لمجلس الأمن الدولي، وإنشاء قوة متطوعين تابعة للأمم المتحدة، وإنهاء التهديد باستخدام أسلحة الدمار الشامل، وتجريد المجتمع الدولي من الطابع العسكري.

كما تطرق التقرير إلى المسائل الاقتصادية، فدعا إلى إدارة الاعتماد المتبادل في المجال الاقتصادي، ومواجهة الفقر، وتعزيز النمو، واستغلال الطاقات البشرية المعطلة والمهملة، وإقامة نظام تجاري متعدد الأطراف يتسم بالقوة، وإصلاح عمل صندوق النقد الدولي وتوظيف جهوده لتحقيق الاستقرار الاقتصادي العالمي، وإعادة التفكير في مبادئ الإدارة، ومعالجة أزمات الديون، وإطلاق تقنيات من أجل التنمية، والتصدي للكوارث البشرية والطبيعية، والنظر في إنشاء «مجلس أمن اقتصادي»، والعمل على حماية البيئة العالمية.

ونظر التقرير في إمكانية إصلاح الهيئات التابعة للأمم المتحدة نفسها، لاسيما الجمعية العامة ومجلس الأمن والقطاعات الاجتماعية والاقتصادية والهياكل التنظيمية، وخلق المجتمع المدني العالمي، وتعزيز سيادة القانون على الصعيد العالمي.

خلاصة وتوصيات

سعى هذا الكتاب إلى الإجابة عن التساؤلات الأساسية حول «الخيال السياسي» من حيث تعريفه، وأهدافه، ومجالات توظيفه، ومنابع استنباطه، وسبل تنميته أو تعزيزه، ثم قدم بعض التطبيقات العملية عليه، من خلال استعراض تجارب عديدة فردية وجماعية، خاصة ورسمية. وهو بذلك يضع تصورا أوليا حول هذا الموضوع، الذي لم يحظ، على أهميته، بانشغال الباحثين العرب، على رغم الحاجة الماسة إليه في واقعنا المعيش، حتى نخرج من ضيق الحالي والآني، إلى براح القادم والآتي.

وأرى أن النظرة العلمية للخيال السياسي، وفق ما جادت به هذه الدراسة، تتطلب منا أن نراعي ابتداء ثلاثة أمور:

أولا، يجب ألا نقول في الخيال السياسي «حتما»، فقد لا نتخيل كل ما سيحدث، بل قد تسقط نبوءتنا تماما تحت أقدامنا، لأننا في النهاية لا نعرف كل شيء عن المستقبل مهما حاولنا، بل إننا في أغلب الأحيان لا تتوافر لنا هذه المزية عن وقتنا الحاضر أو عن الماضي القريب، فكثير من المعلومات تحجب أو يتعذر وصولنا إليها، وإن وصلنا إليها فإن تحليلنا لها قابل للوقوع في أخطاء مهما توخينا الحذر.

ثانيا، يجب ألا نقول في الخيال السياسي «مطلقا»، فالأمور التي نفكر فيها نسبية، والأدوات التي نستعملها نسبية أيضا، ومختلف على حجيتها، كما أن ما سنتوصل إليه يبقى نسبيا، وهذا من سمت العلم أو صفته. وإذا كان هذا ضروريا، ولا يمكن تفاديه حيال المسائل محددة المعالم، فإن ذلك لا ينطبق على مسألة الخيال على ما فيها من سيولة.

ثالثا، يجب ألا نقول في الخيال السياسي «أبدا»، فالنتائج التي سنصل إليها، حتى لو كانت غاية في الدقة والإحكام، هي مؤقتة، إذ إن زحف التاريخ إليها وبلوغها يفكك بعض جوانبها، وقد يفرض علينا أن نفارقها إلى نقطة أكثر تقدما، ونحن نتفاعل بلا هوادة مع شبكة معقدة جدا من المواقف والحالات والظواهر والظروف المستجدة دوما.

وكثيرا ما يبرهن الزمن وحده على أن ما تخيلناه كان صوابا أو خطأ، حقيقة أو وهما، ولهذا فما نتخيله الآن، ونسجله على الورق، ونضع على أساسه تصوراتنا للمستقبل، قد يتسرب من بين أيدينا، ويذوب في الهواء، لأن الأيام

التي تقدمت حاملة تصاريفها ووقائعها، ويمكن أن تجرف في طريقها كثيرا مما اعتقدنا رسوخه وثباته.

بناء على هذه الخلاصات الأساسية، أو وفق ما تهديه إلينا من سبيل، نحتاج إلى أن نوسع دراسة الخيال السياسي، نظريا وتطبيقيا، في حياتنا المعاصرة، وأن يكون له نصيب في كل ما يأتي:

1 - تقديرات المواقف التي يقدمها أو يعدها مساعدو الساسة أو متخذو القرار وكبار موظفي الجهاز الإداري للدولة ومستشاروهم. وقد يتفرغ فريق منهم لممارسة تمارين في الخيال السياسي، وكتابة نتائج ما تخيلوه وتقديمه إلى من يصيغون التصورات النهائية، قبل تقديمها لمتخذي القرار.

ولعل القراءة الدقيقة لأسباب الإخفاق في كثير من السياسات التي تنتجها حكومات عربية عدة، تظهر للوهلة الأولى افتقارها إلى الخيال، ووقوعها في فخ الجمود والتكلس، ومن ثم افتقارها إلى الفاعلية.

2 - توصيات الأطروحات الجامعية والكتب العلمية التي تتصدى لدراسة المشكلات التي يستعر بها واقعنا، ونسعى جاهدين إلى وضع حلول ناجعة لها. فأغلب التوصيات السائدة من هذا النوع لا ترى إلا تحت الأقدام، ولا تنظر إلى الأمام أبدا، وتكون، في الأغلب الأعم، مجرد استرجاع لبعض المقولات أو شيئا من سد الذرائع، أو إبراء الذمة، أكثر منها تبصرات مستقبلية حقيقية.

3 - البرامج التي تضعها الأحزاب السياسية، وكذلك المتنافسون على المناصب التشريعية والتنفيذية في الدولة. وهنا قد تتنافس الخيالات أيضا بما يؤدي إلى تجويد البدائل وتعميق الحلول المقدمة للتغلب على الصعوبات والمشاكل، وهي عديدة وعميقة في الحالة العربية. ويبدو توظيف الخيال السياسي أمرا ملحا بالنسبة إلى الأحزاب، لاسيما إن كنا نعول عليها في بناء نظم ديموقراطية. فهذه الأحزاب تعاني غالبا من شيخوخة في التفكير والتصرف، ووضعها هذا أثر سلبا في الحياة السياسية في كثير من الدول العربية.

4 - التصورات الأمنية الشاملة، المرتبطة بالقضايا السياسية الجوهرية، مثل الحفاظ على الاندماج الاجتماعي الطوعي داخل الدولة، والدفاع عن سيادتها، وتلبية احتياجات الناس الأساسية، وفهم طبيعة ثورة التطلعات الدائمة لديهم،

وفهم الحركات واللاحركات الاجتماعية، ومواجهة الإرهاب الذي يتناسل ويتجدد ويزداد خطره.

5 - الخطط التي تضعها المؤسسات والهيئات المنوط بها رسم ملامح السياسات العامة في الدولة على اختلاف أنواعها. فحين نتحدث عن «خيال سياسي» لا نقصر هذا على السلطات الحاكمة، الرئيس أو الملك أو الأمير، بل أيضا على مختلف المؤسسات الرسمية، مثل الوزارات والإدارات التي تصنع الهيكل الإداري في الدولة، وتمثل جهازها العصبي.

6 - الخطط والبرامج التي تضعها مؤسسات وقوى المجتمع المدني، بوصفها مؤسسات اجتماعية وسيطة، لا غنى لأي مجتمع ديموقراطي حديث عنها، وكيف يمكن لها أن تمارس دورا مهما في الواقع، وتعززه بما يقود إلى تعاظم تأثيرها ونفوذها. فكثير من مؤسسات المجتمع المدني العربي مستسلمة لتصورات تقليدية قُتلت بحثا، أو قضايا حددها لها من يقومون بتمويلها، من دون أن تفكر بإبداع في مسائل تؤدي مناقشتها إلى النهوض بالواقع.

7 - التصورات التي تهندسها الحركات الاجتماعية الجديدة، التي تموج بها الساحة الداخلية في دول عربية عدة، وهي ظاهرة قابلة للتصاعد في العقود المقبلة، لاسيما مع اتجاه هذه الحركات إلى مزيد من التسييس، مع ضعف الأحزاب السياسية، وتزايد عدد الرموز الوطنية الراغبة في ممارسة أدوار سياسية من خارج الحياة الحزبية.

8 - الخطط التي ترمي إلى بلورة اتفاقيات ومعاهدات تخص تعزيز التنسيق والتعاون والاعتماد المتبادل بين الدول العربية في المستقبل، لاسيما أن كل ما يتم في هذا الشأن يبدو غارقا في تفاصيل الحاضر، مستسلما للوقائع والأحداث الجارية. وكلما كانت هذه الوقائع التفصيلية قابضة وخطرة، كانت الحاجة أشد إلى تخيل ما ينهي هذا الوضع الصعب أو يخفف من وطأته بقدر المستطاع.

9 - التصورات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تحدد علاقة الدول العربية بدول الجوار الإقليمي المتفاعلة معها، أو الراغبة في لعب دور فيها، يتراوح بين التعاون والصراع، مثل تركيا وإيران وباكستان، وهي الدول التي تدخل في الحيز الجغرافي الذي حدده الغرب لنطاق «الشرق الأوسط».

10 - التصورات الخاصة بعلاقة الدول العربية - كل على حدة، أو بها جميعا عبر جامعة الدول العربية أو غيرها - مع العالم الخارجي، لاسيما القوى العظمى، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، التي تدافع عن مصالحها في العالم العربي، وتضع الخطط والاستراتيجيات الرامية إلى تحقيق هذا الهدف باقتدار.

وقبل كل هذا، فالفرد نفسه في حاجة إلى إعمال الخيال السياسي قبل اتخاذ قرارات حيال أمور تتعلق بالسلطة، فعندما يقدم مواطن على الاختيار من بين متنافسين في الانتخابات المحلية والبرلمانية والرئاسية، من دون أن يكون متقيدا بالتزام حزبي ما، فعليه أن يتصور، ولو قليلا، شيئا عما يمكن أن يفعله مستقبلا أي من المتبارين الذي يتحير في التفضيل بينهم، وعندما يكون بصدد فعل احتجاجي ضد السلطة، عليه أن يُعمل الخيال حتى لا يقفز في الفراغ.

فالكل يحتاج إلى خيال، ولولا الخيال لبقي الجميع واقفين في مكانهم، من دون أن يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام.

الهوامش

التقديم

(1) عبدالسلام بن ميس، «الخيال ودوره في تقدم المعرفة العلمية»، (المغرب: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2000) الطبعة الأولى، ص 9 - 11.

(2) د. شاكر عبد الحميد، «الخيال: من الكهف إلى الواقع الافتراضي»، (الكويت: المجلس الوطني لثقافة والفنون والآداب)، 2009، ص 22.

(3) اعتبر سيد عويس أن ما يكتبه المصريون على هياكل السيارات والعربات والشاحنات من كلمات وعبارات لجلب الرزق ومنع الحسد من الأساليب الشعبية لمواجهة المجهول، انظر: سيد عويس، «هتاف الصامتين: ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات في المجتمع المصري المعاصر»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 2000.

(4) جابر عصفور، «نحو ثقافة مغايرة»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) الطبعة الأولى، 2008، ص 33.

(5) سعود الكابلي «الخيال السياسي»،
www.almqaal.com/?p=1578، 24 يناير 2012.

(6) صالح النملة، «السياسة وافتقاد الخيال»، صحيفة «الرياض» السعودية، 12 مارس 2003.

(7) انظر في هذا الصدد: إسماعيل أبو البندورة، «الخيال السياسي وبناء المستقبل»،
www.articles.abolkhaseb.net/ar_articles_2008/0108/bndora_080108.htm
تاريخ الاطلاع: 24 أغسطس 2013.

(8) إدي فاينر وأرنولد براون، «التفكير المستقبلي: كيف تفكر بوضوح في زمن التغير»، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، 2008، ص 7.

(9) محسن أحمد الخضيري، «إدارة التوتر: مقدمة في علم إدارة التوتر المحلي والدولـي»، (القاهرة: مكتبة إيزاك، 2009)، ص 173.

(10) خير الدين حسيب، «العرب ... إلى أين؟: نحو خطة طريق للخروج من المأزق العربي الراهن»، ورقة مقدمة لندوة «مستقبل التغيير في الوطن العربي» الذي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد السويدي بالإسكندرية، بيروت، 9 - 12 نوفمبر 2015، ص 5.

(11) لمزيد من التفاصيل، انظر: إقبال محمد رشيد صالح الحمداني، «الاغتراب، التمرد، قلق المستقبل»، (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2011) الطبعة الأولى، ص 156 - 172.

(12) هبة رؤوف عزت، «الخيال السياسي للإسلاميين ما قبل الدولة وما بعدها»، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر) الطبعة الأولى، 2015، ص 34.

(13) انظر:

-John L. Comaroff and John l., Civil Society and the Political Imagination in Africa; Critical Perspectives, The University of Chicago Press, 1st edtion,1999.

(14) انظر:

-Carola McGiffert (ed.) China in the American Political Imagination, The CSIS Press, Center for International Studies, Washington D.C. 1ST edition, 2003.

(15) سيرج بوغام، «ممارسة علم الاجتماع»، ترجمة: منير السعيداني، مراجعة: ميشال عواد، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة) الطبعة الأولى، 2012، ص 66 - 75.

(16) موريس دوفرجيه، «علم اجتماع السياسة»، ترجمة: سليم حداد، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع)، الطبعة الأولى، ص 106.

(17) ديفيد هيوم، «تحقيق في الذهن البشري»، ترجمة: محمد محجوب، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة)، الطبعة الأولى، 2008، ص: 47 - 49.

(18) عبدالله الغذامي، «النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية»، (بيروت: المركز الثقافي العربي)، 2000، ص 17.

(19) مصطفى الفقي، «الدولة المصرية والرؤية العصرية: من فكر المراجعة إلى فكر المستقبل»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 2007، ص 256.

(20) Alan Bryman, Quantity and Quality in Social Research, London, New York, Routledge, 4th Edition 1995, p: 45.

(21) لمزيد من المعلومات انظر:

-Martyn Hammersley, The Politics of Social Research, London, New Delhi, Sage Publication Inc. 1st Edition, 1995.

(22) راجع: توماس كون، «بنية الثورات العلمية»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) 1992.

(23) لمزيد من التفاصيل عن هذه النقطة انظر: هانز جي. مورجنتاو، «السياسة بين الأمم: الصراع من أجل السلطان والسلام»، ترجمة: خيري حماد، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر) الطبعة الأولى، 1965 (ثلاثة أجزاء).

(24) د. عمار علي حسن، «النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية»، (القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، 2007) الطبعة الثانية، ص 101 - 119.

(25) انظر:

-John Horton and Andrea T. Baumeister, Literature, Philosophy and Political theory, in John Horton and Andrea T. Baumeister (editors), Literature and Political Imagination, London and New York,1st published, 1996, pp: 8- 17.

الفصل الأول

(1) شاكر عبدالحميد، مرجع سابق، ص: 52.

(2) نفسه، ص: 53.

(3) نفسه، ص: 88.

(4) نفسه، ص: 50.

(5) ابن منظور، «لسان العرب»، مادة: خال.

(6) د. محمد عاطف غيث، «قاموس علم الاجتماع»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 1979 ص: 183.

(7) غاستون باشلار، «الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادة»، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة) الطبعة العربية الأولى، 2007، ص: 9.

(8) شاكر عبدالحميد، مرجع سابق، ص: 8.

(9) توماس هوبز، «اللفياثان: الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة»، ترجمة: ديانا حبيب حرب وبشرى صعب، مراجعة وتقديم: رضوان السيد، (بيروت/ دار الفارابي - أبو ظبي/ مشروع كلمة) الطبعة الأولى، 2011، ص: 27 و28.

(10) حول الفارق بين الاثنين انظر: د. محمد عزيز الحبابي، «مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر»، (القاهرة: دار المعارف) 1990، ص: 155 - 157.

(11) د. زكي نجيب محمود، «ثقافتنا في مواجهة العصر»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 1997، ص: 250 - 251.

(12) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة انظر: د. عبدالمحسن صالح، «التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) 1981 ص: 14 - 45.

(13) أحمد شمس الدين الحجاجي، «النبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة) الطبعة الأولى، 1994، ص: 7 - 10.

(14) نبيل عبدالفتاح، «عقل الأزمة: تأملات نقدية في ثقافة العنف والغرائز والخيال المستور»، (القاهرة: دار سشات للدراسات والنشر والتوزيع) 1993 ص: 125.

(15) مالك شبل، «المخيال العربي الإسلامي»، (باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية) 1993، ص: 369.

(16) محسن بوعزيزي، «السيميولوجيا الاجتماعية»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية) الطبعة الأولى، 2010، ص: 237.

(17) ابن رشد، «الكتاب الكبير للنفس لأرسطو»، ترجمه عن اللاتينية: إبراهيم الغربي، (دمشق: دار الحكمة) 1997، ص 218 - 221.

(18) ديفيد هيوم، مرجع سابق، ص: 76 و77.

(19) حسن حماد، «الخلاص بالفن: التراجيديا نموذجا»، (القاهرة:: مكتبة دار الكلمة) الطبعة الأولى، 2002، ص: 25.

(20) أحمد برقاوي، «الوهم والخيال»، صحيفة «البيان» الإماراتية، 25 أكتوبر 2015.

(21) جورج طرابيشي، «صناعة الأوهام» - الحوار المتمدن، العدد: 1114، 19 فبراير 2005، www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=32024

(22) عبدالله الملحم، كارثية الوهم السياسي، صحيفة «الراية» القطرية، 9 نوفمبر 2014.

(23) انظر:

Jacques Ellul, The Political Illusion, Wipf & Stock Publishers, March 2015.

(24) وليد نويهض، «التنجيم السياسي»، صحيفة الوسط البحرينية، الأول من يناير 2015.

(25) العبادي الفلكي، «فن التنجيم السياسي.. السادات»، د. ن.

(26) عامر راشد «ما بين التنجيم السياسي والتنجيم الفلكي»، www.easternmednews.com/index.php/permalink/7153.html

(27) د. شاكر عبدالحميد، مرجع سابق، ص: 55 - 69.

(28) د. حسن حنفي، «الخيال السياسي.. رؤية مصرية» جريدة الاتحاد الإماراتية، 20 سبتمبر 2014.

(29) علي الرحال، «مصر: عن أزمة الخيال السياسي»، جريدة السفير اللبنانية، 6 نوفمبر 2013.

(30) انظر:

- Edgar Litt, The Political Imgination; Dialogues in Politics and Political Behavior, Glenview,IL, Scott, Foresman, 1966.

(31) شارلوت سيمور سميث، «موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية»، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع تحت إشراف محمد الجوهري، (القاهرة: المركز القومي للترجمة) الطبعة الثانية، 2009، ص: 93.

(32) جاك لومبار، «مدخل إلى الإثنولوجيا»، ترجمة: حسن قبيسي، (الدار البيضاء: المركز

الثقافي العربي) الطبعة الأولى، 1997، ص: 295.

(33) شاكر مصطفى، «تاريخنا وبقايا صور»، (الكويت: كتاب العربي) الكتاب الخامس والعشرون، 15 أكتوبر 1989، ص: 61 - 62.

(34) روجيه جارودي، «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»، ترجمة: محمد هشام، تقديم: محمد حسنين هيكل، (القاهرة: دار الشروق) الطبعة الرابعة، 2002.

(35) رينيه جيرار، «كبش الفداء»، ترجمة: منار رشدي أنور، (القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع) الطبعة الأولى، 1998، ص: 13.

(36) صلاح سالم، «الأساطير المؤسسة للإسلام السياسي»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) الطبعة الأولى، 2014.

(37) ناجي الركابي، «الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي: دراسة في جينالوجيا الثقافة العراقية»، (دمشق: دار تموز للطباعة والنشر) الطبعة الأولى، 2012.

(38) غسان شاهين، «الأساطير المؤسسة لمشروع كردستان الغربية»،
www.mokarabat.com/s1505.htm

(39) رمضان مصباح الإدريسي، «الأساطير المؤسسة للمظلومية الأمازيغية»،
http://www.oujdacity.net/national - article - 75595 - ar/

(40) علي سالم، «التوقع والخيال السياسي والفانتازيا الثورية»، صحيفة الشرق الأوسط، 18 فبراير 2010.

(41) لمزيد من التفاصيل في هذا الصدد، انظر:
Meili Steele, Hiding from History, Politic Imagination and Publics, Carnnel University Press, 2005.

(42) سعود كابلي، مرجع سابق.

(43) روبرت د. ناي، «السلوك الإنساني: ثلاث نظريات في فهمه»، ترجمة: أحمد سميح صبح، ومنير فوزي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 2003، ص: 281.

(44) جرت استعارة مصطلحي «النبوءات المحققة لذاتها» و«النبوءات الهازمة لذاتها» من: إي فاينر وأرنولد براون، مرجع سابق، ص: 253 - 261. أما مصطلح «النبوءة في حد ذاتها» فهو من وضع الباحث.

(45) ينسن زونتجن، «فكر بنفسك: عشرون تطبيقا للفلسفة»، ترجمة: عبدالسلام حيدر، (القاهرة: المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات) الطبعة العربية الأولى، 2006، ص: 247 - 254.

(46) الحرب عن بعد: «دور التكنولوجيا في الحرب»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية) الطبعة الأولى 2010، ص: 20.

(47) أمنية الجميل، «ماهية الدراسات المستقبلية»، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2012) ص: 22.

(48) المرجع السابق، ص: 40.

(49) د. سلمان رشيد سلمان، «البعد الاستراتيجي للمعرفة»، (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص: 246.

(50) المرجع السابق، ص: 247.

(51) سحر صبري ونعمة زهران، «التفكير النظمي في الدراسات المستقبلية: من التحليل إلى التعقيد والتركيب والنمذجة» (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية) 2012، ص: 9.

(52) أحمد شوقي، «هندسة المستقبل»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) الطبعة الأولى، 2002، ص: 217 - 223.

(53) إدي فاينر وأرنولد براون، مرجع سابق، ص: 10.

(54) مايكل هيل، «أثر المعلومات في المجتمع: دراسة لطبيعتها وقيمتها واستعمالها»، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية) 2004،، ص: 93 - 94.

(55) رايت ميلز، «الخيال العلمي الاجتماعي» ترجمة: د. عبدالباسط عبدالمعطي، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية)، 1998، ص: 22.

(56) هو عالم اجتماع وسياسة أمريكي، وظّف علم الاجتماع في تحدي الأفكار الاجتماعية التقليدية الغارقة في التعصب، وربط باقتدار بين علمي الاجتماع والسياسة، وانشغل بموضوعات وقضايا اجتماعية عدة في مطلعها: مراكز القوة، والطبقات الاجتماعية، وعلاقة الشخصية بالحضارة؛ وكان يتمتع بشجاعة علمية فائقة، وعقل حر لا سلطان عليه إلا للعلم، ولذا دخل في مساجلات ومعارك مع علماء اجتماع بارزين. ومن أهم مؤلفاته: الياقات البيضاء (1951)، وقوة النخبة (1956)، والخيال الاجتماعي (1959). انظر: دينكن ميتشيل، «معجم علم الاجتماع»، ترجمة: د. إحسان محمد الحسن، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر) الطبعة الثانية، 1986، ص: 146.

(57) رايت ميلز، المرجع السابق، ص: 24.

(58) نفسه، ص: 26.

(59) نفسه، ص: 28.

(60) إسماعيل أبو البندورة، «الخيال السياسي وبناء المستقبل».

(61) كلير كرامش، «اللغة والثقافة»، ترجمة: د. أحمد الشيمي، مراجعة: عبدالودود العمراني، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث)، 2010، ص: 22 و23.

(62) إسماعيل أبو البندورة، مرجع سابق.

(63) د. حسن حنفي، «الخيال السياسي وبناء المستقبل».

(64) ديانا جبور، «خيال السياسي»، 9 مايو 2011.

thawra.sy/_print_veiw.asp?FileName=18105895620110508215447

(65) علي الديري، «هل لدى سياسيينا خيال؟»، موقع الوقت 3 أبريل 2009،

www.alwaqt.com/blog_art.php?baid=10058.

(66) د. حلمي الجزار، «خيال السياسي»، جريدة «المصري اليوم»، 26 أغسطس 2012.

الفصل الثاني

(1) إيف شارل زركا، «السياسة والخيال»، ترجمة: الحسن اللحية، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2008)، الطبعة العربية الأولى، ص117.

(2) انظر:

-Darrell Huff, How to Lie with Statistics, Norton, New York, 1st edition, 1954.

(3) لمزيد من المعلومات حول دور الذاكرة انظر: د. أميمة رفعت السيد، «الطرق السبعة لتحسين الذاكرة»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015) الطبعة الأولى.

(4) ديفيد باول، «ذكاء الروح: 175 مفتاحا عمليا للنجاح في حياتك العملية والأسرية»، ترجمة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، (القاهرة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، 2010) الطبعة العربية الأولى، ص12.

(5) عبداللطيف شرارة، «حكمة التاريخ»، (الشركة العالمية للكتاب، 1990) الطبعة الأولى،

ص104.

(6) د. عبدالحميد بن مصطفى الفردوس، «علم إدارة العقل»، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، 2004)، الطبعة الأولى، ص 95 ـ 97.

(7) إيف شارل زاركا، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

(8) المرجع السابق، ص 118 ـ 123.

(9) نفسه، ص 123 ـ 130.

(10) د. حسن حنفي، «الخيال السياسي .. رؤية مصرية»، مرجع سابق.

(11) نفسه، ص 130 ـ 136.

(12) هارولد لاسكي، «الدولة نظريا وعمليا»، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2012) الطبعة الثانية، ص 343.

(13) كافين رايلي«الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات»، ترجمة: د. عبد الوهاب المسيري، د. هدى حجازي، مراجعة د. فؤاد زكريا، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، 97، يناير 1986، الجزء الثاني)، ص 367 و 368.

(14) تيرنس بول وريتشارد بيلامي، «الفكر السياسي في القرن العشرين»، ترجمة: منى مقلد، مراجعة وتحرير: طلعت الشايب، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010) الطبعة الأولى، المجلد الأول، ص 103.

(15) د. عمار علي حسن، «تقريب البعيد»، (القاهرة: دار سما للنشر والتوزيع، 2015) الطبعة الأولى، ص 18.

(16) المرجع السابق، ص 12.

(17) جوستاف لو بون، «سيكولوجية الجماهير»، ترجمة: هاشم صالح، (بيروت ـ لندن: دار الساقي، 2015) الطبعة السادسة، ص 88.

(18) د. خليل أحمد خليل، «سوسيولوجيا الجمهور السياسي الديني في الشرق الأوسط»، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005) الطبعة الأولى، ص 80 ـ 81.

(19) تيرنس بول وريتشارد بيلامي، مرجع سابق، ص 113.

(20) غوستاف لو بون، مرجع سابق، ص 86.

(21) نفسه، ص 87 ـ 89.

(22) نيكوس كازانتزاكي، «زوربا»، (بيروت: دار الطليعة، 1979) الطبعة الرابعة، ص 67.

(23) علي الديري، «هل لدى سياسيينا خيال؟»، موقع الوقت، 3 أبريل 2009 www.alwaqt.com/blog-art.php?baid=10058.

(24) سيرجي قره ـ مورزا، «التلاعب بالوعي»، ترجمة: عياد عيد، (دمشق: وزارة الثقافة، 2012) الطبعة العربية الأولى، ص 303.

(25) المرجع السابق، ص 307 ـ 308.

(26) نفسه، ص 310.

(27) عماد عبداللطيف، «بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة»، (بيروت ـ القاهرة ـ تونس: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2012) الطبعة الأولى، ص 11.

(28) بول ريكور، «الذات عينها كآخر»، ترجمة وتقديم وتعليق: د. جورج زيناتي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005) الطبعة الأولى، ص 659.

(29) د. حسن حنفي، المرجع السابق.

(30) د. شفيق ناظم الغبرا، «العروبة بين الحاضر والخيال السياسي»، جريدة الحياة، 25

فبراير 2016.

الفصل الثالث

(1) د. محمد علي محمد، «علم الاجتماع ودراسة المستقبل: تحليل نظري ومنهجي»، في د. محمد الجوهري (مشرف) «الكتاب السنوي لعلم الاجتماع: المجموعة الكاملة»، (القاهرة: دار المعارف)، 1981، المجلد الثاني، ص 49 و50.

(2) حازم حسني، «إعادة تعريف السياسي: رؤية بينية»، في: نادية مصطفى (محرر)، «علم السياسة: مراجعات نظرية ومنهاجية»، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية/ جامعة القاهرة)، الطبعة الأولى، 2004، ص 335 - 341.

(3) د. حلمي الجزار، مرجع سابق.

(4) مجموعة باحثين، «الرواية والتاريخ»، تحرير وتقديم: عبدالله إبراهيم، (الدوحة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في قطر) الطبعة الأولى، 2006، ص 13.

(5) لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة، انظر: حلمي محمد القاعود، «الرواية التاريخية في أدبنا الحديث: دراسة تطبيقية»، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2003، ص 459 - 592.

(6) ميشيل رولف تريو، «القوة في القصة» في: مجموعة باحثين، «كيف نقرأ العالم العربي اليوم؟: رؤى بديلة في العلوم الاجتماعية»، ترجمة: شريف يونس، (القاهرة: دار العين)، الطبعة الأولى، 2013، ص 183.

(7) ناصيف نصار، «منطق السلطة: مدخل إلى فلسفة الأمر»، (بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع)، الطبعة الأولى، 1995، ص 399 و400.

(8) جورج بالانديه، «الأنثروبولوجيا السياسية»، ترجمة: جورج أبي صالح، (بيروت: منشورات مركز الإنماء القومي)، الطبعة الأولى، 1986، ص 26.

(9) د. إسماعيل نوري الربيعي، «العالم وتحولاته: التاريخ والهوية والعولمة»، (الدوحة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث)، 2006، ص 130.

(10) جمال حمدان، «استراتيجية الاستعمار والتحرير»، (القاهرة: دار الشروق)، الطبعة الأولى، 1983، ص 8.

(11) ويليام هاولز، «ما وراء التاريخ»، ترجمة: أحمد أبو زيد، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، ص 482.

(12) جون ج. تايلور، «عقول المستقبل»، العدد 92 من سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 1985، ص 6.

(13) دليل بيرنز، «المثل السياسية»، ترجمة: لويس إسكندر، مراجعة: محمد أنيس، (القاهرة: المركز القومي للترجمة) 2007، ص 17 و18.

(14) حسين مؤنس، «تاريخ موجز للفكر العربي»، (القاهرة: دار الرشاد) الطبعة الأولى، 1996.

(15) لويس عوض، «تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل»، (القاهرة: مكتبة مدبولي)، الطبعة الرابعة، 1987.

(16) ديلاسي أوليري، «الفكر العربي ومكانه في التاريخ»، ترجمة: تمام حسان (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2007.

(17) د. إسماعيل نوري الربيعي، مرجع سابق، ص 140.

(18) انظر في هذا الشأن: برتران بادي وبيار بيرنبوم، «سوسولوجيا الدولة»، ترجمة: جوزف

عبدالله وجورج أبي صالح، (بيروت: مركز الإنماء القومي) د. ت، ص 6 - 22.
(19) دنكان بريتشارد، «ما المعرفة»، العدد 404 من سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 2013، ص 154 و155.
(20) ر. ج. كولنجوود، «فكرة التاريخ»، ترجمة: محمد بكير خليل، مراجعة: محمد عبدالواحد خلاف (القاهرة: الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة)، 2012، ص 402 - 415.
(21) المرجع السابق، ص 417.
(22) نفسه، ص 417 - 430.
(23) حازم الببلاوي، «التغيير من أجل الاستقرار» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 1998، ص 35 و36.
(24) توم لومباردو «قيمة الوعي بالمستقبل» في سينثيا ج. واجنر، «الاستشراف والابتكار والاستراتيجية»، ترجمة: صباح صديق الدملوجي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة) الطبعة الأولى، 2009، ص 439 و458.
(25) المرجع السابق، 447.
(26) نفسه، ص 442.
(27) نفسه، ص 449 و450.
(28) د. فؤاد زكريا، «التفكير العلمي»، العدد 3 من سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 1998، ص 311 و314.
(29) المرجع السابق، ص 315.
(30) رايت ميلز، مرجع سابق، ص 245.
(31) لمزيد من التفاصيل، انظر:
- Raymond Geuss, Politics and the Imagination, press.princeton,2009.
(32) د. فؤاد زكريا، مرجع سابق، ص 170.
(33) إدي فاينر وأرنولد براون، «التفكير المستقبلي: كيف تفكر بوضوح في زمن التغير»، ص 14.
(34) مايكل ميكالكو، «كيف تصبح مفكرا مبدعا: أسرار العبقرية الإبداعية»، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2010، ص 309.
(35) المرجع السابق، ص 311 و312.
(36) رايت ميلز، مرجع سابق، ص 348.
(37) برتراند رسل، «فلسفتي كيف تطورت»، ترجمة: عبدالرشيد الصادق محمودي، مراجعة وتقديم: زكي نجيب محمود (القاهرة، المركز القومي للترجمة)، الطبعة الأولى، 2012، ص 247.
(38) المرجع السابق، ص 243.
(39) نفسه، ص 249.
(40) حامد أحمد بدر، «فعاليات اتخاذ القرار بواسطة مجموعة»، جامعة الكويت، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول، المجلد الثالث عشر، ربيع 1405هـ 1985م، ص 54 - 59.
(41) انظر:
Diane Stone, Capturing The Political Imagination: Think Tanks and the Policy Process, London, Frank Cass,1st Edition,1996.
(42) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، انظر: ory

- Timothy Cory, Brainstorming: Techniques for New Ideas, Universe INC, New York, London, Shanghai, 1st Edition,2003.

(43) انظر:

- A. F. Osborn, Applied imagination: Principles and procedures of creative problem solving (Third Revised Edition). New York, NY: Charles Scribner's Sons., 1st edition, 1953.

(44) حول الطريقة التي تعمل بها إحدى الوسائل الأساسية لمواقع التواصل الاجتماعي، انظر: جمال مختار «حقيقة الفيس بوك: عدو أم صديق؟»، طبعة خاصة، 2008.

(45) عمار علي حسن «عشت ما جرى/ شهادة على ثورة يناير»، (القاهرة/ الهيئة المصرية العامة للكتاب)، الطبعة الأولى، 2013، ص 58 و59.

(46) نادر السراج «مصر الثورة وشعارات شبابها: دراسة لسانية في عفوية التعبير»، (الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات)، الطبعة الأولى، 2014، ص 58 و59.

(47) جمال سند السويدي «وسائل التواصل الاجتماعي ودورها في التحولات المستقبلية من القبيلة إلى الفيسبوك»، (أبوظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، الطبعة الأولى، 2013، ص 27 و28.

(48) حول هذا النوع من الحرية انظر: داون نونسيباتو «الحرية الافتراضية: حيادية الشبكة وحرية التعبير في عصر الإنترنت»، ترجمة: أنور الشامي، مراجعة: وفاء التومي (الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث)، الطبعة العربية الأولى، 2011.

(49) محمد العجاتي وعمر سمير «مشاركة الشباب العربي بين الهموم الوطنية والطموحات الإقليمية»، في: محمد العجاتي (مشرف) «جيل الشباب في الوطن العربي ووسائل المشاركة غير التقليدية من المجال الافتراضي إلى الثورة»، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الثانية، يوليو 2015، ص 250 - 252.

(50) أورد معتز سيد عبدالله هذه الأساليب بالتفصيل في كتابه «إدارة التغيير التنظيمي» الذي صدر في جزأين، وهو إن كان قد طبقها على «إدارة التغيير التنظيمي» كطرق إبداعية تقود إلى أفضل تغيير ممكن، فإنها تنطبق على التنظيم السياسي الذي تشكل طرق وأساليب وهياكل الإدارة جزءا أساسيا منه، كما ينطبق على حالات صناعة القرار السياسي، وكلاهما يتطلب قدرا معقولا من الخيال السياسي العلمي. انظر: معتز سيد عبدالله، «إدارة التغيير التنظيمي: الأسس النظرية والمهارات والتطبيقات العملية»، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية)، 2014، الجزء الثاني، ص 105 - 145.

(51) د. محمد علي محمد، مرجع سابق، ص 50.

(52) شارلوت سيمور - سميث، «موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية»، ترجمة: مجموعة من أساتذة علماء الاجتماع تحت إشراف د. محمد الجوهري (القاهرة، المركز القومي للترجمة)، 2009، ص 404.

(53) ألكسندرو روشكا «الإبداع العام والخاص»، ترجمة: د. غسان عبدالحي أبو فخر، العدد 144 من سلسلة عالم المعرفة (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 1989، ص 227.

(54) جون هارتلي (محرر)، «الصناعات الإبداعية: كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا والعولمة؟»، (الجزء الأول)، العدد 338 من سلسلة عالم المعرفة (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 2007، ص 7.

(55) إدوارد دي بونو «التفكير الجانبي: كسر للقيود المنطقية»، ترجمة: نايف الخوص

(دمشق، الهيئة السورية العامة للكتاب)، الطبعة الأولى، 2010، ص 7.

(56) المرجع السابق، ص 12.

(57) نفسه، ص 20.

(58) د. كمال محمد خليل «سيكولوجية التفكير: برامج تدريبية واستراتيجيات»، (عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، 2006)، الطبعة الأولى، ص 19 و20.

(59) د. يوسف سلطان الطائي وعامر حسين العطوي «الذكاء الشعوري في المنظمات: مدخل متكامل»، (عمان: مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، 2009)، ص 91.

(60) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، انظر: حامد أحمد هاشم «نظرية المباريات وتحليل الصراعات الدولية مع التطبيق على الصراع العربي الإسرائيلي»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1983.

(61) دورتي، جيمس، وبالسغراف روبرت، ترجمة: وليد عبدالحي «النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية»، (عمان، مركز أحمد ياسين) 1995، ص 68.

(62) جون إلستر «تفسير السلوك الاجتماعي: نحو مزيد من الانطلاق والتحديات أمام العلوم الاجتماعية»، (القاهرة، المركز القومي للترجمة)، 2012، ص 523.

(63) رايت ميلز، مرجع سابق، ص 351.

(64) نفسه، ص 28 و29.

(65) سامي خشبة «مصطلحات الفكر الحديث»، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006)، الجزء الأول، ص 335 و336.

(66) د. زكي نجيب محمود «في فلسفة النقد»، (القاهرة، دار الشروق، 1983)، ص 133.

(67) د. فؤاد زكريا، مرجع سابق، ص 317 - 322.

(68) فكري أندراوس «العقل والسياسة»، (القاهرة، دار الثقافة الجديدة)، الطبعة الأولى، 2014، ص 15.

(69) انظر في هذا الصدد:

-New York Times. "The Shape of Things to Come". New York Times. Retrieved 2011-03-23

(70) انظر:

George Orwell, 1984, Harper Collins, Canada, 2013

(71) توفيق الحكيم، «رحلة إلى الغد»، (القاهرة: مكتبة مصر) 1994.

(72) انظر: نجيب محفوظ، «ثرثرة فوق النيل»، (القاهرة: دار الشروق) 2006.

(73) رجاء النقاش، «عبدالناصر يقرأ ثرثرة فوق النيل»، الأهرام/ 17 سبتمبر 2006.

(74) هانز بيتر كونش، «الإنجليزي الأسود على ضفاف النيل»، ترجمة: حامد فضل الله، في: مجموعة كتاب، «الطيب صالح: جسر بين الشرق والغرب»، وقائع ندوة أدبية ببرلين عن الطيب صالح، إصدارات السفارة السودانية بالعاصمة الألمانية، مارس 2013، ص 55.

(75) الطاهر وطار، «الشمعة والدهاليز»، (القاهرة: دار الهلال) الطبعة الأولى، 1992. وحول تحليل القيم والمعاني السياسية الكامنة في هذه الرواية، انظر: عمار علي حسن، «النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الراوية العربية»، (القاهرة: دار شرقيات) الطبعة الثانية، 2007.

(76) حوار مع الطاهر وطار، الملحق الثقافي لصحيفة الخليج الإماراتية، 29 نوفمبر 1999.

(77) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، انظر: حبيب الله علي إبراهيم علي، «نظرية المحاكاة عند حازم القرطاجني من خلال كتابه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، مجلة

الآخر، العدد (13) مارس 2012، ص 99 - 115.

ولرؤية أوسع في تطبيق هذه النظرية على الإبداع الأدبي، انظر:

- مديونة صليحة، «نظرية المحاكاة بين الفلسفة والشعر»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2006.

(78) د. صالح زياد، «المحاكاة»:

ttp://www.al-jazirah.com/culture/2012/10052012/fadaat17.htm

(79) ألين شوفيلد، «المحاكاة في التدريب الإداري»، ترجمة: محمد حسن، (القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 1995)، ص 18.

(80) روبرت بالسغراف ودورتي جيمس، «النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية»، ترجمة: وليد عبدالحي (عمان: مركز أحمد ياسين، 1995)، ص 112.

(81) كيف تتم قراءة استطلاعات الرأي العام، الشبكة العربية لاستطلاعات الرأي العام، http://www.anpop.org.eg/how-analyse-results.aspx

(82) أدريان فورنهام، «الفيل في غرفة مجلس الإدارة: أسباب انحراف القيادة»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية) الطبعة الأولى، 2014، ص 7.

(83) لمزيد من التفاصيل انظر: توماس كارليل، «الأبطال» ترجمة: محمد السباعي، (القاهرة: دار الهلال)، سلسلة كتاب الهلال، العدد 326، الطبعة الثانية، فبراير 1978.

(84) عادل أحمد عز الدين الأشول، «علم النفس الاجتماعي مع الإشارة إلى مساهمات علماء الإسلام»، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية)، الطبعة الأولى، 1987، ص 219.

(85) محمد عبدالمنعم نور، «الإنسان ومجتمعه: دراسة أساسية للظواهر النفسية والاجتماعية»، (القاهرة: دار المعرفة) 1978، ص 157 - 171.

(86) سيمون سينك، «ابدأ مع لماذا: كيف يلهم القادة العظماء الناس للعمل»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية) الطبعة العربية الأولى، 2013، ص 13.

(87) ناصيف نصار، مرجع سابق، ص 401.

(88) مايكل لي لاننغ، «100 قائد عسكري: تصنيف لأكثر القادة العسكريين تأثيرا في العالم عبر التاريخ»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، الطبعة الأولى، 1999، ص 9.

(89) انظر على سبيل المثال: حسين مؤنس، «صور من البطولات العربية والأجنبية»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2000.

(90) خوسيه إنريكي رودو، «بوليفار»، ترجمة: محمود علي مكي، (القاهرة: المركز القومي للترجمة) 2007، ص 75.

(91) المرجع السابق، ص 39.

(92) نفسه، ص 44 - 48.

(93) نفسه، ص 50.

(94) نفسه، ص 61.

(95) نفسه: 96.

(96) إكناث إيسوَارن، «غاندي الإنسان»، ترجمة: غياث جازي، (دمشق: معابر للنشر والتوزيع) الطبعة الأولى، 2013، ص 24.

(97) غاندي، «قصة تجاربي مع الحقيقة»، ترجمة: محمد إبراهيم السيد، مراجعة: مجدي

عبدالواحد عنبة، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر) الطبعة الثانية، 2011، ص 36.

(98) المرجع السابق، ص 24.

(99) فيصل دراج، «فريدريك غروس وفلسفة المشي... من الرواقيين إلى غاندي»، صحيفة «الحياة» اللندنية، 25 أغسطس 2015.

(100) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة، انظر: عباس محمود العقاد، «روح عظيم المهاتما غاندي»، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة) 2013، ص 85.

(101) المرجع السابق، ص 93.

(102) نفسه، ص 97 - 98.

(103) غاندي، مرجع سابق، ص 662.

(104) زيودين ساردار وبورين فان لون، «أقدم لك الدراسات الثقافية»، ترجمة: وفاء عبدالقادر، مراجعة وإشراف: إمام عبدالفتاح إمام، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة) الطبعة العربية الأولى، 2003، ص 86.

(105) إكناث إيسوَارن، مرجع سابق، ص 7.

(106) مارتن لوثر كنغ، «لماذا نفد صبرنا»، ترجمة: عديلة حسين مياس، مراجعة: مصطفى حبيب، (القاهرة: مؤسسة السجل العربي) سلسلة (الألف كتاب) الرقم 639، الطبعة الأولى، 1966، ص 34.

(107) المرجع السابق، ص 32.

(108) نفسه، ص 33.

(109) نفسه، ص 94.

(110) نفسه، ص 95.

(111) نفسه ص 40.

(112) نفسه، ص 43.

(113) نفسه، ص 40.

(114) المرجع السابق، ص 14.

(115) المرجع السابق، ص 16.

(116) نفسه، ص 30.

(117) عزت قرني، «تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي في مصر الحديثة 1834 - 1914»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) سلسلة: تاريخ المصريين» العدد الرقم (251)، 2006، ص 233 و234.

(118) آرثر جولد شميث (الابن)، «قاموس تراجم مصر الحديثة»، ترجمة وتحقيق: عبدالوهاب بكر، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة) 2003، ص 81 - 82.

(119) عزت قرني، مرجع سابق، ص 271.

(120) حسين أحمد أمين، «المائة الأعظم في تاريخ الإسلام»، (القاهرة: مكتبة مدبولي) الطبعة الأولى، 1991، ص 285.

(121) أحمد أمين، «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) الطبعة الأولى، 2008، ص 62.

(122) حسين أحمد أمين، مرجع سابق، ص 286.

(123) أحمد أمين، مرجع سابق، ص 62.

(124) نفسه، ص 69.

(125) عزت قرني، المرجع السابق، ص 236 و237.

(126) طهاري محمد، «مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده»، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب/ تونس: الدار التونسية للنشر)، الطبعة الأولى، 1984، ص 68 - 69، وص 79.

(127) المرجع السابق، ص 81.

(128) عباس محمود العقاد، «عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده»، (بيروت: دار الكتاب العربي)، 1971، ص 84.

(129) صلاح فضل ومحسن يوسف، تقديم إسماعيل سراج الدين، «التجارب الناجحة»، (الإسكندرية/ مكتبة الإسكندرية) الطبعة الأولى، 2006، ص 23.

(130) صلاح فضل ومحسن يوسف، مرجع سابق، ص 24.

(131) راجع موقع المنظمة العربية للتنمية الإدارية على شبكة الإنترنت: http://www. /arado.org.eg

الفصل الرابع

(1) أنطوني دي كرسبني وكينيث ميتوج، «من فلاسفة السياسة في القرن العشرين»، ترجمة وتقديم: نصار عبدالله (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، الطبعة الأولى، 2012، ص 101.

(2) روبرت د. ناي «السلوك الإنساني: ثلاث نظريات في فهمه»، ترجمة: أحمد سميح صبح ومنير فوزي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2003، ص 307.

(3) لمزيد من التفاصيل، انظر: مايكل ميكالكو، مرجع سابق.

(4) وورين كيد وكارين لج وفيليب هراري «السياسة والسلطة»، (أبوظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، 2012، ص 16.

(5) رايت ميلز، مرجع سابق، ص 369 ــ 392.

(6) جون إلستر «تفسير السلوك الاجتماعي: نحو مزيد من الانطلاق والتحديات أمام العلوم الاجتماعية» (القاهرة: المركز القومي للترجمة)، 2012، ص 186 و187.

(7) عاصم الدسوقي «التراث: من الأصالة إلى الاختراع»، في: أريك هوبسباوم وتيرنس رينجر (محرران)، «اختراع التراث: دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع»، ترجمة: شيرين أبو النجار وآخرون، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية/ كلية الآداب، جامعة القاهرة)، الطبعة الأولى، 2004، ص 5.

(8) د. علي زيعور، «انجراحات السلوك والفكر في الذات العربية: في الصحة العقلية والبحث عن التكيف الخلاق» (بيروت: المركز الثقافي العربي)، الطبعة الأولى، 1992، ص 36.

(9) توفيق السيف «كي لا يمسي الخيال دليلا في السياسة»، صحيفة الشرق الأوسط، 21 أكتوبر 2015.

(10) لمزيد من التفاصيل، انظر:

عمار علي حسن «انتحار الإخوان: انطفاء الفكرة وسقوط الأخلاق وتصدع التنظيم» (القاهرة: دار نهضة مصر للنشر)، الطبعة الأولى، 2013، ص 146 - 150.

(11) محمود أمين العالم «مواقف نقدية من التراث» (دبي: مؤسسة سلطان العويس)، الطبعة الثانية، 2010، ص 5 و6.

(12) محمد جابر الأنصاري «تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، الطبعة الأولى، 1992، ص 31.

(13) محمد عابد الجابري «العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته» (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، 1990، ص 374.

(14) انظر:

Christopher Booker, "What happens when the great fantasies, like wind power or European Union, collide with reality?" The Telegraph, 23 April 2011.

(15) حازم دياب «خطوة أن تتمنى»، صحيفة «الوطن» المصرية، 30 أكتوبر 2015.

(16) http://www.fallacyfiles.org/wishthnk.html

(17) انظر:

-Nigel Harvey, "Wishful thinking impairs belief-desire reasoning: A case of decoupling failure in adults?" Cognition, Volume 45, Issue 2, 1992, Pages 141-162.

(18) وفاء إبراهيم «التفكير بالتمني والتفكير بالواقع»، صحيفة «الأهرام» المصرية، 16 يونيو 2003.

(19) انظر:

www.al-monitor.com/pulse/ar/originals/2014/11/turkey-united-states-davutoglu-wishful-thinking.html#ixzz3q1pfAjAy

(20) انظر:

ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%81%D9%83%D9%8A%D8%B1_%D8%B1%D8%BA%D8%A8%D9%88%D9%8A

(21) Lyman Tower Saragent, Contemporary Political Ideologies: A Comparative Analysis, Harcourt Brace & Company 10th Edition, 1996, p:3.

(22) Max J. Skidmore, Ideologies: Politics In Action, Harcourt - Brace & Company, 2nd Edition, 1993, p:1.

(23) Paul Schumaker, Dwight C. Kiel & Thomas W. Heilke, Ideological Voices: An Anthology in Modern Political Ideas, The Mc _ Graw, Hill Co. 1997, p: 5.

(24) Ian Adams, Political Ideology Today, Manchester university press, 1993, p: 2.

(25) للمزيد حول الأيديولوجيا، انظر:

Leon P. Baradat, Political Ideologies: Their Origins and Impact, New Jersy, Prentice- hall inc. 6th edition, 1997.

(26) المصدر السابق، ص 6.

(27) Michael Freeden, Ideologies and Political Theory: A Conceptual Approach, Oxford University, clarendon Press, 1st Edition, 1996, p 13.

(28) د. عبدالله العروي، «مفهوم الأيديولوجيا» (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي)، الطبعة الخامسة، 1993، ص 5.

(29) John Schwarz Mantel, The Age of Ideology : Political Ideologies from The American Revolution to Post – Modern Times, London, Macmillan, Press Ltd 1st Edition,1998, p 187.

(30) المصدر السابق، ص 187.

(31) Nicholas Comfort, Brewers Politics: A Phrase and Fable Dictionary, London,

Cassell PLC, 2nd Edition, 1995, p 289.

(32) كارل بوبر، «بؤس الأيديولوجيا: نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي»، ترجمة: عبدالحميد صبرة، (بيروت: دار الساقي)، سلسلة «الفكر الحديث»، الطبعة الأولى، 1992، ص 7 و8.

(33) د. عبدالوهاب المسيري، «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، (القاهرة: دار الشروق)، الطبعة الأولى، 1999، الجزء الأول، ص 239.

(34) د. عبدالله العروي، مرجع سابق، ص 10.

(35) Kenneth Minogue, Ideology after The Collapse of Communism in Alexsandras Shtromas, The End of ISMS? : Reflection of The Fate of Ideological Politics after Communism Collapse, Black Well, Oxford UK , Cambridge USA, 1st Edition, 1994, p 15.

(36) راسل جاكوبي، «نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة»، ترجمة: فاروق عبدالقادر، العدد 269 من سلسلة عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 2001، ص 13 - 15.

(37) Jack Snyder, From Voting to Violence: Democratization and Nationalist Conflict, Newyork - London, W. W., Norton & Company, INC, 1st Edition, 2000, p 16.

(38) شانتال ميلون دلسون، «الأفكار السياسية في القرن العشرين»، ترجمة: د. جورج كتورة، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع)، الطبعة الأولى، 1994، ص 243.

(39) د. حمدي عبدالرحمن حسن، «الأيديولوجية والتنمية في أفريقيا: دراسة مقارنة لتجربتي كينيا وتنزانيا»، (القاهرة/ جامعة القاهرة - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية: مركز البحوث والدراسات السياسية)، الطبعة الأولى، 1991، ص 11.

(40) Roy C. Macridis, Mark L. Hulling, Contemporary Political Ideologies: Movements and Regimes, Harper Collins College Publishers, 6th Edition, 1996, p 1.

(41) Ian Adams, Political Ideology Today, Manchester, Manchester University Press, 1995, 2nd Edition, p 4،5.

(42) راسل جاكوبي، مرجع سابق، ص 15 و16.

(43) د. أحمد عبدالله، «نحن والعالم الجديد: محاولة وطنية لفهم التطورات العالمية»، (القاهرة: مركز المحروسة للبحوث والتدريب والمعلومات)، سلسلة «كتاب المحروسة»، العدد الرقم 11، الطبعة الأولى، 1995، ص 26.

(44) د. سمير أمين، «ما بعد الرأسمالية»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، سلسلة (كتاب المستقبل العربي)، الرقم 9، الطبعة الأولى، 1988، ص 163.

(45) راسل جاكوبي، مرجع سابق، ص 22.

(46) د. فؤاد مرسي، «الرأسمالية تجدد نفسها»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، سلسلة (عالم المعرفة)، الرقم 147، مارس 1990، ص 7 - 12.

(47) دانييل غورين، «اللاسلطوية: من النظرية إلى التطبيق»، ترجمة: مزاحم الطائي، (طرابلس: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان)، الطبعة الأولى، ص 37 و38.

(48) المرجع السابق، ص 42.

(49) المرجع السابق، ص 43 - 45.

(50) المرجع السابق، ص 73.

الفصل الخامس

(1) انظر:

John L. and Jean Comaroff, Civil Society and Political Imagination in Africa: Critical Perspectives, The University of Chicago Press, 1999 , p: 1.

(2) د. محمد السيد سليم، «تحليل السياسة الخارجية»، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، 1989)، ص 389 و390.

(3) هاري آر. يارغر، «الاستراتيجية ومحترفو الأمن القومي: التفكير الاستراتيجي وصياغة الاستراتيجية في القرن الحادي والعشرين»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2011)، ص 23 ـ 28.

(4) د. علي الدين هلال، «مفهوم الاستراتيجية في العلوم الاجتماعية»، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، العدد 4، أبريل 1982، ص 7.

(5) جون ستون، «الاستراتيجية العسكرية: سياسة وأسلوب الحرب»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، الطبعة الأولى، 2014، ص 7.

(6) علي الدين هلال، المرجع السابق، ص 18.

(7) المرجع السابق، ص 23 ـ 27.

(8) المرجع السابق، ص 32.

(9) نفسه، ص 235.

(10) نفسه، ص 260.

(11) كريستوفر كوكر، «الحرب في عصر المخاطر»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2011)، ص 226.

(12) حسن حنفي، «الخيال السياسي.. رؤية مصرية»، جريدة الاتحاد الإماراتية، 20 سبتمبر 2014.

(13) فرنان شنيدر، «تاريخ الفنون العسكرية»، ترجمة: فريد أنطونيوس، (بيروت: منشورات عويدات) الطبعة الثانية، 1982، ص 5 و 6.

(14) سون تسي، «فن الحرب»ـ ترجمة: ربيع مفتاح، (القاهرة: دار أخبار اليوم) 2014.

(15) بريان بوند، «الفكر العسكري عند ليدل هارت»، ترجمة: سمير كرم، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979)، ص 25.

(16) د. محمد سعدي، «مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008) ص 197 و198.

(17) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة انظر: ريتشارد نيد ليبو، «لماذا تتحارب الأمم؟: دوافع الحرب في الماضي والمستقبل»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 403 من سلسلة «عالم المعرفة»، أغسطس 2013)، ص 151 ـ 218.

(18) راجع على سبيل المثال:

- باسكال بونيفاس، «الحرب العالمية الرابعة» ترجمة: أحمد الشيخ، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006).
- ريتشارد كلارك وروبرت نيك، «حرب الفضاء الإلكتروني: التهديد التالي للأمن القومي وكيفية التعامل معه»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2012).

(19) مجموعة باحثين، «الحروب المستقبلية في القرن الحادي والعشرين»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات

والبحوث الاستراتيجية) الطبعة الأولى، 2014، ص 11.

(20) بيتر سينجر، «الحرب عن بعد: دور التكنولوجيا في الحرب»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية) الطبعة الأولى، 2010، ص 680.

(21) المرجع السابق، ص 228 و229.

(22) بول روبنسون، «قاموس الأمن الدولي»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، الطبعة الأولى، 2009، ص 198.

(23) المرجع السابق، ص 85.

(24) لمزيد من التفاصيل انظر: ريتشارد كلارك وروبرت نيك، «حرب الفضاء الإلكتروني: التهديد التالي للأمن القومي وكيفية التعامل معه»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، الطبعة الأولى، 2012.

(25) فيليب تايلور، «حرب العقول: أخطر الدعايات الحربية في معارك التاريخ»، (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد)، الطبعة الأولى، 2010، ص 8.

(26) أنطون زحلان، «العلم والسيادة: التوقعات والإمكانات في البلدان العربية»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، ترجمة: حسن الشريف، الطبعة الأولى 2012، ص 292.

(27) عبدالخالق فاروق، «اقتصاديات الفساد في مصر: كيف جرى إفساد مصر والمصريين 1974 - 2010»، تقديم: محمد رؤوف حامد ونادر فرجاني، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية)، الطبعة الأولى، 2011، ص 29.

(28) محمود عبدالفضيل، «رأسمالية المحاسيب: دراسة في الاقتصاد الاجتماعي»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، الطبعة الثانية 2011، ص 94.

(29) عبدالرحمن بن خلدون، «مقدمة ابن خلدون» تحقيق: علي عبدالواحد وافي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 2006، الجزء الثاني، ص 693.

(30) محمد رؤوف حامد، «الرقص مع الفساد: تحليل علمي وحالات واقعية»، (القاهرة: دار العين للنشر) الطبعة الأولى، 2011، ص 11 و12.

(31) محمود عبدالفضيل، مرجع سابق، ص 95 و96.

(32) عبدالخالق فاروق، مرجع سابق، ص 27.

(33) محمد رؤوف حامد، مرجع سابق، ص 28 - 39.

(34) المرجع السابق، ص 9.

(35) عمار علي حسن، «العودة إلى المجهول: راهن الإصلاح في مصر ومستقبله»، (القاهرة: دار نفرو للطباعة والنشر)، الطبعة الأولى.

(36) مصطفى خواجا، «مكافحة الفساد في المنطقة العربية: من حلقة مفقودة إلى أولوية مفروضة»، في: بهجت قرني (محرر)، «التنمية الإنسانية العربية في القرن الحادي والعشرين: أولوية التمكين»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014)، الطبعة الأولى، ص 239 - 245.

(37) محمد رؤوف حامد، مرجع سابق، ص 96 - 99.

(38) نفسه، ص: 103 - 106.

(39) انظر على سبيل المثال: عبدالخالق فاروق (محرر)، «كيف نعيد بناء جهاز الأمن»، (القاهرة: مركز النيل للدراسات الاقتصادية والاستراتيجية، 2012)، الطبعة الأولى.

(40) لواء أحمد ضياء الدين، «ماهية الحس الأمني وخصائصه الأساسية»، مركز الأمن الصناعي،
http://www.isc.egypt.com/details_ar.aspx?Page_ID=496

(41) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:
جاك غولدستون وإريك كوفمان ومونيكا دافي توفت «الديموغرافيا السياسية: كيف تعيد التغيرات السكانية تشكيل الأمن الدولي والسياسة الوطنية؟»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، الطبعة الأولى، 2014.

(42) توماس مالتوس (1766 - 1834) هو باحث اقتصادي بريطاني شهير أصدر في العام 1798 مؤلفه الشهير «مقالة في مبدأ السكان»، والذي به أسس لمسار يسمى «المالتوسية»؛ حيث يزيد السكان بمتوالية هندسية (1، 2، 4، 8، 16،...)، بينما تزيد الموارد بمتوالية حسابية (1، 2، 3، 4،...).

(43) دليل بيرنز «المثل السياسية»، ترجمة: لويس إسكندر، مراجعة: محمد أنيس، (القاهرة: المركز القومي للترجمة)، 2007، ص 382 - 384.

(44) نفسه، ص 383.

(45) كلايف بل «المدنية»، ترجمة: محمود محمود (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2012، ص 53.

(46) دليل بيرنز، مرجع سابق، ص 378.

(47) لمزيد من التفاصيل، انظر:
- ماريا لويزا برنيري «المدينة الفاضلة عبر التاريخ»، العدد 225، من سلسلة عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، سبتمبر 1997.
- كارل ل. بيكر «المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر»، ترجمة: محمد شفيق غربال (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة)، 2005.
- أفلاطون «جمهورية أفلاطون»، ترجمة: د. فؤاد زكريا (دبي: مؤسسة سلطان العويس)، 2010.

(48) ماريا لويزا برنيري، مرجع سابق، ص 17.

(49) جان توشار وآخرون «تاريخ الفكر السياسي»، ترجمة: علي مقلد، (بيروت: الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع)، الطبعة الثانية، 1983، ص 399.

(50) المرجع السابق، ص 400.

(51) هو عالم نفس أمريكي من أصل ألماني، ولد في العام 1900 وتعلم في جامعتي هيدلبرغ وميونخ، كرس حياته منذ العام 1926 للبحث فيما بين علم النفس والمجتمع من اتصال، وألقى محاضرات حول هذا الموضوع في عدة جامعات أمريكية، وانتقل في آخر حياته إلى سويسرا، وتوفي في العام 1979. وقد ألف العديد من الكتب أشهرها «الإنسان بين الجوهر والمظهر» و«المجتمع السليم» و«الخوف من الحرية» و«تجاوز أغلال الوهم» و«ثورة الأمل» و«الإنسان من أجل نفسه».

(52) إريك فروم «المجتمع السليم»، ترجمة: محمود محمود (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة)، 2012، ص 239 و240.

(53) إريك فروم «الإنسان بين الجوهر والمظهر»، ترجمة: سعد زهران، مراجعة: لطفي فطيم، العدد 140 من سلسلة عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، أغسطس 1989، ص 141 - 219.

(54) انظر: زكي نجيب محمود «مجتمع جديد أو الكارثة» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 2007، 233 - 239.

(55) ب. ف. سكينر، «تكنولوجيا السلوك الإنساني»، ترجمة: عبدالقادر يوسف، مراجعة: محمد رجا الدريني، العدد 32 من سلسلة عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 1980، ص 6 و7.

(56) محمد سعدي، «مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية) الطبعة الثانية، 2008، ص 356 - 359.

(57) المرجع السابق، ص 359.

(58) نفسه، ص 361 و362.

(59) تيرنس بول وريتشارد بيلامي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 13 - 18.

(60) كانط، «مشروع للسلام الدائم»، ترجمة: عثمان أمين، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية) الطبعة الثانية، 1966، ص 35 و36.

(61) المرجع السابق، ص 37 - 50.

(62) نفسه، ص 53 - 76.

(63) د. قسطنطين زريق، «ما العمل: حديث إلى الأجيال العربية الطالعة»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الأولى، 1998، ص 52.

(64) المرجع السابق، ص 30 - 39.

(65) المرجع السابق، ص 41 - 52.

(66) المرجع السابق، ص 65 - 69.

(67) المرجع السابق، ص 66.

(68) لمزيد من التفاصيل راجع: بندكت أندرسن، «الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها»، ترجمة: ثائر ديب، (بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، د. ت).

(69) عاصم الدسوقي، مرجع سابق، ص 9.

(70) سامي زبيدة، «الشظايا تتخيل الأمة: حالة العراق»، في: مجموعة باحثين، «كيف نقرأ العالم العربي اليوم؟: رؤى بديلة في العلوم الاجتماعية»، مرجع سابق، ص 319.

(71) عاصم الدسوقي، «التراث: من الأصالة إلى الاختراع»، في: إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر (محرران)، «اختراع التراث: دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع»، ترجمة: شيرين أبو النجار وآخرين، والقاهرة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة) الطبعة الأولى، 2004، ص 9.

(72) إريك هوبسباوم، «مقدمة عن ابتداع التقاليد»، في إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر، مرجع سابق، ص 13.

(73) هيو تريفور - روبير، «اختراع تقاليد مرتفعات أسكتلندا»، في: إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر، مرجع سابق، ص 37 - 65.

(74) بريز مورغان، «في إحياء الماضي: التنقيب عن ماضي ويز في العصر الرومانسي» في: أريك هوبسباوم وتيرنس رينجر، مرجع سباق، ص 71 – 133.

(75) ديفيد كنادين، «سياق الطقوس وأداؤها معناها: الملكية البريطانية وابتداع التقاليد 1820 – 1977»، في: إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر، مرجع سابق، ص 141 – 203.

(76) تيرنس رينجر، «اختراع التراث في المستعمرات الأفريقية»، في: إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر، مرجع سابق، ص 277 - 349.

(77) جون هارتلي (محرر)، «الصناعات الإبداعية: كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا والعولمة؟» ترجمة: بدر السيد سليمان الرفاعي، العدد 338، إبريل 2007 من سلسلة عالم المعرفة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، الجزء الأول، ص 12.

(78) المرجع السابق، ص 7 - 9.

(79) نفسه، الجزء الثاني، ص 168.

(80) المرجع السابق، الجزء الأول، ص 8.

(81) نفسه، الجزء الثاني، ص 117.

الفصل السادس

(1) جوردون مارشال، «موسوعة علم الاجتماع» ترجمة: محمد محيي الدين، ومحمود عبد الرشيد، وهناء الجوهري، إشراف: محمد محمود الجوهري، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2001) المجلد الثالث: ص 1433.

(2) انظر:

- Ira Katznelson & Gareth Stedman, Editors, Religion and the Political Imagination, Columbia University, New York, 2010.

(3) انظر:

- Political Theory, Cornell University, Ithaca, New York, February 2009 vol. 37 no. 1, p: 69-98.

(4) انظر:

- Jeffrey C. Goldfarb, Political Imagination, the Definition of the Situation and Fictoids, DC Week in Review, June 17th, 2011.

(5) إلياس توما، «البابا أسقط الشيوعية في بولندا»، موقع إيلاف: http://elaph.com/ htm.53719/4/Politics/2005

(6) زبيجنيو بريجنسكي، «الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم»، ترجمة: عمر الأيوبي، بيروت: دار الكتاب العربي، 2004، ص 11.

(7) سعى بريجنسكي إلى الإجابة عن كل هذه الأسئلة في كتابه، الذي حوى خمسة فصول، فضلا عن المقدمة والخاتمة، جاءت على النحو التالي: الهيمنة الأمريكية والأمن العالمي، ومعضلات الأمن القومي، ومعضلات الاضطراب العالمي الجديد، ومعضلات إدارة التحالف، والهيمنة الأمريكية والمصلحة العامة، ومعضلات العولمة، ومعضلات الديموقراطية المهيمنة.

(8) د. زكي نجيب محمود، «مجتمع جديد أو الكارثة»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007) ص 49 - 50.

(9) نشر المشروع في عدة كتب صادرة عن المركز خلال العامين 1987 و1988 هي: خير الدين حسيب وآخرون، «مستقبل الأمة العربية: التحديات والخيارات: التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي» - سعد الدين إبراهيم، «المجتمع والدولة في الوطن العربي» - علي الدين هلال وآخرون، «العرب والعالم» - إبراهيم سعد الدين ومحمود عبد الفضيل «التنمية العربية» - خلدون حسن النقيب «المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية من منظور مختلف» - غسان سلامة «المجتمع والدولة في المشرق العربي» - محمد عبد الباقي الهرماسي «المجتمع والدولة في المغرب العربي» - عبد المنعم سعيد «العرب ومستقبل النظام العالمي»، إلى جانب كتابي «العرب ودول الجوار الجغرافي».

(10) انظر: مجموعة باحثين، «صور المستقبل العربي»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية وجامعة الأمم المتحدة - مشروع المستقبلات العربية البديلة، 1982).

(11) المرجع السابق، ص 128.

(12) نفسه، ص 186.

(13) مجموعة باحثين، «هكذا يصنع المستقبل»، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2001).

(14) انظر: هيرمان كان وآخرين، «العالم بعد مائتي عام: الثورة العلمية والتكنولوجية خلال القرنين القادمين»، ترجمة: شوقي جلال، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 55 سلسلة عالم المعرفة، يوليو 1982).

(15) انظر في هذا الشأن: سينثيا ج. واغنر، مرجع سابق.

(16) د. محمد سعدي، مرجع سابق، ص 291، 292.

(17) مجموعة خبراء، «إسرائيل 2020: خطتها التفصيلية لمستقبل الدولة والمجتمع»، ترجمة: مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001).

(18) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، «مستقبلنا المشترك»، ترجمة: محمد كامل عارف، مراجعة: د. علي حسين حجاج، العدد 142 من سلسلة عالم المعرفة، أكتوبر 1989(الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب).

(19) لجنة إدارة شؤون المجتمع الدولي، «جيران في عالم واحد»، ترجمة: مجموعة من المترجمين، مراجعة: عبد السلام رضوان، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، 1995، ص 21.

مراجع الكتاب

أولا: كتب باللغة العربية

- ابن رشد، «الكتاب الكبير للنفس لأرسطو»، ترجمة عن اللاتينية: إبراهيم الغربي، (دمشق: دار الحكمة، 1997).
- أحمد أمين، «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008) الطبعة الأولى.
- أحمد شمس الدين الحجاجي، «النبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، 1994) الطبعة الأولى.
- أحمد شوقي، «هندسة المستقبل»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002) الطبعة الأولى.
- د. أحمد عبدالله، «نحن والعالم الجديد: محاولة وطنية لفهم التطورات العالمية»، (القاهرة: مركز المحروسة للبحوث والتدريب والمعلومات، 1995)، الطبعة الأولى.
- د. إسماعيل نوري الربيعي، «العالم وتحولاته: التاريخ والهوية والعولمة»، (الدوحة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، 2006).
- إقبال محمد رشيد صالح الحمداني، «الاغتراب، التمرد، قلق المستقبل»، (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2011) الطبعة الأولى.
- أمنية الجميل، «ماهية الدراسات المستقبلية»، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2012) الطبعة الأولى.
- د. أميمة رفعت السيد، «الطرق السبعة لتحسين الذاكرة»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015) الطبعة الأولى.
- أنطون زحلان، «العلم والسيادة: التوقعات والإمكانات في البلدان العربية»، ترجمة: حسن الشريف، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، الطبعة الأولى.
- بهجت قرني (محرر)، «التنمية الإنسانية العربية في القرن الحادي والعشرين: أولوية التمكين»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014) الطبعة الأولى.
- توفيق الحكيم، «رحلة إلى الغد»، (القاهرة: مكتبة مصر، 1994).
- جابر عصفور، «نحو ثقافة مغايرة»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) الطبعة الأولى، 2008.
- جمال حمدان، «استراتيجية الاستعمار والتحرير»، (القاهرة: دار الشروق، 1983) الطبعة الأولى.
- جمال سند السويدي، «وسائل التواصل الاجتماعي ودورها في التحولات المستقبلية من القبيلة إلى الفيسبوك»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2013) الطبعة الأولى.
- جمال مختار، «حقيقة الفيس بوك: عدو أم صديق؟»، طبعة خاصة، 2008.
- حازم الببلاوي، «التغيير من أجل الاستقرار»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998).
- حسن حماد، «الخلاص بالفن: التراجيديا نموذجا»، (القاهرة: مكتبة دار الكلمة، 2002) الطبعة الأولى.
- حسين مؤنس، «تاريخ موجز للفكر العربي»، (القاهرة: دار الرشاد) الطبعة الأولى، 1996.
- حسين أحمد أمين، «المائة الأعظم في تاريخ الإسلام»، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991) الطبعة الأولى.

حسين مؤنس، «صور من البطولات العربية والأجنبية»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000).
- حلمي محمد القاعود، «الرواية التاريخية في أدبنا الحديث: دراسة تطبيقية»، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003).
- د. حمدي عبدالرحمن حسن، «الأيديولوجية والتنمية في أفريقيا: دراسة مقارنة لتجربتي كينيا وتنزانيا»، (القاهرة/ جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية: مركز البحوث والدراسات السياسية، 1991)، الطبعة الأولى.
- د. خليل أحمد خليل، «سوسيولوجيا الجمهور السياسي الديني في الشرق الأوسط»، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005) الطبعة الأولى.
- د. زكي نجيب محمود، «ثقافتنا في مواجهة العصر»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997).
- د. زكي نجيب محمود، «في فلسفة النقد»، (القاهرة: دار الشروق، 1983).
- زكي نجيب محمود، «مجتمع جديد أو الكارثة»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007)، الطبعة الثالثة.
- سحر صبري ونعمة زهران، «التفكير النظمي في الدراسات المستقبلية: من التحليل إلى التعقيد والتركيب والنمذجة» (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2102).
- د. سلمان رشيد سلمان، «البعد الاستراتيجي للمعرفة»، (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004) الطبعة الأولى.
- د. سمير أمين، «ما بعد الرأسمالية»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988)، الطبعة الأولى.
- سيد عويس، «هتاف الصامتين: ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات في المجتمع المصري المعاصر»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000) .
- سيرجي قره ـ مورزا، «التلاعب بالوعي»، ترجمة: عياد عيد، (دمشق: وزارة الثقافة، 2012) الطبعة العربية الأولى.
- د. شاكر عبدالحميد، «الخيال: من الكهف إلى الواقع الافتراضي»، سلسلة عالم المعرفة، العدد 360، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009)، الطبعة الأولى.
- شاكر مصطفى، «تاريخنا وبقايا صور»، (الكويت: كتاب العربي) الكتاب الخامس والعشرون، 15 أكتوبر 1989.
- صلاح سالم، «الأساطير المؤسسة للإسلام السياسي»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014) الطبعة الأولى.
- د. صلاح فضل، د. محسن يوسف، تقديم إسماعيل سراج الدين، «التجارب الناجحة»، (الإسكندرية/ مكتبة الإسكندرية، 2006) الطبعة الأولى.
- الطاهر وطار، «الشمعة والدهاليز»، (القاهرة: دار الهلال، 1992) الطبعة الأولى.
- طهاري محمد، «مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده»، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب/ تونس: الدار التونسية للنشر، 1984)، الطبعة الأولى.
- عادل أحمد عز الدين الأشول، «علم النفس الاجتماعي مع الإشارة إلى مساهمات علماء الإسلام»، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1987) الطبعة الأولى.
- العبادي الفلكي، «فن التنجيم السياسي .. السادات»، د. ن.
- عباس محمود العقاد، «روح عظيم المهاتما غاندي»، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013).

- عباس محمود العقاد، «عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده»، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1971).
- د. عبدالحميد بن مصطفى الفردوس، «علم إدارة العقل»، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، 2004)، الطبعة الأولى.
- عبدالخالق فاروق، «اقتصاديات الفساد في مصر: كيف جرى إفساد مصر والمصريين 1974 ـ 2010»، تقديم: محمد رؤوف حامد ونادر فرجاني، «القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2011) الطبعة الأولى.
- عبدالخالق فاروق (محرر)، «كيف نعيد بناء جهاز الأمن»، (القاهرة: مركز النيل للدراسات الاقتصادية والاستراتيجية، 2012)، الطبعة الأولى.
- عبدالرحمن ابن خلدون، «مقدمة ابن خلدون» تحقيق: علي عبدالواحد وافي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006).
- عبدالسلام بن ميس، «الخيال ودوره في تقدم المعرفة العلمية»، (المغرب: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2000) الطبعة الأولى.
- عبداللطيف شرارة، «حكمة التاريخ»، (الشركة العالمية للكتاب، 1990) الطبعة الأولى.
- د. عبدالله العروي، «مفهوم الأيديولوجيا»، (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1993)، الطبعة الخامسة.
- عبدالله الغذامي، «النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية»، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000).
- د. عبدالمحسن صالح، «التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان»، سلسلة عالم المعرفة، العدد 48 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981) سلسلة عالم المعرفة.
- د. علي زيعور، «انجراحات السلوك والفكر في الذات العربية: في الصحة العقلية والبحث عن التكيف الخلاق»، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992) الطبعة الأولى.
- عزت قرني، «تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي في مصر الحديثة 1834 ـ 1914»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006).
. عماد عبداللطيف، «بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة»، (بيروت ـ القاهرة ـ تونس: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2012) الطبعة الأولى.
- عمار علي حسن، «انتحار الإخوان: انطفاء الفكرة وسقوط الأخلاق وتصدع التنظيم» (القاهرة: دار نهضة مصر للنشر، 2013) الطبعة الأولى.
- د. عمار علي حسن، «تقريب البعيد»، (القاهرة: دار سما للنشر والتوزيع، 2015) الطبعة الأولى.
- عمار علي حسن، «عشت ما جرى .. شهادة على ثورة يناير»، (القاهرة/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013) الطبعة الأولى.
- عمار علي حسن، «العودة إلى المجهول: راهن الإصلاح في مصر ومستقبله»، (القاهرة: دار نفرو للطباعة والنشر، 2007) الطبعة الأولى.
- د. عمار علي حسن، «النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية»، (القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، 2007) الطبعة الثانية.
- فكري أندراوس، «العقل والسياسة»، (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 2014) الطبعة الأولى.
- د. فؤاد زكريا، «التفكير العلمي»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978) سلسلة عالم المعرفة، العدد 3.
- د. فؤاد مرسي، «الرأسمالية تجدد نفسها»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990)، سلسلة عالم المعرفة، العدد 147.

- د. قسطنطين زريق، «ما العمل: حديث إلى الأجيال العربية الطالعة»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، الطبعة الأولى.
- د. كمال محمد خليل، «سيكولوجية التفكير: برامج تدريبية واستراتيجيات»، (عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2006) الطبعة الأولى.
- لويس عوض، «تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل»، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1987) الطبعة الرابعة.
- مالك شبل، «المخيال العربي الإسلامي»، (باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية، 1993).
- مجموعة باحثين، «الرواية والتاريخ»، تحرير وتقديم: عبدالله إبراهيم، (الدوحة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في قطر، 2006) الطبعة الأولى.
- مجموعة كتاب، «الطيب صالح: جسر بين الشرق والغرب»، (برلين: إصدارات السفارة السودانية، 2013) الطبعة الأولى.
- محسن أحمد الخضيري، «إدارة التوتر: مقدمة في علم إدارة التوتر المحلي والدولي»، (القاهرة: مكتبة إيزاك، 2009).
- محسن بوعزيزي، «السيميولوجيا الاجتماعية»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010) الطبعة الأولى.
- محمد جابر الأنصاري، «تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها»، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1992) الطبعة الأولى.
- محمد رؤوف حامد، «الرقص مع الفساد: تحليل علمي وحالات واقعية»، (القاهرة: دار العين للنشر، 2011) الطبعة الأولى.
- محمد عبدالمنعم نور، «الإنسان ومجتمعه: دراسة أساسية للظواهر النفسية والاجتماعية»، (القاهرة: دار المعرفة، 1978).
- د. محمد الجوهري (مشرف)، «الكتاب السنوي لعلم الاجتماع: المجموعة الكاملة»، (القاهرة: دار المعارف، 1981) الطبعة الأولى.
- د. محمد سعدي، «مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008) ، الطبعة الأولى.
- د. محمد السيد سليم، «تحليل السياسة الخارجية»، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، 1989)، الطبعة الأولى.
- محمد عابد الجابري، «العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1990) الطبعة الأولى.
- محمد العجاتي (مشرف) «جيل الشباب في الوطن العربي ووسائل المشاركة غير التقليدية من المجال الافتراضي إلى الثورة»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2015) الطبعة الثانية.
- محمد عزيز الحبابي، «مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر»، (القاهرة: دار المعارف، 1990) 1990.
- مصطفى الفقي، «الدولة المصرية والرؤية العصرية: من فكر المراجعة إلى فكر المستقبل»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007) الطبعة الأولى.
- معتز سيد عبدالله، «إدارة التغيير التنظيمي: الأسس النظرية والمهارات والتطبيقات العملية»، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2014) الطبعة الأولى.
- محمود أمين العالم، «مواقف نقدية من التراث»، (دبي: مؤسسة سلطان العويس، 2010) الطبعة الثانية.

- محمود عبدالفضيل، «رأسمالية المحاسيب: دراسة في الاقتصاد الاجتماعي»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2011) الطبعة الثانية.
- نادر السراج، «مصر الثورة وشعارات شبابها: دراسة لسانية في عفوية التعبير»، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014) الطبعة الأولى.
- نادية مصطفى (محرر)، «علم السياسة: مراجعات نظرية ومنهاجية»، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية/ جامعة القاهرة، 2004) الطبعة الأولى.
- ناجي الركابي، «الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي: دراسة في جينالوجيا الثقافة العراقية»، (دمشق: دار تموز للطباعة والنشر، 2012) الطبعة الأولى.
- ناصيف نصار، «منطق السلطة: مدخل إلى فلسفة الأمر»، (بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، 1995) الطبعة الأولى.
- نبيل عبدالفتاح، «عقل الأزمة: تأملات نقدية في ثقافة العنف والغرائز والخيال المستور»، (القاهرة: دار سشات للدراسات والنشر والتوزيع، 1993) الطبعة الأولى.
- نجيب محفوظ، «ثرثرة فوق النيل»، (القاهرة: دار الشروق) 2006.
- هبة رءوف عزت، «الخيال السياسي للإسلاميين ما قبل الدولة وما بعدها»، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2015) الطبعة الأولى.
- د. يوسف سلطان الطائي وعامر حسين العطوي، «الذكاء الشعوري في المنظمات: مدخل متكامل»، (عمان: مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، 2009).

ثانيا: كتب أجنبية مترجمة

- أدريان فورنهام، «الفيل في غرفة مجلس الإدارة: أسباب انحراف القيادة»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2014) الطبعة الأولى.
- إدوارد دي بونو، «التفكير الجانبي: كسر للقيود المنطقية»، ترجمة نايف الخوص، (دمشق: الهيئة السورية العامة للكتاب، 2010).
- إدي فاينر وأرنولد براون، «التفكير المستقبلي: كيف تفكر بوضوح في زمن التغير»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2008)، الطبعة العربية الأولى.
- إريك فروم، «الإنسان بين الجوهر والمظهر» ترجمة: سعد زهران، مراجعة: لطفي فطيم، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989) سلسلة عالم المعرفة، العدد 140.
- إريك فروم، «المجتمع السليم»، ترجمة: محمود محمود، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2012).
- أريك هوبسباوم وتيرنس رينجر (محرران)، «اختراع التراث: دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع»، ترجمة: شيرين أبو النجار وآخرون، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية/ كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2004) الطبعة الأولى.
- أفلاطون، «جمهورية أفلاطون»، ترجمة: د. فؤاد زكريا، (دبي: مؤسسة سلطان العويس، 2010).
- إكناث إيسوَارن، «غاندي الإنسان»، ترجمة: غياث جازي، (دمشق: معابر للنشر والتوزيع، 2013) الطبعة الأولى.
- إلكسندرو روشكا، «الإبداع العام والخاص»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، سلسلة عالم المعرفة، العدد 144.

- ألين شوفيلد، «المحاكاة في التدريب الإداري»، ترجمة: محمد حسن، (القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 1995).
- أنطوني دي كرسبني وكينيث ميتوج، «من فلاسفة السياسة في القرن العشرين»، ترجمة وتقديم: نصار عبدالله، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012) الطبعة الأولى.
- إيف شارل زركا، «السياسة والخيال»، ترجمة: الحسن اللحية، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2008)، الطبعة العربية الأولى.
- باسكال بونيفاس، «الحرب العالمية الرابعة» ترجمة: أحمد الشيخ، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006).
- برتران بادي وبيار بيرنبوم، «سوسولوجيا الدولة»، ترجمة: جوزف عبدالله وجورج أبي صالح، (بيروت: مركز الإنماء القومي) د. ت.
- برتراند راسل، «فلسفتي كيف تطورت»، ترجمة: عبدالرشيد الصادق محمودي، مراجعة وتقديم: زكي نجيب محمود، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2012) الطبعة الأولى.
- بريان بوند، «الفكر العسكري عند ليدل هارت»، ترجمة: سمير كرم، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979).
- ب. ف. سكينز، «تكنولوجيا السلوك الإنساني»، ترجمة: عبدالقادر يوسف، مراجعة: محمد رجا الدريني، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1980) سلسلة عالم المعرفة، العدد 32.
- بندكت أندرسن، «الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها»، ترجمة: ثائر ديب، (بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، د. ت).
- بول ريكور، «الذات عينها كآخر»، ترجمة وتقديم وتعليق: د. جورج زيناتي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005) الطبعة الأولى.
- بيتر سينجر، «الحرب عن بعد: دور التكنولوجيا في الحرب»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية)، الطبعة الأولى 2010.
- توماس كارليل، «الأبطال» ترجمة: محمد السباعي، (القاهرة: دار الهلال، 1978) الطبعة الثانية.
- توماس كون، «بنية الثورات العلمية»، (الكويت: الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992) سلسلة عالم المعرفة، العدد 168.
- توماس هوبز، «اللفياثان: الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة»، ترجمة: ديانا حبيب حرب وبشرى صعب، مراجعة وتقديم: رضوان السيد، (بيروت/ دار الفارابي . أبوظبي/ مشروع كلمة، 2011) الطبعة الأولى.
- توم لومباردو «قيمة الوعي بالمستقبل» في سينثيا ج. واغنر، «الاستشراف والابتكار والاستراتيجية»، ترجمة: صباح صديق الدملوجي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009) الطبعة العربية الأولى.
- تيرنس بول وريتشارد بيلامي، «الفكر السياسي في القرن العشرين»، ترجمة: منى مقلد، مراجعة وتحرير: طلعت الشايب، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010) الطبعة الأولى.
- غاستون باشلار، «الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادة»، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007) الطبعة العربية الأولى.
- جاك غولدستون وإريك كوفمان ومونيكا دافي توفت، «الديموغرافيا السياسية: كيف تعيد التغيرات السكانية تشكيل الأمن الدولي والسياسة الوطنية؟»، ترجمة: مركز الإمارات

للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية) الطبعة الأولى، 2014.

- جاك لومبار، «مدخل إلى الأثنولوجيا»، ترجمة: حسن قبيسي، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1997) الطبعة الأولى.
- جان توشار وآخرون، «تاريخ الفكر السياسي»، ترجمة: علي مقلد، (بيروت: الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، 1983) الطبعة الثانية.
- جورج بالانديه، «الأنثربولوجيا السياسية»، ترجمة: جورج أبي صالح، (بيروت: منشورات مركز الإنماء القومي، 1986) الطبعة الأولى.
- غوستاف لوبون، «سيكولوجية الجماهير»، ترجمة: هاشم صالح، (بيروت ـ لندن: دار الساقي، 2015) الطبعة السادسة.
- جون إلستر، «تفسير السلوك الاجتماعي: نحو مزيد من الانطلاق والتحديات أمام العلوم الاجتماعية»، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2012).
- جون ج. تايلور، «عقول المستقبل»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1985) سلسلة عالم المعرفة، العدد 92.
- جون ستون، «الاستراتيجية العسكرية: سياسة وأسلوب الحرب»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2104)، الطبعة العربية الأولى.
- جون هارتلي (محرر)، «الصناعات الإبداعية: كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا والعولمة؟» ج1، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2007) سلسلة عالم المعرفة، العدد 338.
- خوسيه إنريكي رودو، «بوليفار»، ترجمة: محمود علي مكي، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2007).
- دافيد هيوم، «تحقيق في الذهن البشري»، ترجمة: محمد محجوب، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008)، الطبعة الأولى.
- دانييل غورين، «اللاسلطوية: من النظرية إلى التطبيق»، ترجمة: مزاحم الطائي، (طرابلس: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان. د. ت)، الطبعة الأولى.
- داون نونسيباتو، «الحرية الافتراضية: حيادية الشبكة وحرية التعبير في عصر الإنترنت»، ترجمة: أنور الشامي، مراجعة: وفاء التومي، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2011) الطبعة العربية الأولى.
- دليل بيرنز، «المثل السياسية»، ترجمة: لويس إسكندر، مراجعة: محمد أنيس، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2007).
- دنكان بريتشارد، «ما المعرفة»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013) سلسلة عالم المعرفة، العدد 404.
- دورتي، جيمس، وبالسغراف روبرت، ترجمة: وليد عبدالحي، «النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية» (عمان: مركز أحمد ياسين، 1995).
- ديفيد باول، «ذكاء الروح: 175 مفتاحا عمليا للنجاح في حياتك العملية والأسرية»، ترجمة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، (القاهرة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، 2010) الطبعة العربية الأولى.
- ديلاسي أوليري، «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» ترجمة: تمام حسان، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007).

- راسل جاكوبي، «نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001) سلسلة عالم المعرفة، العدد 269.
- رايت ميلز، «الخيال العلمي الاجتماعي» ترجمة: د. عبدالباسط عبدالمعطي، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1998) الطبعة العربية الأولى.
- ر. ج. كولنجوود، «فكرة التاريخ»، ترجمة: محمد بكير خليل، مراجعة: محمد عبدالواحد خلاف، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، 2012).
- روبرت د. ناي، «السلوك الإنساني: ثلاث نظريات في فهمه»، ترجمة: أحمد سميح صبح، ومنير فوزي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 2003.
- روجيه جارودي، «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»، ترجمة: محمد هشام، تقديم: محمد حسنين هيكل، (القاهرة: دار الشروق، 2002) الطبعة الرابعة.
- رينيه جيرار، «كبش الفداء»، ترجمة: منار رشدي أنور، (القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، 1998) الطبعة الأولى.
- ريتشارد كلارك وروبرت نيك، «حرب الفضاء الإلكتروني: التهديد التالي للأمن القومي وكيفية التعامل معه»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2012).
- ريتشارد نيد ليبو، «لماذا تتحارب الأمم؟: دوافع الحرب في الماضي والمستقبل»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013)، سلسلة عالم المعرفة، العدد 403.
- زبيغنيو بريجنسكي، «الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم»، ترجمة: عمر الأيوبي، (بيروت: دار الكتاب العربي، 2004).
- زيودين ساردار وبورين فان لون، «أقدم لك الدراسات الثقافية»، ترجمة: وفاء عبدالقادر، مراجعة وإشراف: إمام عبدالفتاح إمام، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003) الطبعة العربية الأولى.
- سون تسي، «فن الحرب»ـ ترجمة: ربيع مفتاح، (القاهرة: دار أخبار اليوم، 2014).
- سيرج بوغام، «ممارسة علم الاجتماع»، ترجمة: منير السعيداني، مراجعة: ميشال عواد، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2012) الطبعة الأولى.
- سيمون سينك، «ابدأ مع لماذا: كيف يلهم القادة العظماء الناس للعمل»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2013) الطبعة العربية الأولى.
- شانتال ميلون دلسون، «الأفكار السياسية في القرن العشرين»، ترجمة: د. جورج كتورة، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1994)، الطبعة الأولى.
- غاندي، «قصة تجاربي مع الحقيقة»، ترجمة: محمد إبراهيم السيد، مراجعة: مجدي عبدالواحد عنبة، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011) الطبعة الثانية.
- فرنان شنيدر، «تاريخ الفنون العسكرية»، ترجمة: فريد أنطونيوس، (بيروت: منشورات عويدات، 1982) الطبعة الثانية.
- فيليب تايلور، «حرب العقول: أخطر الدعايات الحربية في معارك التاريخ»، (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2010) الطبعة الأولى.
- كارل بوبر، «بؤس الأيديولوجيا: نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي»، ترجمة: عبدالحميد صبره، (بيروت: دار الساقي، 1992) الطبعة الأولى.
- كارل ل. بيكر، «المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر»، ترجمة: محمد شفيق غربال، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005).
- كافين رايلي «الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات» (القسم الثاني)، ترجمة:

د. عبدالوهاب المسيري، د. هدى حجازي، مراجعة د. فؤاد زكريا، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1986) سلسلة عالم المعرفة، العدد 97.

- كانط، «مشروع للسلام الدائم»، ترجمة: عثمان أمين، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1966) الطبعة الثانية.

- كريستوفر كوكر، «الحرب في عصر المخاطر»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2011) الطبعة العربية الأولى.

- كلايف بل، «المدنية»، ترجمة: محمود محمود، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012).

- كلير كرامش، «اللغة والثقافة»، ترجمة: د. أحمد الشيمي، مراجعة: عبدالودود العمراني، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2010) الطبعة العربية الأولى.

- ماريا لويزا برنيري، «المدينة الفاضلة عبر التاريخ»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سبتمبر 1997).

- مارتن لوثر كنج، «لماذا نفد صبرنا»، ترجمة: عديلة حسين مياس، مراجعة: مصطفى حبيب، (القاهرة: مؤسسة السجل العربي، 1966) الطبعة العربية الأولى.

- مايكل لي لاننغ، «100 قائد عسكري: تصنيف لأكثر القادة العسكريين تأثيرا في العالم عبر التاريخ»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 1999) الطبعة الأولى.

- مايكل ميكالكو، «كيف تصبح مفكرا مبدعا: أسرار العبقرية الإبداعية»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010).

- مايكل هيل، «أثر المعلومات في المجتمع: دراسة لطبيعتها وقيمتها واستعمالها»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2004) الطبعة العربية الأولى.

- موريس دوفرجيه، «علم اجتماع السياسة»، ترجمة: سليم حداد، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع)، الطبعة الأولى.

- لجنة إدارة شؤون المجتمع الدولي، «جيران في عالم واحد»، ترجمة: مجموعة من المترجمين، مراجعة: عبدالسلام رضوان، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1995)، سلسلة عالم المعرفة، العدد 201.

- اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، «مستقبلنا المشترك»، ترجمة: محمد كامل عارف، مراجعة: د.علي حسين حجاج، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989) سلسلة عالم المعرفة، العدد 142.

- مجموعة خبراء، «إسرائيل 2020: خطتها التفصيلية لمستقبل الدولة والمجتمع»، ترجمة: مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001).

- مجموعة باحثين، «الحرب عن بعد: دور التكنولوجيا في الحرب»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2010) الطبعة الأولى.

- مجموعة باحثين، «الحروب المستقبلية في القرن الحادي والعشرين»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2014) الطبعة الأولى.

- مجموعة باحثين، «صور المستقبل العربي»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية وجامعة الأمم المتحدة - مشروع المستقبلات العربية البديلة، 1982).

- مجموعة باحثين، «كيف نقرأ العالم العربي اليوم؟: رؤى بديلة في العلوم الاجتماعية»،

ترجمة: شريف يونس، (القاهرة: دار العين، 2013) الطبعة العربية الأولى.
- مجموعة باحثين، «هكذا يصنع المستقبل»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2001).
- نيكوس كازانتزاكيس، «زوربا»، (بيروت: دار الطليعة، 1979) الطبعة الرابعة.
- هارولد لاسكي، «الدولة نظريا وعمليا»، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2012) الطبعة الثانية.
- هاري آر. يارغر، «الاستراتيجية ومحترفو الأمن القومي: التفكير الاستراتيجي وصياغة الاستراتيجية في القرن الحادي والعشرين»، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2011) الطبعة العربية الأولى.
- هانز جي. مورجنتاو، «السياسة بين الأمم: الصراع من أجل السلطان والسلام»، ترجمة: خيري حماد، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965) الطبعة الأولى.
- هيرمان كان وآخرون، «العالم بعد مائتي عام: الثورة العلمية والتكنولوجية خلال القرنين القادمين»، ترجمة: شوقي جلال، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1982) سلسلة عالم المعرفة، العدد 55.
- وورين كيد وكارين لج وفيليب هراري، «السياسة والسلطة»، (أبوظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2012).
- ويليام هاولز، «ما وراء التاريخ»، ترجمة: أحمد أبو زيد، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011).
- ينسن زونتجن، «فكر بنفسك: عشرون تطبيقا للفلسفة»، ترجمة: عبدالسلام حيدر، (القاهرة: المحروسة للنشر والخدمات الصحافية والمعلومات، 2006) الطبعة العربية الأولى.

ثالثا: أطروحات جامعية

- حامد أحمد هاشم «نظرية المباريات وتحليل الصراعات الدولية مع التطبيق على الصراع العربي الإسرائيلي»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1983.
- مديونة صليحة، «نظرية المحاكاة بين الفلسفة والشعر»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2006.

رابعا: قواميس ومعاجم وموسوعات

- آرثر جولد شميث (الابن)، «قاموس تراجم مصر الحديثة»، ترجمة وتحقيق: عبدالوهاب بكر، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003).
- ابن منظور، «لسان العرب»، (بيروت: دار صادر، 2010).
- بول روبنسون، «قاموس الأمن الدولي»، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2009) الطبعة الأولى.
- جوردون مارشال، «موسوعة علم الاجتماع» ترجمة: محمد محيي الدين، ومحمود عبدالرشيد، وهناء الجوهري، إشراف: محمد محمود الجوهري، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2001) الطبعة العربية الأولى.

- دينكن ميتشيل، «معجم علم الاجتماع»، ترجمة: د. إحسان محمد الحسن، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1986) الطبعة الثانية.
- سامي خشبة، «مصطلحات الفكر الحديث»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006) الطبعة الأولى.
- شارلوت سيمور سميث، «موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثربولوجية»، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، إشراف: محمد الجوهري، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009) الطبعة الثانية.
- د. عبدالوهاب المسيري، «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، (القاهرة: دار الشروق، 1999)، الطبعة الأولى.
- د. محمد عاطف غيث، «قاموس علم الاجتماع»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979) الطبعة الأولى.

خامسا: أبحاث ودراسات

- حامد أحمد بدر، «فعاليات اتخاذ القرار بواسطة مجموعة»، جامعة الكويت، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول، المجلد الثالث عشر، 1985 م.
- حبيب الله علي إبراهيم علي، «نظرية المحاكاة عند حازم القرطاجني من خلال كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، مجلة الآخر، العدد (13) مارس 2012.
- خير الدين حسيب، «العرب ... إلى أين؟: نحو خطة طريق للخروج من المأزق العربي الراهن»، ورقة مقدمة لندوة «مستقبل التغيير في الوطن العربي» الذي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد السويدي بالإسكندرية، بيروت، 9 ـ 12 نوفمبر 2015.
- د. علي الدين هلال، «مفهوم الاستراتيجية في العلوم الاجتماعية»، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، العدد 4، أبريل 1982.

سادسا: مقالات صحافية

- أحمد برقاوي، «الوهم والخيال»، صحيفة «البيان» الإماراتية، 2015/10/25
- إسماعيل أبو البندورة، «الخيال السياسي وبناء المستقبل»، articles.abolkhaseb.net/ar_articles_2008/0108/bndora_080108.htm، تاريخ الاطلاع: 24 أغسطس 2013.
- إلياس توما، «البابا أسقط الشيوعية في بولندا»، موقع إيلاف، http://elaph.com/Politics/2005/4/53719.htm
- توفيق السيف، «كي لا يمسي الخيال دليلا في السياسة»، صحيفة الشرق الأوسط، 21 أكتوبر 2015.
- جورج طرابيشي، «صناعة الأوهام»ـ الحوار المتمدن، العدد: 1114، 19 فبراير 2005، www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=32024
- حازم دياب «خطورة أن تتمنى»، صحيفة «الوطن» المصرية، 30 أكتوبر 2015.
- د. حسن حنفي، «الخيال السياسي .. رؤية مصرية» جريدة الاتحاد الإماراتية، 20 سبتمبر 2014.

- د. حلمي الجزار، «خيال السياسي»، جريدة «المصري اليوم»، 26 أغسطس 2012.
- ديانا جبور، «خيال السياسي» موقع الثورة، 9 مايو 2011،
thawra.sy/_print_veiw.asp?FileName=18105895620110508215 47
- رجاء النقاش، «عبدالناصر يقرأ ثرثرة فوق النيل»، الأهرام/ 17 سبتمبر 2006.
- رمضان مصباح الإدريسي، «الأساطير المؤسسة للمظلومية الأمازيغية»،
www.oujdacity.net/national-article-75595-ar/
- سعود الكابلي «الخيال السياسي»، 24 www.almqaal.com/?p=1578، يناير 2012.
- د. شفيق ناظم الغبرا، «العروبة بين الحاضر والخيال السياسي»، جريدة الحياة، 25 فبراير 2016.
- صالح النملة، «السياسة وافتقاد الخيال»، صحيفة «الرياض» السعودية، 12 مارس 2003.
- الطاهر وطار، حوار، الملحق الثقافي لصحيفة الخليج الإماراتية، 29 نوفمبر 1999.
- عامر راشد «ما بين التنجيم السياسي والتنجيم الفلكي»،
www.easternmednews.com/index.php/permalink/7153.html
- عبدالله الملحم، كارثية الوهم السياسي، صحيفة «الراية» القطرية، 9 نوفمبر 2014
- علي الديري، «هل لدى سياسيينا خيال؟»، موقع الوقت، 3 أبريل 2009،
www.alwaqt.com/blog_art.php?baid=10058.
- على الرحال، «مصر: عن أزمة الخيال السياسي»، جريدة السفير اللبنانية، 6 نوفمبر 2013.
- غسان شاهين، «الأساطير المؤسسة لمشروع كردستان الغربية»،
www.mokarabat.com/s1505.htm
- علي سالم، «التوقع والخيال السياسي والفانتازيا الثورية»، صحيفة الشرق الأوسط، 18 فبراير 2010.
- فيصل دراج، «فريدريك غروس وفلسفة المشي ... من الرواقيين إلى غاندي»، صحيفة «الحياة» اللندنية، 25 أغسطس 2015.
- وفاء إبراهيم، «التفكير بالتمني والتفكير بالواقع»، صحيفة «الأهرام» المصرية، 16 يونيو 2003.
- وليد نويهض، «التنجيم السياسي»، صحيفة الوسط البحرينية، الأول من يناير 2015.

سابعا: مواقع إلكترونية

1 - www.fallacyfiles.org/wishthnk.html1
www.al-monitor.com/pulse/ar/originals/2014/11/turkey-22united-states-davutoglu-wishful-thinking.html#ixzz3q1pfAjAy
ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%81%D9%83%D9%8A%D8%B1_%D8%B1%D8%BA%D8%A8%D9%88%D9%8A
- لواء أحمد ضياء الدين، «ماهية الحس الأمني وخصائصه الأساسية»، مركز الأمن الصناعي،
www.isc.egypt.com/details_ar.aspx?Page_ID=496
- د. صالح زياد، «المحاكاة»:
www.al-jazirah.com/culture/2012/10052012/fadaat17.htm
- كيف تتم قراءة استطلاعات الرأي العام، الشبكة العربية لاستطلاعات الرأي العام،
www.anpop.org.eg/how-analyse-results.aspx

ـ موقع المنظمة العربية للتنمية الإدارية على شبكة الإنترنت:
www.arado.org.eg

ثامنا: كتب أجنبية

- Alan Bryman, *Quantity and Quality in Social Research*, London, New York, Routledge, 4th Edition 1995.

-A. F. Osborn, *Applied Imagination: Principles and Procedures of Creative Problem Solving* (Third Revised Edition). New York, NY: Charles Scribner's Sons., 1st edition, 1953.

- Carola McGiffert (ed.) *China in the American Political Imagination*, The CSIS Press, Center for International Studies, Washington D.C. 1ST edition, 2003.

- Darrell Huf, *How to Lie with Statistics*, Norton, New York, 1st edition, 1954.

- Diane Stone, *Capturing The Political Imagination: Think Tanks and the Policy Process*, London, Frank Cass,1st Edition,1996.

- Edgar Litt, *The Political Imagination; Dialogues in Politics and Political Behavior*, Glenview,IL, Scott, Foresman, 1966.

- George Orwell, *1984*, Harper Collins, Canada,2013.

- Ian Adams, *Political Ideology Today*, Manchester, Manchester University Press, 1995, 2nd Edition.

- Ira Katznelson & Gareth Stedman, Editors, *Religion and the Political Imagination*, Columbia University, New York, 2010.

- Jack Snyder, *From Voting to Violence: Democratization and Nationalist Conflict*, New York - London, W. W., Norton & Company, INC, 1st Edition, 2000.

- Jacques Ellul, *The Political Illusion*, Wipf & Stock Publishers, March 2015.

-Jeffrey C. Goldfarb, *Political Imagination, the Definition of the Situation and Fictoids*, DC Week in Review, June 17th, 2011

- John Horton and Andrea T. Baumeister (editors), Literature and Political Imagination, London and New York,1st published, 1996.

- John L. and Jean Comaroff, *Civil Society and The Political Imagination in Africa: Critical Prespectives*, The University of Chicago press, 1999.

- John Schwarz Mantel, *The Age of Ideology* : Political Ideologies from The American Revolution to Post – Modern Times, London, Macmillan, Press Ltd 1st Edition,1998.

- Kenneth Minogue, *Ideology after The Collapse of Communism in Alexsandras štromas, The End of ISMS? : Reflection of The Fate of Ideological Politics after Communism Collapse*, Black Well, Oxford UK ,

Cambridge USA, 1st Edition, 1994.

- Leon P. Baradat, *Political Ideologies: Their Origins and Impact*, New Jersy, Prentice- hall inc. 6th edition, 1997.

- Lyman Tower Saragent, *Contemporary Political Ideologies: A Comparative Analysis*, Harcourt Brace & Company 10th Edition, 1996,

-Martyn Hammersley, *The Politics of Social Research*, London, New Delhi, Sage Publication Inc. 1st Edition, 1995.

- Max J. Skidmore, *Ideologies: Politics In Action*, Harcourt - Brace & Company, 2nd Edition, 1993.

-Michael Freeden, *Ideologies and Political Theory: A Conceptual Approach*, Oxford University, clarendon Press, 1st Edition, 1996.

- Nicholas Comfort, *Brewers Politics: A Phrase and Fable Dictionary*, London, Cassell PLC, 2nd Edition, 1995.

-Nigel Harvey, *Wishful thinking impairs belief-desire reasoning: A case of decoupling failure in adults*? Cognition, Volume 45, Issue 2, 1992.

- Paul Schumaker, Dwight C. Kiel & Thomas W. Heilke, *Ideological Voices: An Anthology in Modern Political Ideas*, The Mc _ Graw, Hill Co. 1997.

- *Political Theory*, Cornell University, Ithaca, New York, February 2009 vol. 37 no. 1.

- Raymond Geuss, *Politics and the Imagination*, press.princeton,2009.

- Roy C. Macridis, Mark L. Hulling, Contemporary Political Ideologies: Movements and Regimes, Harper Collins College Publishers, 6th Edition, 1996.

-Steele Meili, *S. Hiding from History, Politics and Public* Imagination, Carnnel University Press, 2005.

- Timothy Cory, *Brainstorming: Techniques for New Ideas*, Universe INC, New York, London, Shanghai, 1st Edition,2003.

تاسعا: مقالات

- Christopher Booker, What happens when the great fantasies, like wind power or European Union, collide with reality? *The Telegraph*, 23 April 2011.

- New York Times. "The Shape of Things to Come". *New York Times*. Retrieved 23 March 2011.

د. عمار علي حسن

- ■ ولد بقرية الإسماعيلية، محافظة المنيا، جمهورية مصر العربية، في 21 ديسمبر من العام 1967.
- ■ تخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة العام 1989، وحصل على الدكتوراه في العلوم السياسية العام 2001.
- ■ صدر له واحد وعشرون كتابا في علم الاجتماع السياسي والنقد الأدبي من أهمها: «النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية»، و«التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر»، و«التغيير الآمن»، و«ممرات غير آمنة»، و«تقريب البعيد»، و«أمة في أزمة»، و«الفريضة الواجبة»، و«أصناف أهل الفكر»، و«القرية والقارة»، و«المجتمع العميق»، و«بهجة الحكايا: على خطى نجيب محفوظ».
- ■ صدرت له عشر روايات أدبية أهمها: «شجرة العابد»، و«جبل الطير»، و«سقوط الصمت»، و«باب رزق»، و«بيت السناري»، و«خبيئة العارف»؛ إلى جانب خمس مجموعات قصصية هي: «أحلام منسية»، و«عرب العطيات»، و«التي هي أحزن»، و«حكايات الحب الأول»، و«عطر الليل».
- ■ حصل على العديد من الجوائز أهمها جائزة الدولة للتفوق، وجائزة الشيخ زايد للكتاب، وجائزة اتحاد كتاب مصر في الرواية، وجائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي في الرواية، وجائزة جامعة القاهرة في القصة القصيرة، وجائزة هزاع بن زايد في أدب الأطفال.
- ■ أشرف على عدد من أطروحات الماجستير والدكتوراه بعدة جامعات مصرية، وتعد حول أعماله الروائية والقصصية ثماني أطروحات جامعية داخل مصر وخارجها.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشره. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ــ المؤلف أو المترجم ــ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألفا دينار كويتي وللمترجم مكافأة بمعدل ثلاثين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي (وبحد أقصى مقداره ألفان وخمسمائة دينار كويتي).

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت	
للأفراد	15 د. ك
للمؤسسات	25 د. ك
دول الخليج	
للأفراد	17 د. ك
للمؤسسات	30 د. ك
الدول العربية	
للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	
للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقدا أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1196/ 1195/ 1194/ 1193/1153/ 1152

أسماء وأرقام وكلاء التوزيع

أولاً: التوزيع المحلي - دولة الكويت

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	الإيميل
1	الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	00965 24826820 /1/2	2482682300965 /	im_grp50@yahoo.com
ثانياً: التوزيع الخارجي					
2	السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	1441897200966 /14419933 -	121277400966 /12121766 -	bander.shareef@saudidistribution.com babiker.khalil@saudidistribution.com
3	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	3661616800973 /17617733 -	1761774400973 /	cir@alayam.com rudainaa.ahmed@alayam.com
4	الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	00971 43916501 /2/3	4391801900971 /43918354 -	eppdc@emirates.net.ae info@eppdco.com essam.ali@eppdco.com
5	سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	2449139900968 /24492936 - 24496748 -	2449320000968 /	alattadist@yahoo.com
6	قطر	شركة دار الثقافة	4462218200974 /44621942 -	4462180000974 /	thaqafadist@qatar.net.qa
7	مصر	مؤسسة أخبار اليوم	00202 25782700/1/2/3/4/5 00202 25806400	2578254000202 /	ahmed_issac2008@hotmail.com
8	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 1666314 /15	165325900961 / 165326000961 /	topspeed1@hotmail.com
9	تونس	الشركة التونسية	7132249900216 /	7132300400216 /	sotupress@sotup.com.tn
10	المغرب	الشركة العربية الأفريقية	52224920000212 /	52224921400212 /	s.wardi@sapress.ma
11	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	79720409500962 /6535885 -	6533773300962 /	alshafiei.ankouaba@aramex.com basem.abuhameda@aramex.com
12	فلسطين	شركة رام الله للتوزيع والنشر	2298080000970 /	2296413300970 /	wael.kaseese@rdp.ps
13	اليمن	القائد للنشر والتوزيع	124088300967 /	124088300967 /	alkaidpd@yahoo.com
14	السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	83242702002491 /	83242703002491 /	daralryan_cup22@hotmail.com daralryan_12@hotmail.com

هذا الكتاب...

يطرح هذا الكتاب موضوعا نادر التناول في التحليل السياسي، ويتصدى له بطريقة مباشرة وشاملة. ويتناول الكتاب معنى الخيال السياسي، وكل ما شابهه أو التبس به، ثم يبين حاجة الحاكم والمحكوم إليه، ويشرح كيف يمكن للسياسة أن تكون مجالا للخيال في توزعها بين الإيهام والإبهام والإلهام، وكيف يمكن للخيال السياسي أن ينبع من استقراء التاريخ، والوعي بالمستقبل، وبصيرة القيادة، وروح الفريق، والتفكير الجانبي والتباعدي، ونظرية المباريات، والمحاكاة، وقرائح مبدعي الأدب، واستطلاعات آراء الناس، واستعراض التجارب الناجحة ودراستها.

ويعدد الكتاب سبل تنمية الخيال السياسي وشحذه، والمعوقات التي تحول دون ذلك مثل: الاستسلام للواقع، وبلادة صناع القرار، والتحكم البيروقراطي، ونقص المعلومات والاستهانة بها، والجهل بالتاريخ، وتقديس الموروث، والتفكير بالتمني، وسطوة الأيديولوجيا. ويطرح بعدها عدة مجالات لتوظيف الخيال السياسي مثل: عبور الأزمات، وبناء الخطط والاستراتيجيات، والحرب، ومكافحة الفساد، ومواجهة الإرهاب، وتعزيز الحس الأمني، وتقدير الموقف، وتفادي سلبيات الديموغرافيا السياسية، والبحث عن المثل العليا والفضائل الاجتماعية والسياسية، وتكوين الجماعات المتخيلة أو اختراع الهويات القومية، وتوظيف «الصناعات الإبداعية» في خلق التماسك الاجتماعي وصناعة الدور. وأخيرا، يعرض نماذج تطبيقية للتخيل السياسي قدمها أفراد ومؤسسات.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 566 - 2

إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا :
www.nccal.gov.kw/publications